
الصوت
ودلالة المعنى
في القرآن الكريم
دراسة تطبيقية
الأستاذ الدكتور
عقيد خالد العزّاوي
مركز المستنصرية للدّراسات العربيّة والدّوليّة
الدكتور
عماد بن خليفة الدّايني البعقوبي
أكاديمي في دائرة الأوقاف
دار العصماء

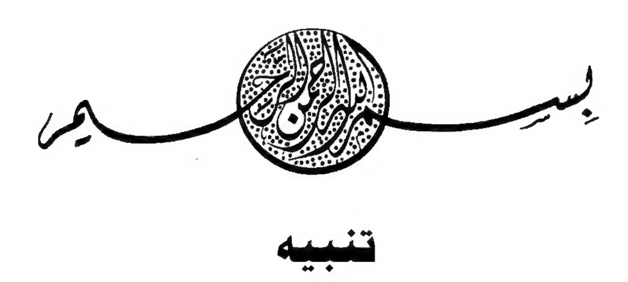
الصوت ودلالة المعنى في القرآن الكريم

دراسة تطبيقيَّة

أ.د. عَقِيْدُ خَالِدِ حَمُّوْدِيْ العزَّاوِيُّ
مركز المستنصرية
للدراسات العربية والدولية

د. عِمَادُ بْنُ خَلِيْفَةَ الدَّايْنِيُّ الْبَعْقُوْبِيُّ
أكاديمي في دائرة الأوقاف





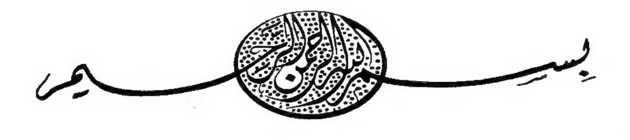
تنبيه

استعملنا مصطلحات عربية واستبعدنا الاعجمي والدخيل نحو:

صويت: فونيم

نغمة: الوفون

التلاؤم الصوتي، الجرس: موسيقى



مقدِّمة

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ سيِّدنا وحبيبنا محمّداً عبده ورسوله صلَّى الله وسلّم تسليماً كثيراً عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وأهل السنّة إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فإنَّ الدراسات اللغويَّة عامَّة والصوتيَّة خاصَّة ممَّا كتبت فيه الكتب ودرست فيه الدراسات، وقد سبق دراستنا هذه دراسات عربيَّة ومترجمة منها ما كان خاصّاً بالدراسة الصوتيَّة، ومنها ما كان ضمن دراسات لغويَّة، ومن أهمِّ هذه الدراسات:

١- **الدراسة الصوتيَّة**: الأصوات اللغوية، وموسيقى الشعر، كلاهما للدكتور إبراهيم أنيس. ودراسات في علم أصوات العربية داود عبده، وأصوات القرآن يوسف الخليفة أبو بكر، ودراسة الصوت اللغويّ أحمد مختار عمر، وأصوات اللغة للدكتور عبد الرحمن أيُّوب.

٢- **الدراسات اللغويَّة**: موسيقى الشعر، ودلالة الألفاظ كلاهما للدكتور إبراهيم أنيس، و مناهج البحث في اللغة للدكتور تمَّام حسان، وفقه اللغة، علم اللغة كلاهما للدكتور علي عبد الواحد وافي، ودراسات في علم اللغة فاطمة محمد محجوب.

٣- **الكتب المترجمة**: دروس في علم أصوات العربية صالح القرمادي (مترجم).

وغير هذه الدراسات كثير سيأتي ذكره في الفصل الأوَّل من هذا الكتاب، وما يؤخذ على أغلب هذه الدراسات أنَّها أتت نقلاً للمناهج الغربيَّة أو

محاكاة لها، مع عدم مراعاة خصوصيَّة اللغة العربيَّة، فأراد أصحابها أن يوجدوا تطبيقا وشاهدا لكلِّ ما ذكر الغربيُّون من ظواهر في لغاتهم، ولا يخفى أنَّ لكلِّ لغة خصوصيَّتها، ونظامها، فهي غير مرتبطة بما في غيرها من ظواهر، وإن اشتركت في أكثرها. كما يؤخذ على بعض هذه الدراسات التعسُّف في إيجاد شواهد لما حملوه من مناهج غير عربيَّة، واستساغتهم للمصطلحات الأعجميَّة، لا بتعريبها فقط بل بكتابتها بالخطِّ اللاتيني، فظهر شكل الكتاب هجينا عربيٌّ وأعجميٌّ، وما يزيده هجنة أنَّه كتاب مختصٌّ باللغة العربيَّة، وهي مآخذ لا تقلِّل من أهمِّيَّة تلك الدراسات، لكنَّها تشوِّش على القارئ العربيِّ الذي كتب له هذه الكتب خصِّيصاً، ولذلك اجتهدنا في تحاشي هذه المآخذ قدر المستطاع. فجاء هذا الكتاب «**الصوت ودلالة المعنى في القرآن الكريم- دراسة تطبيقيَّة**» نقدِّمه للقارئ والباحث في قضايا الصوت وارتباطها بالدلالة ليضاف إلى المكتبة العربيَّة الزاخرة بهذا العلم لعلَّه يكمل ما بدأ السابقون، ويتجاوز ما أخذ على بعض الدراسات. وقد بذلنا فيه جهدا ووقتا، وأعملنا فيه الفكر لعلَّه يرقى إلى رضى الدارسين والمتخصِّصين، وقد تطلَّبت المادَّة العلميَّة أن يكون الكتاب مقسَّما على المقدِّمة فالتمهيد، ثمَّ خمسة فصول تتبعها الخاتمة، وينتهي بذكر المصادر والمراجع التي استقيت منها مادَّة هذا الكتاب، وقد تناولنا فيه:

- التمهيد وتناولنا فيه: تعريف كلٍّ من الصوت، والصوت اللغويِّ، وعلم الصوت، وبيان أنواع علم الصوت، ثمَّ تعريف الدلالة الصوتيَّة، والمقطع الصوتيِّ، ثمَّ ذكرنا فائدة علم الأصوات:

- **الفصل الأوَّل:** الدراسات الصوتيَّة عبر العصور. وفيه مبحثان:

المبحث الأوَّل: لجهود علماء العربية القدامى في الدراسات الصوتيَّة. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل الدراسات اللغويَّة:

المطلب الثاني: الدراسات القرآنيَّة والبلاغيَّة والعقديَّة أو الكلاميَّة.

المبحث الثاني: جهود الفلاسفة وعلماء الغرب وعلماء العربية المحدثين في الدراسات الصوتية. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: جهود الفلاسفة اليونان والعرب في الدراسات الصوتيَّة:

المطلب الثاني: جهود علماء العربية المحدثين والأثر العربيُّ في الدراسات الصوتيَّة الغربيَّة

- **الفصل الثاني:** ماهيَّة علم الصوت ومخارج الصوت اللغويِّ وخصائصه وصفاته وتطوُّره، وفيه مبحثان:

المبحث الأوَّل: ماهيَّة علم الصوت. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: مصدر الصوت وكيفيَّة حدوثه:

المطلب الثاني: العمليَّة السمعيَّة:

المبحث الثاني: مخارج الصوت اللغويِّ وخصائصه وصفاته وتطوُّره. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: مخارج الأصوات وألقابها وخصائصها.

المطلب الثاني: صفات الأصوات العربيَّة وتطوُّر الصوت اللغويِّ.

- **الفصل الثالث:** الصوامت والصوائت وأشباههما. وفيه مبحثان:

المبحث الأوَّل الصوائت وشيوعها في العربيَّة وأهمِّيَّتها. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: الصوائت.

المطلب الثاني: شيوع الصوائت في العربيَّة وأهمِّيَّتها.

المبحث الثاني: الصوامت وأشباه الصوائت والصوائت المزدوجة ونطقها. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: الصوامت وأشباه الصوائت:

المطلب الثاني: نطق أشباه الصوائت والصوائت المزدوجة

- **الفصل الرابع:** المتغيِّرات في الأداء الصوتيّ. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوَّل: مد الصوائت. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: المدُّ ودرجته.

المطلب الثانيّ: أسباب المدّ.

المبحث الثانيّ: الإمالة

المطلب الأوَّل: حروف الإمالة وشروطها:

المطلب الثانيّ: الروم والإشمام والتضعيف والاختلاس:

المبحث الثالث: التغيُّرات الصوتيَّة وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: الزيادة والقلب والإبدال.

المطلب الثاني: الحذف.

- **الفصل الخامس:** تطبيقات الدلالة الصوتيَّة في القرآن الكريم. وفيه مبحثان:

المبحث الأوَّل: الدلالة والتكامل الصوتيّ. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: البناء الصوتيّ ودلالة الظاهر.

المطلب الثاني: تكامل المستوى الدلالي مع المستوى الصوتيّ.

المبحث الثاني: التغيرات الصوتية وأثرها في الدلالة.. وفيه مطلبان:

المطلب الأوَّل: التغيرات الصوتية وأثرها في الدلالة:

المطلب الثاني: بناء الكلام وأثره في الدلالة:

- ثمَّ الخاتمة وقد أوجزنا فيها أهمَّ نتائج البحث.

ولا ندَّعي أنَّنا أتينا بما لم يأتِ به السابقون، ولكنَّنا نرجو أن يكون عملنا هذا لبنة في صرح عظيم من علوم اللغة العربيَّة. ونسال الله تبارك وتعالى القبول والإخلاص إنَّه نعم المسؤول وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلِّفان

التمهيد:

قبل الولوج إلى مادَّة كتاب: «الصوت ودلالة المعنى في القرآن الكريم- دراسة تطبيقيَّة» ارتأينا أن نقدِّم تمهيداً فيه تعريفات كلّ من الصوت، وعلم الصوت، وأنواع علم الصوت، والصوت اللغويّ، والدلالة الصوتيَّة، والمقطع الصوتي، وفائدة علم الصوت؛ ليكون القارئ على دراية بما سيقرأه في ثنايا هذا الكتاب اللطيف، وفيما يأتي توضيح لذلك:

❖ تعريف الصوت:

قام العلماء المعنيون بدراسة اللغة بتحديد ما يعنيه «الصوت» فوضعوا تعريفات لهذا المصطلح تباينت بين قديمهم وحديثهم، وكان التعريف الذي قدَّمه الإمام أحمد بن فارس في معجمه الفريد مقاييس اللغة، والذي يعدُّ صاحب نظريَّة دلاليَّة صوتيَّة في معجمه هو أشمل تلك التعريفات، إذ يقول:

صَوت: الصَّادُ وَالْوَاوُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ الصَّوْتُ، وَهُوَ جِنْسٌ لِكُلِّ مَا وَقَرَ فِي أُذُنِ السَّامِعِ. يُقَالُ: هَذَا صَوْتُ زَيْد. وَرَجُلٌ صَيِّتٌ إِذَا كَانَ شَدِيدَ الصَّوْت؛ وَصَائتٌ إِذَا صَاحَ. فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: دُعِيَ فَانْصَاتَ، فَهُوَ مِنْ ذَلكَ أَيْضاً، كَأَنَّهُ صُوِّتَ به فَانْفَعَلَ منَ الصَّوْت، وَذَلكَ إِذَا أَجَابَ. وَالصِّيتُ: الذِّكْرُ الْحَسَنُ فِي النَّاسِ. يُقَالُ: ذَهَبَ صيتُهُ(١).

يمكن القول أنَّ هذا التعريف هو أجمع تعريفات الصوت.

أمّا المصادر الأخرى فجاء فيها:

الصوت لغة: الجرس، والجمع أصوات: قال ابن السكّيت: الصوت صوت

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: (صوت): ٣/٣١٨-٣١٩.

الإنسان وغيره، والصائت: الصائح، ورجل صيّت، أي: شديد الصوت[1].

ورجل صائت: حسن الصوت شديده، وكل ضرب من الأغنيات صوت من الأصوات[2].

وذكر الراغب الأصفهانيّ (ت: ٥٠٢هـ): أنَّ الصوت الهواء المنضغط عن قرع جسمين، وهما ضربان:

صوت مجرد عن تنفس بشيء كالصوت الممتد، وتنفس بصوت ما. والمتنفس نوعان: غير اختياري كما يكون من الجمادات والحيوانات. ونوع اختياري كما يكون من الإنسان، وهو ضربان:

١- ضرب باليد كصوت العود وما يجري مجراه.

٢- ضرب بالفم في نطق وغير نطق.

فالمنطوق منه: إما مفرد من الكلام، وإما مركب كأحد الأنواع من الكلام. وغير النطق: كصوت الناي[3].

والصوت اصطلاح غنائيّ: يراد به كل لحن يردد على نحو خاص من الترجيع في الشعر العربي له طريقة محددة، ورسم يعرف به، لأنّ الأصوات: مجموعة مختارة من أغاني العرب القديمة والمولدة في أشعارها ومقطعاتها[4].

---

(١) ينظر: لسان العرب: مادة: (صوت): ٢/ ٥٧.

(٢) ينظر: كتاب العين: مادة: (صوت): ٧/ ١٤٦.

(٣) المفردات: ٢٨٨.

(٤) ينظر: الأغاني: ١/ ٧ وما بعدها.

❖ تعريف الصوت اللغويِّ:

لما كانت اللغة أصواتاً يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم[(1)]، فالصوت اللغويّ: هو أصغر وحدة تركيبيَّة تدخل في تكوين الكلام. لأنَّ المتكلِّم يتفوَّه بالعديد من سلاسل الأصوات المتشابكة التي تتحد لتكون الكلمات والتي بدورها تتحد لتكون الجمل ومِن ثَم الكلام.

وعلى هذا فليس كل ما يصدر من الإنسان من صوت يمكن أن يقال إنها لغة.

(الصوت اللغوي). إنّما الصوت اللغوي هو الذي يحمل معنى معينا يعبر به الإنسان عن أفكاره. هذا يعني أنّ الصوت اللغوي لا يتألف من عملية عضوية جسمية فقط إنما يتألف أيضاً من عملية نفسية عقلية. وتمر عملية إصدار الصوت اللغوي بمراحل تالية:

١- الأحداث النفسية والعمليات العقلية التي تجري في ذهن المتكلم قبل الكلام أو أثناءه.

٢- عملية إصدار الكلام الممثل في أصوات ينتجها جهاز النطق.

٣- الموجات والذبذبات الصوتية الواقعة بين فم المتكلم وأذن السامع.

٤- العمليات العضوية التي يخضع لها الجهاز السمعي لدى المستمع التي وقعت نتيجة رد فعل مباشر للموجات والذبذبات المنتشرة في الهواء.

٥- الأحداث النفسية والعمليات العقلية التي تجري في ذهن المستمع عند استقباله لتلك الموجات والذبذبات الصوتية.

---

(١) الخصائص: ١/٣٣.

❖ تعريف علم الصوت:

علم الصوت: هو العلم الخاص بدراسة أصوات اللغة الإنسانيَّة دراسة علمية من جوانب مختلفة ومتكاملة بدءاً من مخارجها وكيفية إخراجها من الممر الصوتيِّ وخواصها الأكوستية كموجات صوتيَّة، وانتهاءً بكيفيَّة سماعها وإدراكها بوصول الصوت إلى الأذن، ثمَّ المخِّ فيُسمع ويُدرَك.

فهو يعني: بتتبع الظواهر الصوتية لحروف المعجم العربي، وفي القرآن العظيم بخاصة لأنه حقل البحث، وذلك من حيث مخارج الأصوات ومدارجها، وأقسامها وأصنافها، وأحكامها وعللها، ودلائلها وخصائصها في أحوال الجهر والهمس والشدة والرخاوة، وملامح صوائتها وصوامتها في السكون وعند الحركة، وضوابطها في الأطباق والانفتاح، مما يتهيأ تنظيره من القرآن، ويتوافر مثاله الفريد من الكتاب، ضمن موازنة محدثة، ورؤية صوتية معاصرة، استلهمت التراث في ثرائه، وتنورت الجديد في إضاءته، فسارت بين هذين مسيرة الرائد الذي لا يكذب أهله.

ويُعَدُّ علم الصوت أحد فروع علم اللغة والتي تتطرق إلى العديد من فروع العلوم المختلفة مثل علم النحو وعلم الصرف وعلم المعنى وغيرها من العلوم، ولكنَّه يُعَدُّ الأهمَّ من بين هذه العلوم نظراً لاهتمامه بدراسة الأصوات البشرية والتي تُعَدُّ الجانب الظاهر للغة والشكل الخارجي الذى نعبّر به عمّا يدور في أذهاننا من أفكار فالأصوات تُعَدّ وسيلة التواصل الأولى لبني البشر.

❖ أنواع علم الصوت:

تلك الجوانب الثلاثة تقع في مجال علم الأصوات، وهو المختص بدراستها والنظر فيها دون غيره من فروع علم اللغة. ويتطلّب تعدد تلك

الجوانب تعدداً في المناهج حتى يقوم كل منها بدراسة جانب من تلك الجوانب ونتيجة لهذه التعدديّة، ظهرت فروع عديدة لعلم الأصوات، تختلف في أهدافها ووسائلها، وسأبيِّن أهمَّ تلك الفروع فيما يأتي[1]:

١- علم الصوت النطقيِّ أو علم الأصوات الوظيفيّ: يبحث في عمليَّة إنتاج الأصوات اللغويّة، وطريقة إصدارها، برصد تحركات أعضاء الكلام المختلفة أثناء النطق داخل الجهاز الصوتيّ، وذلك بتحديد مخارجها اللغويّة، ودراسة الجهاز الصوتي عند الإنسان والعضلات التي تتحكم في أعضاء النطق، والعمليات الخاصة به باعتبارها النشاط الذي يقوم به المتكلم، ويسمى هذا الفرع "علم الأصوات النطقيّ، أو الوظيفيّ".

٢- علم الصوت الفيزيائيِّ: يدرس الصوت في الوسط الهوائي المرحلة الانتقالية للصوت منذ خروجه من فم المتكلم حتى وصوله لأذن المستمع، من حيث خصائصها الماديِّة، أو الفيزيائية، ويعرض هذا العلم لتردُّد الصوت وسعة الذبذبة وطبيعة الموجة الصوتية الناتجة عن الكلام، وكيفية انتقالها عبر الهواء، والظواهر المصاحبة للصوت من علوّه بالنبر وحدَّته بالنغمة ونوعه بالجرس، فقد خلق سبحانه هذه المقاطع والحناجر مختلفة الأشكال فكما أنه لا تتشابه صورتان كذلك لا يتشابه صوتان من كل وجه بل كما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل بالقوة السامعة فيحصل الامتياز للأعمى والبصير، ويسمى هذا الفرع "علم الأصوات الفيزيائيِّ" ومجاله ما بين فم المتحدث وأذن المستمع، ولا كبير أمر في استعراض تمرس علماء العربية بهذا النمط من الدراسات

---

(١) ينظر في فروع علم الصوت: دراسة الصوت اللغويّ: ١٩، ٤٥، ٥٣، ٩٩.

والتحديدات، وهذا النحو من تلمس الصوت فيزيائياً، وقياس سرعته ومساحته موجياً فقد سبق إليه جملة من الباحثين[1].

٣- علم الصوت السمعيِّ أو العضويِّ: يبحث في جهاز السمع البشري وفي العملية السمعية وطريقة استقبال الأصوات اللغوية وإدراكها، فيما يتعلق بالناحية العضوية للأذن وأعضاء السمع المتصلة بها، وفيما يتعلق بالجانب النفسي للإدراك، فهو يُعنَى بالصوت خلال المدَّة التي تقع منذ وصول الموجات الصوتية إلى الأذن حتى إدراكها في الدماغ، فيكون مجاله عضو السمع - أذنا المستمع ومخه.

٤- علم الأصوات التاريخيِّ: يعنى هذا العلم بدارسة تطوُّر أصوات لغة ما عبر الزمن، لمعرفة التغيُّر والتطوُّر الذي أصابها عبر مراحل تاريخية سابقة.

٥- علم الأصوات الوصفيِّ: هو الذي يعنى بوصف أصوات لغة ما في مدَّة زمنيَّة محدَّدة. وهو مقابل لعلم الأصوات التاريخيِّ.

٦- علم الأصوات العام: ويبحث في الأصوات اللغوية بشكل عام، أي دون ربطها بلغة فعلية.

٧- علم الأصوات الخاص: ويبحث في أصوات لغة مُعيِّنة دون سواها، مثل أصوات اللغة العربيَّة.

٨- علم الأصوات الآليِّ ويسمَّى أيضاً: علم الأصوات المعملي، أو علم الأصوات التجريبيِّ: وهو الذي يُعنى بأصوات اللغة، باستعمال المنهج التجريبي، كما يستعمل الآلات الإلكترونيَّة ولأجهزة لرسم مخارج الأصوات وخصائصها، مثل جهاز رسم الأطياف الذي يحدد نوع الصوت وقوته ونغمته. كما يستعمل الحنك الاصطناعي لدراسة الأصوات.

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية: ١٢٩-١٤٥، وفي البحث الصوتي عند العرب: ٦، ١١.

٩- علم الأصوات الموازن[1]: يبحث في وجوه الشبه والاختلاف بين أصوات لغة ما، وأصوات اللغات الأخرى.

١٠- علم الأصوات المعياريّ: يصف أصوات لغة معينة، كما يجب أن تُنطق بصورها الصحيحة، أو صورها المثالية، لا كما ينطقها الناس ويسمّى أيضاً: علم الصوت الفَرْضِيّ.

١١- علم الأصوات البحت: يبحث في الأصوات اللغويّة لمعرفة خواصّها النُّطقيَّة دون البحث في تطوّرها أو وظيفتها أو إدراكها.

١٢- علم الأصوات القِطْعِيَّة: يبحث في الصَّوائت والصَّوامت فقط.

١٣- علم الأصوات فوق القِطْعِيَّة: يبحث في النَّبر والفواصل والنَّغمات، والصويتات[2]، فمثلا: الصوت (ق) في اللغة العربية صويت، لكنَّ بعض العرب ينطقه في بعض الكلمات "غينا" فيقولون في رقيب رغيب فيكون الصَّوت "ق" في بعض الكلمات أو اللهجات لفظ تنويعة نطقيَّة أو صوتيَّة للصوت، أي: نَغْمَة[3]، في اللغة العربية، وليس صويتا، وفي

---

(١) الشائع تسميته: علم الصوت المقارن، والمقارن تسمية معاصرة صاحبت كثير من الدراسات وأصناف العلوم فقالوا: الأدب المقارن، والفقه المقارن، وعلم اللغة المقارن... إلخ والصواب أن يقال: الموازن؛ لأنَّه يراد منه الموازنة بين صنفين أو أكثر، والمقارنة لا تعني ذلك، بل تعني ضمّ شيء إلى شيء. المؤلِّفان.

(٢) الصُّوَيْتُ: هو أصغر وحدة صوتية مميزة ليس لها معنى نحوي أو دلالي، يسمِّيه كثير من اللغويِّين المعاصرين بـــ"علم الفونيمات" أو الفونيم بدل الصويت استساغة للمصطلح الأعجميِّ وهو ما لا أحبذه، فلا يليق بالعربيّ فضلا عن المتخصِّص في اللغة العربيَّة هذا الفعل ما دام المصطلح العربيّ كافيا وافيا. المؤلِّفان.

(٣) النَّغْمَةُ: هي تنويعة نطقية في السياق الصوتي، للصويت نفسه. يسمِّيه كثير من=

القرآن الكريم نجد قراءة الهمزة بالتخفيف مرَّة وبالتحقيق مرَّة وإمالتها مرَّة والمعنى واحد كما في ((جبريل)) فقد قرئ باثني عشر وجها والمعنى واحد لم يتغيَّر، فقرئ: جَبْرَيل، وجَبْرَئيْل، وجَبْرَئل، وجَبْرَئلّ -بتشديد اللام-، وجَبْرَائِل، وجَبْرَائيْل، وجَبْرَاييْل، وجَبْرَايل، وجَبْرَئن، وجَبْرِيل -باختلاس الهمزة-، وجَبْرَييْل، وجِبْرَالّ[1].

ومن ناحية الصويت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[2]، قرئت ((بِضَنين)) أي: بالضاد المعجمة، و((بِظَنين)) بالظاء المشالة [3]، ولكلٍّ معنى خاصّ: فالأولى من الضنّ وهو البخيل، والأخرى من الظنّ وهو ضدّ اليقين[4]، فيكون الضاد، والظاء هنا صويتان؛ لأنّ الدلالة تتغيَّر بتغيُّرهما.

١٤- علم الأصوات الوظيفيِّ: يدرس الأصوات من حيث وظيفتها، أي: إنَّه يدرس الصويتات وتوزيعاتها وألوفوناتها، ويسمِّى علم الصويتات.

١٥- علم عيوب النُّطق: وهو ما يُعنى بدراسة عيوب النطق لدى الأفراد وأسبابها وطرق علاجها، وقد شهدت العربيَّة في كلِّ عصورها قديماً وحديثاً اهتماماً واسعاً في هذا العلم، فألِّفت فيه كتب اللحن، والأغلاط، والخطأ.

=اللغويِّين بـــ"الألفون" بدل النَّغْمَةُ استساغة للمصطلح الأعجميِّ وهو ما لا أحبذه، فلا يليق بالعربيّ فضلا عن المتخصِّص في اللغة العربيَّة هذا الفعل ما دام المصطلح العربيّ كافياً وافياً. المؤلِّفان.

(١) ينظر: معجم القراءات القرآنيَّة مع مقدِّمة في القراءات وأشهر القرَّاء: ١/٩٠-٩١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/٩٠-٩١.

(٣) سورة التكوير: ٢٤.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم: تفسير ابن كثير: ٨/٣٣٧.

ويتضح مما سبق أن هذه الدراسات الصوتية المختلفة متشابكة ومتكاملة فيما بينها فهي علوم لا انفصام لبعضها عن بعض، وكل منهما مرتبط بالأخر، وهذه الدراسات تسعى في النهاية إلى هدف واحد وهو دراسة الأصوات البشرية ولكن كل منهم يهتم بدراسة جانب من جوانب الصوت البشرى على حدة.

❖ تعريف الدلالة الصوتيَّة:

الدلالة الصوتيَّة: هي الدلالة المستفادة من طبيعة بعض الأصوات في عبارة ما[1]، فإن كثيراً من اللغة مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها فالفعل "قِضم" في اليابس والفعل "خِضم" في الرّطْب؛ وذلك لقوَّة القاف، وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف وكذلك الفعل "صرّ الجندب" فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته والفعل "صرصر البازي" فقطّعوه لما هناك من تقطيع صوته وسمَّوا صوت الغراب "غاقِ" حكاية لصوته، وصوت البط "بطّا" حكاية لأصواتها، والفعل "قطّ الشيء" إذا قطعه عَرْضا والفعل "قدّه" إذا قطعه طُولا، وذلك لأنَّ منقَطع الطاء أقصر مُدّة من منقطع الدال، والفعل "مدّ الحبل" والفعل "متّ إليه بقرابة" فجعلوا الدال لما فيه علاج لأنها مجهورة، وجعلوا التاء لما لا علاج فيه لأنها مهموسة، والاسم "الخَدَأ" بالهمزة في ضعف النفْس والاسم "الخَذَا" غير مهموز في استرخاء الأُذُن يقال أُذُنٌ خذواء وآذان خُذْو ومعلوم أن الواو لا تبلغ قوة الهمزة فجعلوا الواو لضعفها للعيب في الأذن والهمزة لقوّتها للعيب في النفْس من حيث كان عيب النفس أفحش من عيب الأذن[2].

---

(١) ينظر: دلالة الألفاظ: ٣٥.

(٢) ينظر: الخصائص: ١/٦٥.

وممَّا له صلة بالدلالة الصوتيَّة بعض الظواهر الصوتيَّة المصاحبة للكلام مثل النبر، والتنغيم، وغير ذلك، وفي بعض اللغات يكون النبر من مكوِّنات الدلالة الصوتيَّة، أي: إنَّ دلالة الكلمة تتغيَّر بتغيُّر النبر، وهذا غير موجود في اللغة العربيَّة إلا في بعض الأمثلة التي تكون في الأداء الكلاميّ، أو في الخطب مثلا، لكنَّه غير داخل أساساً في بنية الكلمة، أو في تكوين دلالتها الصوتيَّة كما هو الحال في بعض اللغات.

وليس في هذا عيب على اللغة العربيَّة أو قصور في مادَّها، فإنَّ النبر لو أردنا استكناه حقيقته، ومعرفة ماهيَّته وجدناه مرحلة بدائيَّة للغة بمعنى أنَّ اللغة إذا كانت في مرتبة سامية من الرقيِّ والتطوُّر فإنَّها تستغني عنه، لا سيَّما وفي العربيَّة ما هو أهمُّ من النبر، ويؤدِّي ما يؤدِّيه النبر وزيادة، وهو علامة على رقيِّ اللغة وتطوُّرها كالوقف مثلا، وهو علم قائم بذاته، وفيه مصنَّفات كثير، وله أنواع عديدة، وما هو في الحقيقة إلا مراعاة للدلالة الصوتيَّة، وهو أهمُّ من النبر، وأرقى منه، فمثلا الوقف على "**والموتى**" من قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾(١) فهو يوهم أنَّ الموتى يستجيبون كذلك. والمقطوع به أنه ليس هناك تكليف بعد الموت حتى يوصف الموتى بالاستجابة وعدمها. أو يوهم أن الموتى يسمعون لو جعلنا العطف على فاعل "**يسمعون**" وهو واو الجماعة، وليس كذلك، بل "**والموتى**" يستأنف، سواء جعلته مفعولاً لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور بعده أي: ويبعث الله الموتى، أو جعلته مبتدأ وما بعده خبره، فالوقف على "**يسمعون**" هو أكفى وقيل: تام(٢).

(١) سورة الأنعام: ٣٦.

(٢) ينظر: المكتفى في الوقف والابتدا: ١٤.

وكذلك هاء السكت، وإشباع الحركة وغيرها ممَّا يتَّصل بالدلالة الصوتيَّة ويكون حكما ثابتا نطقا وكتابة بإمكان كلِّ متكلِّم أن يؤدِّيه بيسر وسهولة، ولا يعتمد على جهد خاصّ يقوم به المتكلِّم وهو النبر الذي ربما يضعف عنه بعض المتكلِّمين فيتبدَّل المعنى، فنعود إلى أنَّ النبر هو ظاهرة بدائيَّة في اللغة، تستغني عنه اللغة عندما تصل إلى درجة كبيرة من الرقيِّ والتطوُّر.

فمثال هاء السكت قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾[1].

من الناحية اللغوية هناك قاعدة التي فيها ياء المتكلم يجوز فيها الفتح والسكون: "كتابي وكتابيه" فمن سكّن الياء يقول: كتابي. ومن فتح الياء يقول: كتابيه.

وأمّا من ناحية الدلالة الصوتيَّة فإنَّ الفاصلة القرآنية جاءت بالهاء "**ماليه، وحسابيه، وكتابيه، وسلطانيه**" وهذا الكلام يقال في يوم الحشر، وهو يوم ثقيل كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى ووصفه، بيوم عسير وأنه عبوس قمطرير، والناس في ذلك اليوم يبقون خمسين ألف سنة في هذه الشدة حتى يفزعون إلى الأنبياء. والهاء أشبه بالنهاة -المتعبين- فللقارئ أن يتصوَّر المشهد الذي هم فيه جميعاً من تعب وعناء فاختارها سبحانه لمراعاة الموقف الذي هم فيه. إذن الدلالة الصوتيَّة المتحصِّلة من استعمال حرف الهاء في فواصل هذه السورة يدل على التعب والعناء والألم والهاء مأخوذة من الآه[2].

---

(١) سورة الحاقّة: ١٩.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التتريل-محاضرات: ٥٤٠.

ومثال حركة الإشباع أو الإطلاق ما جاء في أول سورة الأحزاب: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(١) جاءت كلمة "**السبيل**" في آخر الآية الرابعة بينما جاء ما قبلها وبعدها بالألف، وفي أواخر سورة الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾(٢) جاءت كلمة "**السبيلا**" بالألف، والكلام في هذه الآيات عن هؤلاء في النار ويمدون أصواتهم في النار و"**الرسولا**" بالألف هو صوت الباكي أما في أول السورة فليس هناك عذاب فجاءت على حالها "**السبيل**" وليست السبيلا، تصور الحالة الطبيعية من اصطراخ فجاءت الألف تعبيراً عن حالهم وهم يصطرخون في النار في كلمة "**الرسولا**" في أواخر السورة(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(٤) تسمى الألف في هذا النحو "**ألف الإطلاق**" كلمة ظنون إذا انتهت بساكن يسمى مقيّد، الظنونا

---

(١) سورة الأحزاب: ٣-٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٦-٦٧.

(٣) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنـــزيل- محاضرات: ٥٣٩.

(٤) سورة الأحزاب: ١٠.

كثير ومتشعبة واختلفوا وتشابكوا فاختلفت الظنون ولذا جاءت بالإطلاق "**الظُّنُونَا**" وجب استعمال الألف لإطلاق الظنون[(١)].

فقد جاءت هذه الظواهر مرتبطة بالصوت والمعنى معاً، وقد غفل عنه أكثر الدارسين المعاصرين في علم الصوت، أو علم اللغة عامَّة، والسبب في ذلك أنَّ كثيرين منهم وقفوا أمام ما كتب الغربيُّون موقف التابع، أو المقلِّد فراحوا ينقلون ما كتب أولئك في لغاتهم وللغاتهم، ويأتون به ليطبِّقوه على اللغة العربيَّة، حتَّى وإن لم يجدوا له مثالا تعسَّفوا في إيجاد مثال له، ولو توهُّما، فوقفوا عاجزين تابعين، وأنَّى لتابع، أو مقلِّد أن يتقدَّم على متبوعه.

❖ تعريف المقطع الصوتي:

ما سبق من الكلام عن حدوث الصوت جرَّ إلى اكتشاف مصطلح حديث عند الأوروبيين هو المقطع، فطبيعة الأصوات اللغويَّة يجب أن تتجمع في وحدات تكون تلك الوحدات أكبر من الأصوات بالضرورة؛ لأنَّها أطول مسافة صوتيَّة، فتشكِّل في أكثر من صوت وحدة صوتية معينة، وأهم هذه الوحدات هو المقطع الذي تذوقه ابن جني، فرأى فيه ما يثني الكلام عن استطالته وامتداده تارة، وما تحس به صدى عند تغير الحرف غير الصدى الأول تارة أخرى[(٢)]، ويمكن تعريف المقطع الصوتيّ بأنَّه:

تأليف صوتي بسيط، تتكون منه منفرداً أو مجتمعاً كلمات اللغة، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعي، ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها[(٣)]، أو هو: أصغر

---

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل- محاضرات: ٥٣٩.

(٢) ينظر: سر صناعة الاعراب: ١/٦.

(٣) ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرغ: ١٦٤.

تركيب صوتي يمكن فصله عن غيره. وقد جرى تأليف المقطع العربي على البدء بحرف صامت، ويثنى بحركة، ولا يبدأ بحركة إطلاقاً خلافاً للغات الأوروبية.

ومن المبادئ الأساسية أنَّ اللغة العربية تبدأ كلماتها بمتحرك واحد، وتختمها إما بحركة، فهو المقطع المفتوح. وإما بصامت، فهو المقطع المقفل. ومن غير الممكن في العربية أن تبدأ الكلمة بمجموعة من الصوامت، أو أن يتخلل الكلمة أكثر من صامتين متجاورين، أو أن تختم الكلمة بمجموعة من الأصوات الصامتة[1].

إذن: حرف صامت وحركة يشكِّلان مقطعا، وهذا هو المقطع القصير، وقد يضاف إلى هذا حرف صامت، أو حركة أخرى فيكون المقطع طويلاً، لأنَّه تجاوز الحدَّ الأدنى من التكوين، وهو الحرف والحركة، وتخطاهما إلى ثالث، حركة كان هذا الثالث أم حرفًا.

والعربية عادة تتكون الغالبية العظمى من كلماتها من ثلاثة مقاطع في المادة دون اشتقاقها، ففي الثلاثي خذ كلمة: «ذَهَب» في ثلاثة مقاطع هي: ذَ- هَـــ- بَ، وكل مقطع هنا مكوّن من حرف وحركة كما ترى.

قال ابن جني، مستنيرا بما قدَّمه الخليل[2]: «إن الأصول ثلاثة: ثلاثي رباعي وخماسي، فأكثرها استعمالاً، وأعدلها تركيباً الثلاثيّ، وذلك لأنه: حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به، وحرف يوقف عليه. وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه لأنه أقل حروفاً... فتمكن الثلاثي إنما هو لقلة حروفه لعمري، ولشيء آخر هو حجز الحشو الذي هو عينه بين

(١) ينظر: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيِّ: ٤٠٩.

(٢) ينظر: العين: ١/٤٨-٤٩.

فائه ولامه، وذلك لتعادي حاليهما. ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركاً وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكناً، فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزاً بينهما لئلا يفجأوا والحسّ بضد ما كان آخذاً فيه»[1].

لقد أدرك الصوتيون العرب هذا التخطيط المقطعي من ذي قبل فأكدوا عليه حتى في تقطيع الوزن العروضيّ للشعر، ولقد أفاد الأوروبيون من هذا الملحظ إفادة تامة، فقد كان المقطع تبعاً للتفكير التقليدي عند الغربيين يتكون من حركة تعتبر دعامة أو نواة، يحوطها بعض الصوامت وعليه بني اسم الصوامت أي: الذي يصوّت مع شيء آخر، ولا يصوت وحده، وأطلق على الحركات اسم مصوتات لأنها قادرة على التصويت دون الاعتماد على شيء آخر، ومن هنا كان المفهوم الوظيفي للمقطع، كما جاءت أفكار الحركات والصوامت[2].

وهو نفسه ما تحدث عنه علماء العربيَّة، وهو الواقع في الفكر الصوتي عند العرب فالحرف لا ينطق وحده فيشكل صوتاً، إلا بانضمام الحركة إليه، فيتكون بذلك المقطع الصالح للتصويت.

ويرى أتو جسبرسن: أنَّ الوحدات الصوتيَّة تتجمَّع حول الوحدة الأكثر إسماعاً، بحسب درجة الوضوح السمعيِّ، والمقطع طبقاً لرأيه هو المسافة بين حدين أدنيين من الوضوح السمعيِّ.

إنَّ نظرية جسبرسن من بين ما ارتضاه عالم الأصوات الانجليزي دانيال جونز، فهي وصف جيد للمقطع المثاليِّ، ولكنها لا تقول شيئاً لنا عما هو

(١) الخصائص: ١/٥٥-٥٦.

(٢) ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرغ: ١٥٥.

جوهري في المقطع، ولا تقول لنا: أين الحد بين المقاطع، وهو ما يطلق عليه الحد المقطعي"[1].

حقاً لقد كان البنيوي السويسري فرديناند دي سوسير أقرب إلى الفكر العربي في تصوره لحدود المقطع الصوتي على أساس درجة الانفتاح في الأصوات، إذ تتجمع الصوامت حول الحركات تبعاً لدرجة الانفتاح، فالحد المقطعي يوجد ويتوافر حين يكون التنقل من صوت أكثر انغلاقاً إلى صوت أكثر انفتاحاً[2].

إن هذا التوصل إلى حدود المقطع وتعريفاته عند الأوروبيين هو الذي ذهب إليه ابن جني، وأضاف إليه ذائقة كل مقطع، قال: "وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحروف أن تأتي به ساكناً لا متحركاً، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: اك. اق. اج؛ وكذلك سائر الحروف، إلا أن بعض الحروف أشد حصراً للصوت من بعضها"[3].

وهذا ما نعتبره ابتكاراً لم يسبق إليه، إلا فيما عند الخليل في ذواقة للأصوات "اب- ات- اع-اغ"[4].

فإنها مقاطع طويلة مقفلة تكونت من ثلاثة عناصر في كل منها هي الألف والكسرة والحرف: "ب- ت- ع- غ".

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٧.

(٢) ينظر: علم اللغة العام، دي سوسير: ٧٧ وما بعدها.

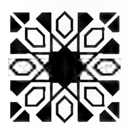
(٣) سر صناعة الإعراب: ١/٧.

(٤) ينظر: العين: ١/٤٧.

فالحركات داخلة في تكوين المقاطع، لأنَّها تابعة للحروف قال ابن جنِّيّ «وإنما هذا الصويت التابع لهذه الحروف ونحوها ما وقف عليها، لأنك لا تنوي الأخذ في حرف غيرها، فيتمكن الصويت فيظهر؛ فإنَّما إذا وصلت هذه الحروف ونحوها فإنك لا تحس معها شيئاً من الصوت كما تجده معها إذا وقف عليها»[1].

❖ فائدة علم الأصوات:

إنَّ علم الصوت مثله مثل أي فرع آخر من فروع المعرفة يزيد معرفتنا بماهية الأشياء، وكيف تعمل في مجال معين محدود، وإذا كان تقدم المعرفة سبباً كافياً لوجود أي فرع من فروع العلم، فإنه يكون كافياً أيضاً فيما يتعلق بعلم الأصوات، ومن فائدة علم الأصوات في اللغة العربيَّة ما ذكره ابن جنِّي أنَّه مِن أشرف فصول العربيَّة وأكرمها وأعلاها وأنزهها وإذا تأملته عرفت منه وبه ما يؤنِقك ويذهب في الاستحسان له كل مَذْهَب بك وذلك أنَّ العرب كما تُعْنَى بألفاظها فتُصلحها وتهذِّبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها، فإن المعانَي أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قَدْرا في نفوسها[2] فيكفي هذا العلم أنَّه يجمع عناية اللفظ وعناية المعنى، أي: إنَّه محطُّ عناية العرب من كلِّ جوانبه، وفي كلِّ تفصيلاته؛ لذلك كان من أشرف فصول هذه اللغة العظيمة الفريدة.



---

(١) سر صناعة الاعراب: ١/ ٧.

(٢) ينظر: الخصائص: ١/ ٢١٥.

الفصل الأوَّل

الدراسات الصوتيَّة عبر العصور

- **المبحث الأوَّل:** جهود علماء العربية القدامى في الدراسات الصوتيَّة:

المطلب الأوَّل الدراسات اللغويَّة:

المطلب الثاني الدراسات القرآنيَّة والبلاغيَّة والعقديَّة أو الكلاميَّة:

- **المبحث الثاني:** جهود الفلاسفة وعلماء الغرب وعلماء العربية المحدثين في الدراسات الصوتية:

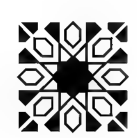
المطلب الأوَّل: جهود الفلاسفة اليونان والعرب في الدراسات الصوتيَّة:

المطلب الثاني: جهود علماء العربية المحدثين والأثر العربيُّ في الدراسات الصوتيَّة الغربيَّة

توطئة:

كان القرآن الكريم منطلقاً أساسياً ومباشراً للدراسات الصوتيَّة العربيَّة؛ لذلك كان الدرس الصوتي عند العرب، من آصل الجوانب التي تناولوا فيها دراسة اللغة، ومن أقربها إلى المنهج العلميّ، لأن أساس هذا الدِّرس بُني على القراءات القرآنية، إذ دفعت قراءة القرآن الكريم علماء العربية لتأمّل أصوات اللغة وملاحظتها ملاحظة ذاتية، أنتجت في وقت مبكِّر جداً دراسة طيبة للأصوات العربية، لا تبتعد كثيراً عمّا توصّل إليه علماء الأصوات في الغرب.

ولعل هذا الجهد العلمي الكبير، بدأ بمحاولة أبي الأسود الدؤلي ضبط القرآن بالنُّقط عن طريق لحظ حركة الشفتين، وكان يقول لمن يكتب له: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف، فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضممت فمي، فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت، فاجعل النُّقطة من تحت الحرف.



المبحث الأوَّل

جهود علماء العربية القدامى[1] في الدراسات الصوتيَّة:

ظهرت الدراسات الصوتيَّة عند العرب أوَّل ما ظهرت في أربع مجموعات من الدراسات، هي: الدراسات اللغويَّة، والبلاغيَّة، والقرآنيَّة، والعقديَّة أو الكلاميَّة؛ لذلك فقد ظهرت بوادر الدراسات الصوتية بنسب متفاوتة في كل من هذه الدراسات الأربع، وسنتناول طرفا من كلّ واحدة منها في ما يأتي:

المطلب الأوَّل الدراسات اللغويَّة:

❖ **الخليل بن أحمد الفراهيديُّ** (ت: **١٧٥هـ**): جاء بعد أبي الأسود الدؤليِّ الخليل رحمهما الله، قدّم تصنيفاً للأصوات حسب موضع النُطق، أو حسب الأحياز والمخارج، كما قال، وقد أدّى به ذلك التصنيف إلى تقسيم الأصوات، إلى ما يُعرف الآن بالصوامت، والصوائت، فكان بهذا «أوَّل من التفت إلى صلة الدرس الصوتي بالدراسات اللغوية الصرفية، الصرفية والنحوية، ولذلك كان للدراسة الصوتية من عنايته نصيب كبير، فقد أعاد النظر في ترتيب الأصوات القديمة، الذي لم يكن مبنياً على أساس منطقيّ، ولا على أساس لغويّ، فرتبها بحسب المخارج في الفم، وكان ذلك فتحاً جديداً، لأنه كان منطلقاً إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها[2]، فمن ينظر في مقدِّمة

---

(١) العلماء القدامى: مصطلح يراد به علماء العربيَّة منذ بواكير دراساتهم في القرن الأوَّل الهجريّ إلى قيام دولة محمَّد على في مصر في بداية القرن الثاني عشر الهجريَّ؛ لأنّ جهود العرب كانت في الغالب مبتكرة مؤثِّرين في غيرهم أكثر من تأثُّرهم بغيرهم. المؤلِّفان.

(٢) في النحو العربي قواعد وتطبيق: ٤.

معجمه العين يتبيَّن له على إيجازها أنَّها أول مادة في علم الأصوات دلَّت على أصالة علم الخليل، وأصل مادته اللغوية، ليكون بحق صاحب هذا العلم المؤسسّ له، ورائده الأول[1].

وممَّا يزيد من أهمِّيَّة جهود الخليل رحمه الله أنَّه توصل إلى ما توصل إليه ابتداعاً وابتكاراً، دون الاستعانة بأي جهاز علمي، إذ لا جهاز آنذاك، وهو ما لم يثبت العلم التشريحي الحديث بكل أجهزته الدقيقة، ومختبراته الضخمة خلافاً له فيما يبدو إلا يسيراً[2].

إنّ الخليل في ذائقته الصوتية هذه، قد قلب حروف العربية، فوضعها في منازل معينة ضمن مخارج صوتية معينة بحسب مدارج مقدرة من أقصى الحلق حتى إطباق الشفة في الميم، ولم يكتف بهذا التقسيم الفيزيائيِّ الدقيق بحسب تذوقه الخاص، بل نصّ على تسمية كلٍّ قسم من هذه الأقسام، وأفاد اللغات العالمية جمعاء، بأصل من الأصول الأولى في الاصطلاحات الصوتيَّة دون أن يسبقه إلى ذلك سابق من السلف، بل عوّل عليه فيه كل لاحق من الخلف.

١- لقد أدرك الخليل بفطرته الصافية، وحسّه المتوقّد، أهمية الصوت اللغوي في الدراسات اللغوية المتخصصة، فأشار إلى أبعادها من ينابيعها الأولى، فوضع يده على الأصول في انطلاق الأصوات من مخارجها الدقيقة، وأفرغ جهده الدؤوب في التماس التسميات للمسمّيات فطبّق بها المفصل، وتمكن من استنباط طائفة صالحة من الأسرار الصوتية من هذا الخلال، لذلك فقد كان صحيحاً ما توصل إليه محقِّقا العين أنَّ في المقدِّمة

---

(١) ينظر: العين، مقدِّمة المحقِّق: ١/ ١٠.

(٢) العين: ١/ ٥٨.

منه «بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدة من عصر الخليل»(١).

٢- يبتدع الخليل في هذه المقدمة أمراً ذا أهمية قصوى في حياة الأصوات، فيصنع- وبدقة متناهية. مخطَّطاً شاملاً لمخرج كل صوت، ويقارن بين بعض الأصوات، فيضعها في حيّز متميز عن حيّز الأصوات ألأخرى، ويعطي بعض الخصائص المفرقة لصوت عن صوت، ويعالج إلحاق بعض الأصوات ببعض المخارج دون سواها، فتقف عند العلة والسبب، وتستظهر العلة التي تخفى ولا تكاد تبين.

٣- في هذه المقدمة: إشارات صوتية، وإشارات لغوية، وقد يدخل الملحظ الصوتي ضمن الملحظ اللغوي كما فعل الخليل هذا لدى حديثه عن ألف الخماسي باعتبارها ليست أصلية فقال: «أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً سلماً للّسان إلى حرف البناء لأن اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل»(٢).

فهو يراعي هذا التمازج الصوتي في اللغة مبيِّنا أنَّ الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف: حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به الكلمة، وحرف يوقف عليه، فهذه ثلاثة أحرف، فإن صيرت الثنائي مثل: قد، هل، لو، أسماً أدخلت عليه التشديد فقلت: هذه لوٌّ مكتوبة، وهذه قدٌّ حسنة الكتبة، زدت واواً على واو لو، ودالاً على دال قد، ثم أدغمت وشدّدت. فالتشديد علامة الإدغام الحرف الثالث(٣).

---

(١) ينظر: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيِّ: ١٦٧.

(٢) ينظر: العين، مقدِّمة المحقِّق: ١/ ١١.

(٣) ينظر: العين: ١/ ٤٩-٥٠.

إنَّ هذا الاهتمام السليم في ربط اللغة بالصوت، واعتبار الصوت امتداداً للبنية التركيبيَّة، وأصلاً للأفكار المنظورة في اللغة، هو الذي توصل إليه بعد قرون عدة الأستاذ اللغوي فرديناند دي سوسير في أن اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت من خلال تأمل عنصرين يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها، وهما: الأفكار والأصوات من خلال الربط بينهما كما صنع الخليل.

قال جملة من الأساتذة في جهود الإمام الخليل رحمه الله: «ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتيِّ، وهو الحلق والفم إلى الشفتين، وتقسيمه إياه إلى مناطق ومدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف، وما أشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج، فقد هدي بذكائه المتفوق في ذلك إلى مقاييس صحيحة أقرّ كثيراً منها علماء الأصوات المحدثون»[1].

❖ **سيبويه عمرو بن قنبر** (**ت: ١٨٠هـ**): واصل سيبويه طريق أستاذه الخليل بن أحمد رحمهما الله، فقدّم دراسة للأصوات أوفى وأكثر دقّة، إذ جاء تصنيفه لها بحسب المخارج، وبحسب ما يُعرف الآن بوضع الأوتار الصوتية، ممّا سمّاه سيبويه بالجهر والهمس، ثم بحسب طريقة النطق، لنجد الأصوات الشديدة و الرِّخوة وما بين الشديدة والرخوة. ويمكن القول إن دراسة الخليل وسيبويه للأصوات، قامت على مبدأ علمي صحيح، حيث درساها دراسة وصفيِّة واقعية قائمة على الملحوظة الذاتيَّة، وبعيدة عن الافتراض والتأويل، سائراً في ذلك على خطى أستاذه، لكنَّه خالفه قليلاً في صفات الأصوات، وأضاف إلى هذا العلم ما يشهد له بقدم السبق فيه، فقد

---

(١) سر صناعة الاعراب، مقدِّمة التحقيق: ١٣/١.

وضع قضايا الإدغام، وحدَّدَ بدقَّة صفات الحروف ومخارجها. وكان علماء النحو والقراءة من بعده يسيرون على مذهبه[1].

ولو تركنا الخليل ذاته إلى من تأثر بمدرسته لوجدنا جهوداً صوتية متناثرة، تستند في أغلبها إلى مبتكرات الخليل، توافقه حيناً، وتخالفه حيناً آخر. فأعضاء النطق مثلاً عند الخليل وعند سيبويه (ت: ١٨٠هـ) واحدة، والحروف في مدارجها، ويعني بها الأصوات تبعاً للخليل، تبدأ بأقصى الحلق، وتنتهي بالشفتين، فهي عند سيبويه كما هي عند الخليل[2].

ولكنَّ ترتيب الحروف في كتاب سيبويه تخالف ترتيب الخليل، فحينما وضع الخليل الأبجدية الصوتية للمعجم العربي مبتكراً لها، خالفه سيبويه في ترتيب تلك الأصوات، إذ بدأ بالهمزة والألف والهاء، وقدّم الغين على الخاء، وأخّر القاف عن الكاف وهكذا، وقد كان لجهوده في الدراسات الصوتيَّة فضل لا ينكر، فتصنيفه لصفات الأصوات في الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط، وكشفه لملامح الإطباق واللين، وتمييزه لمظاهر الاستطالة والمد والتفشي، كل أولئك مما يتوّج جهوده بالأصالة والابتكار.

ولسيبويه قدم سبق مشهود له في قضايا الإدغام، وهي معالم صوتية في الصميم، فقد قدم لها بدراسة علم الأصوات، كما قدّم الخليل معجمه بعلم الأصوات، فالخليل قد ربط بين اللغة والصوت، وسيبويه قد ربط بين قضايا الصوت نفسها، لأنَّ الإدغام قضيَّة صوتيَّة «ونحن نقرر هنا مطمئنين أن سيبويه قد وضع قواعد هذا البحث وأحكامه لا لفترة معينة من الزمن، بل

---

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: ١٩٨.

(٢) الكتاب: ٢/٤٠٥.

يكاد يكون ذلك نهائياً، وكان تصرفه فيها تصرفاً رائعاً، صادراً عن عبقرية سبقت الزمن، فلم يكن ممن جاء بعده من العلماء والباحثين إلا أن اتبعوا نهجه، واكتفوا بما قال، ولم يزيدوا بعد سيبويه على ما قال حرفاً، بل أخذوا يرددون عباراته مع كتبهم، ويصرّحون بأنّهم إنّما يتّبعون مذهبه، سواء في ذلك علماء النحو وعلماء القراءة»[1].

وقد يكون في هذا الحكم مبالغة، ولكنه مقارب للحقيقة في كثير من أبعاده، إذ كان سبّاقاً إلى الموضوع بحقٍّ.

ومما يجلب الانتباه حقاً عند سيبويه في صفات الحروف ومخارجها، هو تمييزه الدقيق بين صفة الجهر وصفة الهمس فيما أشرنا له في الفصل السابق فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصدر والفم، ومصدر الصوت المهموس من الفم وحده، وبمعنى آخر أن للرئتين عملاً ما في صفة الجهر، بينما ينفرد الفم بصفة الهمس[2].

فتعريف المجهور عنده: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت. بينما المهموس: حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»[3].

وهو يعبّر بالموضع هنا عن المخرج فيما يبدو، ويجري الصوت عن الشيء الإضافي في حالة الجهر عن حالة الهمس التي يجري النفس معها لا الصوت.

---

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيّ: ١٩٨.

(٢) الكتاب: ٢/٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٤٠٥.

«وقد ظلت محاولة سيبويه تفسير المجهور والمهموس من الأصوات قانوناً سار عليه جميع من جاء بعده من النحاة والقراء. إلى أن جاءت بحوث المحدثين فصدقت كثيراً مما قاله في هذا الباب»[1].

ومن المفيد الرجوع إلى ما فسّره في هذا المجال المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس فقد أشبعها بحثاً وتنويراً[2]، ومع كلِّ ما قدَّمه سيبويه من جهود في الدراسات الصوتيَّة فهو لا ينفصل عن المدرسة التي ابتدأها أستاذه الخليل في اللغة والأصوات، فهو الممثل الحقيقي لها فيما نقل لنا من علم الخليل في الكتاب.

❖ **أبو بكر ابن دريد** (**ت: ٣٢١هـ**): بقيت مدرسة الخليل الصوتية مناراً يستضاء به في كثير من الأبعاد لمن جاء بعده فهذا ابن دريد، يذكر في مقدمة الجمهرة إفاضات الخليل بعامَّة، ويضيف إليها إضافات في ائتلاف الحروف والأصوات، ولكنَّه لم يخرج عن المنهج الذي ابتدأه الخليل، كما أنَّ له اجتهاداته الصوتية في أكثر الحروف وروداً في الاستعمال، فأكثرها الواو والياء والهاء، واقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم[3]، ولا تعلم صحة هذا الاجتهاد إلا بالإحصاء، وليس كثيراً على ابن دريد الإحصاء والاستقصاء.

❖ **أبو الفتح عثمان بن جنِّيٍّ** (**ت: ٣٩٢هـ**): وهكذا تتّصل جهود علماء العرب القدامى في دراسة الأصوات حتى نصل إلى ابن جنيّ، الذي نهض بأعباء الصوت اللغوي بعد مدرسة الخليل بما يصحُّ أن نطلق عليه اسم

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: ٢٠٥.

(٢) الأصوات اللغوية: ٩٢ وما بعدها.

(٣) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد: ١/٣٠٦.

الفكر الصوتي، متجاوزاً مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل[1]، فكان أستاذ هذا العلم دون منازع، ومؤصِّل هذا الفنِّ وواضع أُسسه، وأوَّل مضيف له إضافات مهمَّة ذات قيمة منهجيَّة في الدراسات الصوتية، الذي أدرك طبيعة الترابط بين الصوت واللغة والوظيفة اللغوية، بتعرفه للُّغة: بـــ«أنَّها أصوات يُعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم»[2]، وقد عُني أبو الفتح بدرس القراءات القرآنية في المحتسب، متعرضاً فيه لقضايا الصوت، وأفرد كتابه: "سر صناعة الإعراب" لمباحث صوتيَّة في غاية الأهمِّيَّة، كما خصَّص مباحث في كتابه "الخصائص" للدلالة الصوتيَّة، وكلُّ ما قدَّمه كان غاية في الدِّقَّة، ممَّا جعله في عداد المبدعين، وخطط لموضوعات الصوت مما اعتبر فيه من المؤصلين، ويمكن أن نشير إلى أهمِّ ابتكارات هذا الجهبذ اللغويّ وهي:

أ - إنَّ ابن جني كان أول من استعمل مصطلحاً لغوياً للدلالة على هذا العلم ما زلنا نستعمله حتى الآن وهو «علم الأصوات».

ب- إنَّ ابن جني يعدّ الرائد في هذه المدرسة، وكان على حق في قوله في كتابه: «وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع»[3].

وأمَّا جهوده في هذا ميدان في الدراسات الصوتيَّة والمباحث التي تناولها فيه فهي:

١- الصوامت من الحروف والصوائت.

---

(١) ينظر: الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين علي الصغير: ٥٦.

(٢) الخصائص: ١/٣٤.

(٣) سر صناعة الإعراب: ١/٧٠.

٢- علاقة اللهجات بالأصوات.

٣- علاقة الإعراب بالأصوات.

٤- التقديم والتأخير في حروف الكلمات وتأثيرهما على الصوت.

٥- علاقة الأفعال بالأصوات.

٦- الإعلال والإبدال والإدغام وأثرها في الأصوات.

٧- الأصوات وعلاقتها بالمعاني.

٨- زيادة المبنى الصوتي وأثره في المعنى.

٩- تتبع الحروف في المخارج، ورتّبها ونظّمها على مقاطع مستفيداً بما ابتكره الخليل، إلا أنه كان مخالفاً له في الترتيب، وموافقاً لسيبويه في الأغلب إلا في مقام تقديم الهاء على الألف، وتسلسل حروف الصفير[1].

١٠- أضاف إتماماً لنظريته في الأصوات: ستة أحرف مستحسنة على حروف المعجم العربي، وثمانية أحرف فرعية مستقبحة، ولا يصح ذلك عنده إلا بالسمع والمشافهة، حتى تكون حروف المعجم مع الحروف الفرعية المستحسنة خمسة وثلاثين حرفاً، وهما مع الحروف الفرعية المستقبحة ثلاثة وأربعون حرفاً.

ولا معنى لهذه الإضافات من قبله لو لم يكن معنياً بالصوت، فحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، لا شك في هذا، ولكن الحروف المستقبحة والمستحسنة التي أضافها، وإن لم يكن لها وجود في المعجم العربي، إلا أن لها أصواتاً في المخارج عند السامعين، وهو إنما يبحث في الأصوات فأثبتها، فعادت الأصوات في العربية عنده ثلاثة وأربعين صوتاً، وهو إحصاء دقيق، وكشف جديد، وتثبيت بارع.

---

(١) وازن بين: سيبويه، الكتاب: ٢/٤٠٥، وابن جني، سر الصناعة: ١/٦٠-٦١.

وقد ذهب ابن جني في هذه الحروف مذهباً فنياً تدل عليه قرائن الأحوال، فهو يعطي استعمالها في مواطنه، وتشخيصها في مواضعه، فالحروف المستحسنة عنده، يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام، وهي:

«النون الخفيفة، والهمزة المخففة، وألف التفخيم، وألف الإمالة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي... والحروف الفرعية المستقبحة، هي فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة، غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم»(١).

١١- بيَّن ابن جني مخارج الحروف وهي عنده ستة عشر مخرجاً، ناظراً إلى موقعها في أجهزة النطق، ومنطلقاً معها في صوتيتها، ويسير ذلك بكل ضبط ودقة وأناقة، فيقول:

واعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر، ثلاثة منها في الحلق -إلى أن يصل إلى آخر المخارج وهو- الخياشيم، مخرج النون الخفيفة، ويقال الخفيفة أي: الساكنة، فذلك ستة عشر مخرجاً(٢).

وحينما يتابع ابن جني مسيرته الصوتية في مخارج هذه الحروف، نجده متمحضاً لها في دقة متناهية بما نعتبره أساساً لما تواضع عليه الأوروبييون باسم الفونولوجي أي «التشكيل الأصواتي» أو هو النظام الصوتي في تسمية دي سوسير(٣).

---

(١) سر صناعة الاعراب: ٥١/١.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ٦٠/١-٦١.

(٣) ينظر: علم اللغة العام، دي سوسير: ص٢٠.

١٢- نشأة اللغة: ممَّا تطرَّق له ابن جني في الدراسات الصوتيَّة هو موضوع نشأة اللغة، وأثر المسموعات الصوتية في نشوء اللغات الإنسانية، مشيراً في الوقت نفسه إلى نظرية محاكاة الأصوات في بابي: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني.

إنَّ هذه المميِّزات في جهود ابن جنِي في الدراسات الصوتيَّة تبيِّن للقارئ عمق الفكر الصوتي عند ابن جني، إذ يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية دقيقة منظّمة، ويتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف يتنقل فيه من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركب حتى إذا تكاملت الصورة لديه، بدأ بالبحث المركز، فلا ترى حشوة ولا نبوة، ولا تشاهد تكرارا أو اجتراراً، فأنت بين يدي مناخ جديد مبوبّ بأفضل ما يراد من التصنيف والتأليف، فلا تكاد تستظهر علما مما أفاض حتى يلاحقك علم مثله كالسيل اندفاعاً.

❖ **أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ)**: تركَّز جهد الإمام أحمد بن فارس على ظاهرة صوتية مهمَّة، وهي أصل الكلمة أي: الأصوات التي تدل على معنى مشترك، وما زاد على الأصل، أي: الأصوات التي تعطي معنى زائدا على المعنى الأوَّل، أي: أثر الإبدال الصوتي في تغير الدلالة، وأوضح ذلك في أوَّل كتابه "مقاييس اللغة" فقال: «إنَّ لِلُغَةِ الْعَرَبِ مَقَايِيسَ صَحِيحَةً، وَأُصُولاً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا فُرُوعٌ. وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي جَوَامِعِ اللُّغَةِ مَا أَلَّفُوا، وَلَمْ يُعْرِبُوا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مِقْيَاسٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَايِيسِ، وَلَا أَصْلٍ مِنَ الأُصُول. وَالَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ جَلِيلٌ، وَلَهُ خَطَرٌ عَظِيمٌ. وَقَدْ صَدَّرْنَا كُلَّ فَصْلٍ بِأَصْلِهِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَسَائِلُهُ، حَتَّى تَكُونَ الْجُمْلَةُ الْمُوجَزَةُ شَامِلَةً لِلتَّفْصِيلِ، وَيَكُونَ الْمُجِيبُ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مُجِيباً عَنِ الْبَابِ الْمَبْسُوطِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ

وَأَقْرَبِهِ»(١)، فكان منهجه في معجمه "مقاييس اللغة" أن يورد كمّا كبيراً من الكلمات التي حصل فيها مثل هذا الإبدال، فأدى كل صامت دلالة تختلف عن الدلالة التي أداها صامت آخر، ومن هذه الأمثلة ما يأتي:

١- فرَّ: الفاء والراء أصول ثلاثة:

الأول: الانكشاف، في قولهم: فرّ عن أسنانه إذا تبسم أي: كشف عنها.

الثاني: جنس من الحيوان في مثل: الفرير وهو ولد البقرة.

الثالث: الخفة والطيش. يقال: رجل فرفار بمعنى طائش(٢).

فزَّ: يدلُّ على الخفة.

فشَّ: يدلُّ على الانتشار وقلة التماسك.

فصَّ: يدلُّ فَصْلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ.

فضَّ: يدلُّ على التفريق والتجزئة.

فظَّ: يدلُّ على الكراهة.

فغَّ: يدلُّ على محاكاة الصوت. يقولون: الفغفغة (٣).

كما أورد ابن فارس في مقاييسه جملة من الألفاظ الأخرى التي تتألف من مادة واحدة وهي "الفاء والراء" وصويت ثالث يغير معنى هذه المادة كلما حصل إبدال، ومن هذه الألفاظ، فيقول: باب الْفَاءِ وَالرَّاءِ وَمَا يَثْلِثُهُمَا، ويذكـــر فيه المواد: فرز، فرس، فرش، فرص، فرض، فرط، فرع، فرغ، فرق،

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣/١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: ٤٣٨/٤.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٤٤٠/٤-٤٤١.

فرك، فرم، فره، فري، فرت، فرث، فرج، فرح، فرخ، فرد، الخ...[1].

وهكذا يسير في جميع معجمه بان يذكر فاء الكلمة وعينها وما يثلثهما فينوع لام الكلمة بحسب ورودها في كلام العرب وما تدلُّ عليه.

❖ **السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)**: درس قضيَّة المناسبة بين الصوت والدلالة، أو اللفظ والمعنى، فذكر في كتابه "المزهر: باب مناسبة الألفاظ للمعاني" قائلاً: فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً...»[2].

فالسيوطي هو من صرح بفكرة المناسبة هذه، وذلك بعدما جمع مادته من مؤلفات سابقيه كسيبويه، وابن جني، والثعالبي، وابن دريد، ثم تابعه علماء عرب محدثون في هذه القضية، وقد أورد السيوطي في المزهر كماً كبيراً من الألفاظ التي أتى بها هؤلاء، وكلها تدور في فلك الإبدال وما تحدثه الصويتات المبدلة من أثر في تغيير دلالة الكلمات، ومن هذه الألفاظ، فمن هذه الأمثلة:

١- الجَمْجَمة: أن يخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يبديه.

الحَمْحَمة: أن يردد الفرس صوته ولا يصهل.

الدحداح: الرجل القصير.

الرحراح: الإناء القصير الواسع.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٤/٤٨٥-٥٠٠.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/٤٤.

الجَفْجَفة: هزيز الموكب وحفيفه في السير.

الحَفْحفة: حفيف جناحي الطائر.

الجرجرة: صوت جرع الماء في جوف الشارب.

الخرخرة: صوت تردد النفس في الصدر.

الكهكهة: صوت ترديد البعير هديره.

القهقهة: حكاية استغراب الضحك.

الوعوعة: صوت نباح الكلب إذا ردده.

الوقوقة: اختلاط أصوات الطير.

الوكوكة: هديل الحمام ... إلخ [1].

٢- الجف: وعاء الطلعة إذا جف.

الخف: الملبوس.

الشازب: الضامر من الإبر وغيرها.

الشاصب: أشد ضمراً من الشازب[2].

٣- النقش: في الحائط.

الرقش: في القرطاس.

الوشم: في اليد.

الوسم: في الجلد.

الوشي في الثوب [3].

---

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة: ١/٤٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٥.

ثمَّ بعد ذلك يطرق مسألة نشوء اللغة فقال: سواءٌ قلنا بالتوقيف أم بالاصطلاح أن اللغة لم تُوضع كلها في وقت واحد بل وقعت متلاحقة متتابعة اختلافُ لغاتِ العرب إنما جاءَ من قِبَل أنَّ أول ما وُضِع منها وُضِعَ على خلاف وإن كان كله مسوقا على صحة وقياس ثم أَحدثوا من بعدُ أشْيَاء كثيرة للحاجة إليها غير أنها على قياس ما كان وُضِعَ في الأصل مختلفا، ويجوز أن يكونَ الموضوعُ الأولُ ضَرْباً واحدا ثم رأى مَنْ جاءَ بعد أن خالف قياسَ الأولِ إلى قياسٍ ثانٍ جارٍ في الصحة مَجْرَى الأوَّل[1]، فهو هنا ينبِّه إلى مسألة تطوُّر اللغة بتطوُّر حاجات الناس، وأنَّ نشوؤها يحتمل أن يكون توقي، كما يحتمل أن يكون بالمواضعة والاصطلاح.

وهذه جهود عظيمة ومتقدِّمة في الدراسات الصوتيَّة، وإن كان سبق في كثير منها، ففضل السبق للسابق، فإنَّ فضل البيان، والزيادة في التفريع والتأصيل ثابت للاحق.

المطلب الثاني: الدراسات القرآنيَّة والبلاغيَّة والعقديَّة أو الكلاميَّة:

❖ الدراسات القرآنيَّة

كانت جهود الدراسات القرآنيَّة على نوعين: كتب القراءات، وكتب إعجاز القرآن الكريم.

فأمّا كتب القراءات فانتهى كثير منها بإعطاء مصطلحات صوتية اقترنت بالنحو تارة وباللغة تارة أخرى، وتمحضت للصوت القرآني بينهما، وكان ذلك في بحوث متميزة برز منها: الإدغام، الإبدال، الإعلال، الإخفاء، الإظهار، الإشمام، الإمالة، الإشباع، المدّ، التفخيم، الترقيق مما اصطنعه علماء الأداء الصوتي للقرآن الكريم كما سيأتي في الفصول القادمة من هذا الكتاب بإذن الله.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٦.

كما أن علماء التجويد انطلقوا من الدرس الصوتي لتأصيل علم التجويد، فوضعوا عشرات المصطلحات الخاصة بالأداء الصوتي الدقيق للقرآن الكريم، فيما يُسَمِّيه علماء الأصوات اليوم بـــ"علم وظائف الأصوات"، ومنها صفات الحروف: كالهمس والجهر، والشِّدَّة والرخاوة والتوسُّط، والاستعلاء والاستفال، وغير ذلك كالمد واللين والانحراف والتكرير والتفشي والاستطالة والإدغام.

وأمَّا كتب إعجاز القرآن الكريم، فعلى الرغم من أنَّ بحث الصوت اللغوي كان متفرِّقاً وموزَّعاً في مفردات حية، تتابع عليها جملة من الأعلام المبرزين الذين اتسمت جهودهم بالموضوعية والتجرد وبيان الحقيقة، منهم: علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٦هـــ)، وأبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـــ)، وأبو عمروٍ الداني (ت: ٤٤٤هـــ)، وجار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـــ)، وإبراهيم بن عمر الجعبري (ت: ٧٣٢هـــ)، وبدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـــ)، وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـــ)، وأبو الثناء الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـــ).

وسنكتفي أبرز معالم جهد الرمَّانيُّ فيما يأتي؛ لأنَّ من جاء بعده لم يزد عليه كثيراً، وإنَّما كان سائرا على خطاه ودائرا في فلكه، فهم عيال عليه في هذا الباب:

كان من فيها أبرز الدارسين للصوت اللغوي وأقدمهم سبقاً إلى الموضوع، وأولهم تمرساً فيه **علي بن عيسى الرمانيّ**، إلا أنه بالضرورة قد مزج بين دراسة الأصوات وعلم المعاني مطبقاً تجاربه في باب التلاؤم تارة، ومتخصصاً لدراسة فواصل الآيات بلاغياً كما سيأتي في موضعه.

أما التلاؤم الصوتي عند الرماني فهو نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف، لأن تأليف الكلام على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في

الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا[1].

ويعود الرماني بالتلاؤم إلى تجانس الأصوات، ولما كانت أصوات القرآن متجانسة تماماً، فإن القرآن كله متلائم في الطبقة العليا، وذلك بيّن لمن تأمله، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض[2]، ويبحث الرماني التلاؤم في أصوات القرآن من وجوه:

١- السبب في التلاؤم ويعود به إلى تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشدَّ تلاؤماً.

٢- الفائدة في التلاؤم، يعود بها إلى حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة.

٣- ظاهرة التلاؤم، ويعود بها إلى مخارج الحروف في اختلافها، فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسط بين ذلك.

«والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد. وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[3].

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، الرمَّانيّ: ٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ٩٦.

❖ **الدراسات البلاغيَّة:**

ونجد ملامح أساسية لهذا العلم عند علماء البلاغة الذين تعرَّضوا لمسائل الفصاحة، كفصاحة الكلمة والكلام، وموضوع اللَّفظ والمعنى في النص الأدبيِّ، فاشتملت هذه الدراسات على خصائص الأصوات فقد بحثت على أيدي علماء متمرسين كالشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) وابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) وأبي يعقوب السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) وأضرابهم:

وكانت مباحثهم طبقاً لتوجه علم المعاني، وتزاحم الأصوات في قبول ذائقتها النطقية أو السّمعية ورفضها، من خلال: تنافر الحروف، تلاؤم الأصوات، التعقيد اللفظي، التعقيد المعنوي، فصاحة اللفظ المفرد؛ مما هو معلوم في مثل هذه المباحث مما يتعلق بالصوت منها، وخلصت إلى القول بخلو القرآن العظيم من التنافر في الكلمات، أو التشادق في الألفاظ، أو العسر في النطق، أو المجانبة للأسماع، وكونه في الطبقة العليا من الكلام في تناسقه وتركيبه وتلاؤمه.

أمَّا ما يتعلق بالأصوات من مخارجها في موضوع التنافر فلهم بذلك رأيان:

الأول: إن التنافر يحصل بين البعد الشديد أو القرب الشديد وقد نسب الرماني هذا الرأي إلى الخليل «وذلك أنه إذا بَعُد الشديد كان بمنـزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنـزلة مشي المقيد، لأنه بمنـزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال»[(١)].

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٩٦.

الثاني: أن التنافر يحصل في قرب المخارج فقط وهو ما يذهب إليه ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) بقوله: «ولا أرى التنافر في بعد ما بين مخارج الحروف وإنما هو في القرب. ويدل على صحة ذلك الاعتبار، فإن هذه الكلمة «ألم» غير متنافرة، وهي مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج- لأنَّ الهمزة من أقصى الحلق، والميم من الشفتين، واللام متوسطة بينهما. فأما الإدغام والإبدال فشاهدان على أنَّ التنافر في قرب الحروف دون بعدها، لأنَّهما لا يكادان يردان في الكلام إلا فراراً من تقارب الحروف، وهذا الذي يجب عندي اعتماده، لأنَّ التتبع والتأمل قاضيان بصحته»(١).

وقد يتبعه بالرد على هذا الرأي ابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) فقال: «أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه... ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقالاً واستكراهاً، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف، ولا بين اللام والراء، ولا بين الزاي والسين، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج، دون المتقارب»(٢).

وبعيداً عن هذا وذاك، فإنَّ الطبيعة التركيبية في اللغة العربية قد تمرَّست في تعادل الأصوات وتوازنها، مما جعل لغة القرآن الكريم في الذروة من طلاوة الكلمة، والرقة في تجانس الأصوات، لذلك فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتياً في تداخل حروفها، وتنافر مخارجها، سواء أكانت قريبة أم بعيدة «فإن الجيم لا تقارن الفاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير.

---

(١) سر الفصاحة: ٩١.

(٢) المثل السائر: ١٥٢.

والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير»[1].

وفي هذا دلالة على «امتياز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات»[2].

وكان التنافر في أصوات الكلمة موضع عناية عند السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) ومن بعده القزويني (ت: ٧٣٩هـ) عند مباحث فصاحة المفرد، وهي خلوصه من تنافر الحروف والغرابة، ومخالفة القياس اللغوي، وعند فصاحة الكلام، وهي خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد بشقيه اللفظي والمعنوي، وهي موضوعات جرى على إدراجها في الموضوع علماء المعاني والبيان بعد السكاكي والقزويني إدراجاً تقليدياً للقول بسلامة القرآن الكريم من التنافر[3].

ولا حاجة بنا إلى تأكيد هذا القول فهو أمر مفروغ عنه في القرآن الكريم، وبقيت مفردات الصوت اللغوي فيه موضوع عناية البحث.

❖ الدِّراسات العقديَّة أو الكلاميَّة:

كثر الكلام والجدال بين علماء العقيدة أو الكلام في مسألة بالغة الخطورة، وهي تتَّصل بالبحث الصوتيِّ اتِّصالا مباشرا، وهي مسألة صفة كلام لله سبحانه وما يتبع ذلك فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم، فكثر الكلام والردَّ في

---

(١) البيان والتبيين: ١/٦٩.

(٢) ينظر: بحوث لغوية، أحمد مطلوب: ٢٨.

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: ٧٢، ٧٩.

هذه المسألة أكثر من أيِّ مسألة أخرى منذ منتصف القرن الثاني الهجريِّ فكثر النقاش والرد، والتأليف في هذه المسألة بين أهل العلم من أهل الحقِّ أتباع الكتاب والسنَّة وأهل الخلاف والزيغ من أهل الكلام، وما أن يطالعنا القرن الثامن حتَّى نرى جهبذين عظيمين وعالمين بحرين فرعا صنوف العلم فرعاً، وفتحاً باب الاجتهاد والبحث بعد أن كان موصدا، وهما شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه البارُّ ابن القيِّم رحمهم الله، فكانت لهم تأصيلات في الدراسات الصوتيَّة عظيمة، وردود على المخالفين لا تقلُّ أهمية عن تأصيلاتهما رحمهما الله تعالى، وسنذكر فيما يأتي طرفا من جهودهما:

١- شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ): ذكر شيخ الإسلام رحمه الله على حقيقة حدوث الصوت فقال: «الصوت لا يولّده شيء واحد بل لا بد من شيئين من جسمين يقرع أحدهما الآخر أو يقلع عنه، فَيَتَوَلَّدُ الصَّوْتُ الْمَوْجُودُ فِي أجسام العَالَم وهذان أصلان للصوت الذي تولد عنهما»(١)، ويستمرّ في ضرب الأمثلة على هذه النظريَّة وكيف يصدر الإنسان صوته، وكلامه، ومبيناً أمراً عظيماً فيما يتعلَّق بكلام الله فيقول: «إِنَّ الصَّوْتَ الْمَسْمُوعَ مِنْ لَفْظ مُحَمَّدٌ وَيَحْيَى وَإِبْرَاهِيمُ فِي الْقُرْآنِ هُوَ مِثْلُ الصَّوْتِ الْمَسْمُوعِ مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ وَكِلا الصَّوْتَيْنِ مَخْلُوقٌ. وَأَمَّا الصَّوْتُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ اللَّهُ بِهِ فَلا مِثْلَ لَهُ لا يُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَكَلامُ اللهِ هُوَ كَلامُهُ بِنَظْمِهِ وَنَثْرِهِ وَمَعَانِيهِ. وَذَلِكَ الْكَلامُ لَيْسَ مِثْلَ كَلامِ الْمَخْلُوقِينَ»(٢).

(١) ينظر: مجموع الفتاوى: ٤/١٣١، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: ٥/٢٠٤-٢٠٥، ومنهاج السنة النبوية: ١/٢٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٢/٧٧، ومجموعة الرسائل والمسائل: ٣/٦٢.

ثمَّ ينتقل إلى الأصوات عامَّة وطريقة حدوثها كما في الرعد فيقول رحمه الله: «أَمَّا "الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ" فَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّعْدِ قَالَ: ((مَلَكٌ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مخاريق مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ)) وَفِي مَكَارِمِ الأَخْلاقِ للخرائطي: عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّعْدِ فَقَالَ: "مَلَكٌ وَسُئِلَ عَنْ الْبَرْقِ فَقَالَ: مخاريق بِأَيْدِي الْمَلائِكَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ- مخاريق مِنْ حَدِيدٍ بِيَدِهِ". وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ آثَارٌ كَذَلِكَ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَقْوَالٌ لا تُخَالِفُ ذَلِكَ. كَقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ اصْطِكَاكُ أَجْرَامِ السَّحَابِ بِسَبَبِ انْضِغَاطِ الْهَوَاءِ فِيهِ فَإِنَّ هَذَا لا يُنَاقِضُ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّعْدَ مَصْدَرُ رَعَدَ يَرْعَدُ رَعْداً. وَكَذَلِكَ الرَّاعِدُ يُسَمَّى رَعْداً. كَمَا يُسَمَّى الْعَادِلُ عَدْلاً. وَالْحَرَكَةُ تُوجِبُ الصَّوْتَ وَالْمَلائِكَةُ هِيَ الَّتِي تُحَرِّكُ السَّحَابَ وَتَنْقُلُهُ مِنْ مَكَانٍ إلَى مَكَانٍ وَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ فَهِيَ عَنْ الْمَلَائِكَةِ وَصَوْتُ الإِنْسَانِ هُوَ عَنْ اصْطِكَاكِ أَجْرَامِهِ الَّذِي هُوَ شَفَتَاهُ وَلِسَانُهُ وَأَسْنَانُهُ، وَلَهَاتُهُ وَحَلْقُهُ. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَكُونُ مُسَبِّحاً لِلرَّبِّ. وَآمِراً بِمَعْرُوفٍ وَنَاهِياً عَنْ مُنْكَرٍ»[1].

ثمَّ يحدِّد معنى السمع لغة وشرعا ويستدلُّ على ذلك من القرآن الكريم فيقول رحمه الله: «لفظ السمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك، ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[2] ثم قال: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، فذمهم بأنهم لا يفهمون

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٢) سورة الأنفال: ٢٣.

القرآن ولو فهموه لم يعملوا به»(١).

٢- شمس الدين بن القيِّم (ت: ٧٤٢هـ): سار الإمام ابن القيِّم رحمه الله على خطى شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، في الانتصار لكتاب الله تعالى وسنَّة النبيِّ ﷺ، وأكثر من الردِّ على المخالفين، فتناول مسائل في الصوت كانت من الأهمِّيَّة بمكان فهو رحمه الله يبيِّن ثلاث مسائل في هذا الصدد ويبيِّن ما فتح الله به عليه من الحكم الربانيَّة في ذلك وفيما يأتي بيان لهذه المسائل:

أ - حقيقة الصوت وماهيَّته: قال رحمه الله في ماهيَّة الصوت: «الصوت عرض لا ثبات له»(٢).

ب- كيفيَّة حدوث الصوت عند الإنسان والتعبير به عن المعاني التي في نفسه: بيَّن رحمه الله جهاز النطق عند الإنسان فشرحه وبيِّن حقيقته وحدَّد ماهيَّته فقال: «أمَّا الفم فمحلُّ العجائب وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ومسكن اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم وترجمان القلب ورسوله المؤدي عنه، ولما كان القلب ملك البدن ومعدنا للحرارة الغريزية فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته وبقي هنالك ساعة فسخن واحترق فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك واللسان والشفتين والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدي بها عن القلب ما يأمر به... ثم أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ١٠٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٧.

الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة لتختلف الأصوات باختلافها فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان، وهذا من أظهر الأدلة فإن هذا الاختلاف الذي بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها فقلما يشتبه صوتان أو صورتان ليس في الطبيعة ما يقتضيه، وإنَّما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن كل شيء خلقه فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر»[1].

ت- عمليَّة السمع: قال رحمه الله: «ثم اعدل إلى الأذنين وتأمل شقهما وخلقهما وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عوناً على إدراك السمع وجعلهما مرة لتمتنع الهوام عن الدخول في الأذن وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ وجعل في الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين، لأن العينين بمنـزلة الطليعة والكاشف والرائد الذي يتقدم القوم ليكشف لهم وبمنـزلة السراج الذي يضيء للسالك ما أمامه، وأما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وجعل للعينين غطاء، لأنَّ مدرك الأذن الأصوات ولا بقاء لها فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فزالت المنفعة المقصودة وأما مدرك العين فأمر ثابت والعين محتاجة إلى غطاء يقيها وحصول الغطاء لا يؤثر في الإدراك وقال بعض أهل العلم عينا الإنسان هاديان وأذناه رسولان إلى قلبه

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٩-٣١٠، ٤١١-٤١٢، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ٢١٧/١، ٢٦٨.

ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث خبثت جنوده»[1].

❖ المباحث الصوتية التي درسها العرب قديماً:

لقد قدم العرب والمسلمون مفصّلاً صوتياً مركباً من مظاهر البحث الصوتي يمثل غاية في الدقة والتعقيد، لم يستند إلى أجهزة متطورة، بل ابتكرته عقول علمية نيرة، وأذهان صافية، تجردت للحقيقة، وتمحضت للبحث العلمي، مخلصة فيه النية، وكانت الخطوط العريضة لهذا العطاء على وجه الإجمال عبارة عن مفردات هائلة، ونظريات متراصة، يصلح أن يشكل كل عنوان منها فصلاً من باب، أو باباً في كتاب، يستقرىء به الباحث ما قدمه علماء العربية من جهد صوتي متميز واكبه الغربيون بعد أن عبّد طريقه العرب والمسلمون، هذه المفردات في عنوانات ريادية تمثل الموضوعات الآتية في نظرية الصوت:

١- تعرف الصوت وماهيَّته.

٢- ظاهرة حدوث الصوت.

٣- معالم الجهاز الصوتي عند الإنسان.

٤- أنواع الأصوات العالميَّة.

٥- درجات الأصوات في الاهتزازات.

٦- بدايات الأصوات عند المخلوقات.

٧- علاقة الأصوات باللغات الحيّة.

٨- أعضاء النطق وعلاقتها بالأصوات.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٤٠٩-٤١٠.

٩- الأصوات الصادرة دون أعضاء نطق.

١٠- علاقة السمع بالأصوات.

١١- مقاييس الأصوات امتداداً أو قصراً.

١٢- تسميات الأصوات وأصنافها.

١٣- الأصوات الزائدة على حروف المعجم.

١٤- الزمان والصوت "مسافة الصوت".

١٥- المكان والصوت "مساحة الصوت".

١٦- المقاطع الصوتية بالإضافة إلى مخارج الأصوات.

١٧- النقاء الصوتيّ.

١٨- الموسيقي والصوت.

١٩- العروض والصوت.

٢٠- النبر والصوت.

٢١- التنغيم والصوت.

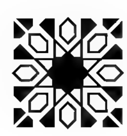
٢٢- التقريب بين الأصوات.

٢٣- الرموز الكتابية والأصوات.

٢٤- إئتلاف الحروف وعلاقته بالأصوات.

هذه أهم مفردات المصطلح الصوتي في نظرية الصوت اللغوي عند العرب توصلنا إليها من خلال عروض القوم في كتبهم، وطروحهم في بحوثهم، وأن لم يشتمل عليها كتاب بعينه، وإنَّما جاءت استطراداً في عشرات التصانيف، ونحن

لا نريد حصرها بقدر ما نريد من التنبيه، إنّ هذه الموضوعات التي سبق إليها العرب، هي التي توصل إليها الأوروبيين اليوم، ومنها استقوا معلوماتهم الأولية، ولكنهم أضافوا وجددوا وأبدعوا، وتمرست عندهم المدارس الصوتية الجديدة، تدعمها أجهزة العلم، والأموال الطائلة، والخبرات الناشئة، مع الصبر على البحث، والأناة في النتائج.



المبحث الثاني

جهود الفلاسفة وعلماء الغرب وعلماء العربية المحدثين[1]

في الدراسات الصوتية:

المطلب الأوَّل: جهود الفلاسفة اليونان والعرب في الدراسات الصوتيَّة:

❖ **الفلاسفة اليونان والإغريق:**

بدأت دراسة الصوت في العصور القديمة، وقد قدَّموا جهوداً كبيرة في الأصوات اللغويَّة والأنغام وغير ذلك، فقد أجرى فيثاغورث، الفيلسوف وعالم الرياضيات الإغريقي، منذ القرن السادس قبل الميلاد، تجارب على الأصوات، التي تُحدِثها الخيوط المهتزة. ويقال إنَّه هو الذي اخترع مقياس الصوت، الذي يستعمل في دراسة الأصوات الموسيقية.

وفي نحو عام ٤٠٠ قبل الميلاد، ذكر عالم إغريقي، اسمه أرخيتاس، أنَّ الصوت ينتج من حركة جسم، يصطدم بآخر. وبعد نحو ٥٠ عاماً، ذكر الفيلسوف الإغريقي، أرسطو، أنَّ الصوت يُحمل إلى آذاننا بوساطة حركة الهواء. ومنذ ذلك الحين، وحتى نحو ١٣٠٠م، لم تُجرَ في أوروبا أبحاث علمية تُذكر. غير أنَّ العلماء، في العالم العربي والإسلامي، والهند، طوّروا بعض الأفكار الجديدة في شأن الصوت، بدراسة الموسيقى، واستحداث نُظُم في نظريتها.

---

(١) العلماء المحدثون: مصطلح يراد به علماء العربيَّة منذ قيام دولة محمَّد عليّ في مصر حتَّى يومنا هذا؛ لأنَّ العرب في هذه المدَّة انفتحوا على الدراسات الغربيَّة، فتأثَّروا بها وبمناهج الغربيِّين، فأنتج هذا التأثُّر قيام دراسات جديدة امتزج فيها القديم بالجديد فكانت دراساتهم متميِّزة عن سلفهم.

وأمَّا الفلاسفة المسلمون فقد كانت لهم جهود عظيمة في الدراسات الصوتيَّة وسأبيِّن بعض هذه الجهود في ما يأتي:

❖ **ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبدالله (ت: ٤٢٨هـ)**: وضع ابن سينا رسالة متخصصة نادرة في الأصوات أسماها (أسباب حدوث الحروف)[1]، وقد كان متمرساً فيها للإشارات الصوتية وتمييزها في الأسماع، وتحدث عن مخارج الأصوات وغضاريف الحنجرة، وعرض للفم واللسان تشريحياً وطبياً وتركيبياً، وعني عناية خاصة بترتيب مخارج الصوت العربي مقارناً باللغات الأخرى بحسب تركيب أجهزة الصوت الإنساني، وبحث مميزات الحرف العربي صوتياً، وحكم جهازه السمعي في معرفة الأصوات وأثر تذبذبها.

وقد أبان ابن سينا، في رسالة له، بعنوان "أسباب حدوث الحروف"، أنَّ الصوت ينتج من تموّج الهواء دفعة، وبقوة، وسرعة. ولم تقف إسهامات العلماء العرب عند تعريف الأصوات، بل تعدَّتْ ذلك إلى تطبيق مبادئ علم الفيزياء، في الأصوات، على الموسيقى، وذلك نحو عام ٤٢٥هـ-١٠٣٣م.

وقد ثبت علمياً أنَّ الصوت اهتزازات محسوسة في موجات الهواء، تنطلق من جهة الصوت، وتذبذب من مصانعه المصدّرة له، فتسبح في الفضاء حتى تتلاشى، يستقر الجزء الأكبر منها في السمع بحسب درجة تذبذبها، فتوحي بدلائلها، فرحاً أو حزناً، نهياً أو أمراً، خبراً أو إنشاء، صدى أو موسيقى، أو شيئاً عادياً مما يفسره التشابك العصبي في الدماغ، أو يترجمه الحس المتوافر في أجهزة المخ بكل دقائقها، ولعل في تعريف ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ) إشارة إلى جزء من هذا التعريف، من خلال ربطه الصوت بالتموج، واندفاعه

---

(١) أسباب حدوث الحروف، طبعت في القاهرة، ١٣٣٢ هـ-١٣٥٢هـ.

بسرعة عند الانطلاق، فهو يقول: «الصوت تموج الهواء ودفعه بقوة وسرعة من أي سبب كان»[1].

ولا كبير أمر في استعراض تمرس علماء العربية بهذا النمط من الدراسات والتحديدات، وهذا النحو من تلمس الصوت فيزيائياً، وقياس سرعته ومساحته أمواجياً فقد سبق إليه جملة من الباحثين [2].

❖ **إخوان الصفا:** قدَّم إخوان الصفا، في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، موجزاً شاملاً، في علم الأصوات وعلم الموسيقى، وعرَّفوا الصوت بأنَّه قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام... وأنه يتموَّج إلى جميع الجهات". وقسموا الأصوات إلى أربعة أنواع: جهيرة وخفيفة وحادة وغليظة. وعَزَوا ذلك إلى طبيعة الأجسام، وقوة تموّج الأصوات. وقد أبان ابن سينا، في رسالة له، بعنوان "أسباب حدوث الحروف"، أنَّ الصوت ينتج من تموّج الهواء دفعة، وبقوة، وسرعة. ولم تقف إسهامات العلماء العرب عند تعريف الأصوات، بل تعدَّتْ ذلك إلى تطبيق مبادئ علم الفيزياء، في الأصوات، على الموسيقى، وذلك نحو عام ٤٢٥هـ-١٠٣٣م.

❖ جهود علماء الغرب في الدراسات الصوتيَّة:

لم يشرع العلماء الأوربيون في تجارب موسعة على طبيعة الصوت، إلا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، حين وضَّح الفلكي والفيزيائي الإيطالي، جاليليو، بالتجربة، أن تردد موجات الصوت، هو الذي يحدد طبقته. لقد عمد إلى حك قاطعة ذات أسنان على سطح لوح من النحاس، فأحدث صوتاً حادّاً؛ نتج من الأخاديد، التي تركتها الأسنان على اللوحة.

(١) أسباب حدوث الحروف: ٧.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية: ١٢٩-١٤٥، وفي البحث الصوتي عند العرب: ٦، ١١.

وفي نحو عام ١٦٤٠م، تمكن مارن ميرسين، وهو عالم رياضيات فرنسي، من إجراء أول قياس لسرعة الصوت في الهواء. وبعد نحو عشرين عاماً، أثبت الكيميائي والفيزيائي الأيرلندي، روبرت بويل، بالتجربة، أنَّ موجات الصوت، لا بدّ أن تنتقل في وسط ما. وقد برهن بويل على أنَّه لا يمكن سماع صوت جرس، داخل جرة أُفرغ منها الهواء. وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي، صاغ العالم الإنجليزي، إسحاق نيوتن، علاقة، تكاد تكون صحيحة، بين سرعة الصوت في وسط ما، وبين كثافته وقابليته للانضغاط.

وفي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، أوضح دانيال برنولي، وهو رياضي سويسري، أن الخيوط يمكن أن تهتز، عند أكثر من تردد، في آن واحد. وفي أوائل القرن التاسع عشر، طوَّر رياضي فرنسي، اسمه جان بابتست فورير، طريقة رياضية، يمكن أن تُستخدم في تحليل موجات الصوت المعقدة، إلى النبرات البسيطة، التي تتكون منها. وفي الستينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، درس هيرمان فون هيلمولتز، وهو فيزيائي ألماني، تداخل موجات الصوت، وإنتاج الضربات، وعلاقة كلٍّ منهما بإحساس الأذُن بالصوت.

ثمَّ قام بعد منتصف القرن التاسع عشر جزء كبير من علم الصَّوت الحديث عند علماء الغرب، على مبادئ الصوت، الموجودة في كتاب "نظرية الصوت" لمؤلِّفه الفيزيائي البريطانيِّ البارون رايلي، عام ١٨٧٨م. وعلى الرغم من أنَّ الكثير من خصائص الصوت معروفة، منذ ذلك الوقت الطويل، إلا أنَّ علم الصوت، استمر يتوسع في مناطق أخرى من العالم. وفي الأربعينيات من القرن العشرين، وضَّح جورج فون بيكيسي، وهو فيزيائي أمريكي، كيف تميِّز الأذن بين الأصوات. وفي الستينيات من القرن العشرين، توسع علم

الصَّوتيات سريعاً، استجابة للاهتمام المتزايد بتأثيرات التلوث الضجيجي، الفيزيائية والنفسية الضارة.

وشملت بحوث علم الصَّوتيات، في سبعينيات القرن العشرين، دراسة الاستعمالات الجديدة للموجات فوق الصوتية، وتطوير معَدات فوق سمعية أفضل. وخلال أوائل الثمانينيات، شمل البحث أجهزة أفضل، لإعادة إنتاج الصوت وتطوير الحواسب، التي تستطيع أن تفهمه، وتعيد إنتاجه. كما درس مهندسو علم الصَّوتيات الاستخدامات الممكنة، للموجات تحت الصوتية، أي: الصوت الذي يكون تردده أقلّ من مدى السماع المباشر.

ومن المصادر التي قدَّموها في هذا الشأن:

١- قائمة مواضيعِ الصوتياتِ (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٢- أبجدية صوتية دولية (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٣- معالجة خطابِ (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٤- عِلْم الصوتيات (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٥- قائمة كلمةِ بايومَترِك (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٦- أقسام صوتياتِ في الجامعاتِ (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٧- إكس إس أي إم بي أي (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٨- أبجدية منظمة حلف شمال الأطلسي الصوتيةِ (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

٩- مجموعة بوكاي (مصدر باللغة الإنجليزيَّة).

المطلب الثاني: جهود علماء العربية المحدثين[1]، والأثر العربيُّ في الدراسات الصوتيَّة الغربيَّة

❖ جهود علماء العربية المحدثين:

لقد انكب كثير من علماء العرب المحدثين على دراسة علم الأصوات، وقد كانوا في ذلك ثلاثة فرق: فريق تأثر بما جاء به علماء العرب السابقون، ولم يتجاوزه، وفريق تأثّر بما قدمه علماء الغرب في الدرس اللغوي الحديث، ولم ينتفع بتراث العرب في علم الأصوات، وفريق ثالث، جمع بين الأمرين، أفاد من مناهج الغربيّين الحديثة، وأخذ من الجهود التي توصل إليها أسلافه، ومن الأسماء التي لمعت في ميادين الدراسة الصوتية في هذا العصر:

١- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، موسيقى الشعر، دلالة الألفاظ.

٢- محمود السعران: علم اللغة.

٣- تمام حسان: مناهج البحث في اللغة.

٤- كمال محمد بشر: علم اللغة العام القسم الثاني الأصوات.

٥- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي.

٦- علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، علم اللغة.

٧- صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة.

---

(١) العلماء المحدثون: مصطلح يراد به علماء العربيَّة منذ قيام دولة محمَّد عليّ في مصر حتَّى يومنا هذا؛ لأنَّ العرب في هذه المدَّة انفتحوا على الدراسات الغربيَّة، فتأثَّروا بها وبمناهج الغربيِّين، فأنتج هذا التأثُّر قيام دراسات جديدة امتزج فيها القديم بالجديد فكانت دراساتهم متميِّزة عن سلفهم.

٨- عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة.

٩- محمد أحمد أبو الفرج: فقه اللغة.

١٠- محمد المبارك: فقه اللغة.

١١- عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية؛ اللهجات العربية في القراءات القرآنية.

١٢- محمود حجازي: علم اللغة العربية.

١٣- الطيب البكوش: التصريف العربيّ من خلال علم الأصوات الحديث.

١٤- عبد الرحمن الحاج صالح: مدخل إلى علم اللسّان الحديث.

١٥- رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية.

١٦- داود عبده: دراسات في علم أصوات العربية.

١٧- إبراهيم السامرائي: دراسات في اللغة؛ فقه اللغة المقارن.

١٨- عبد الصبور شاهين: المنهج الصّوتي للبنية العربية.

١٩- صالح القرمادي: دروس في علم أصوات العربية (مترجم).

٢٠- فاطمة محمد محجوب: دراسات في علم اللغة.

٢١- يوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن.

❖ الأثر العربيُّ في الدراسات الصوتيَّة الغربيَّة:

ليس جديداً القول بسبق العرب إلى تأصيل نظرية الصوت اللغوي، واضطلاعهم بأعباء المصطلح الصوتي منذ القدم، وبحثهم تغيرات الصوتيَّة والدلالة المترتِّبة على ذلك، وممَّا امتازت به جهود علماء العربيَّة في الدراسات الصوتيَّة، ارتباط الصوت بالتصريف، أو بالبناء الصرفيِّ، ذلك أنّ صلة

الأصوات وثيقة في الدرس الصّرفي عند العرب في كل جزئياته الصوتية، فكان ما توصل إليه العرب في مضمار البحث الصرفي عبارة عن استجابة فعلية لمفاهيم الأصوات قبل أن تتبلور دلالتها المعاصرة، فإذا أضفنا إلى ذلك المجموعة المتناثرة لعناية البحت النحوي بمسائل الصوت خرجنا بحصيلة كبيرة متطورة تؤكد النظرية الصوتية في التطبيق مما يعد تعبيراً حيّاً عن الآثار الصوتية في أمهات الممارسات العربية في مختلف الفنون.

فكان لعلماء العربية المتقدِّمين بحوث في الأصوات اللغوية شهد المحدثون الأوربيون أنَّها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربيّ، ولا سيما في الترتيل القرآنيّ، ولقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربيَّة، وإتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي الحسّ، دقيقي الملحوظة، فوصفوا لنا الصوت العربي وصفاً أثَارَ دهشة المستشرقين وإعجابهم(١)، وهذه البحوث الصوتية التي سبق إليها علماء العربية فأثارت دهشة المستشرقين، وأفاد منها الأوروبيون في دراساتهم اللغويَّة والصوتيَّة بخاصَّة إذ اتَّسمت بالدقَّة واعتمدت أجهزة التشريح، وقياس الأصوات في ضوء المكتشفات، وقد أثبتت جملة من الحقائق الصوتيَّة، كان قد توصل إليها الأوائل عفوياً، في حسّ صوتي تجربته الذائقة الفطرية، وبعد أن تأصَّلت لديهم إلى درجة النضج، قدّمت منهجاً رصيناً رسّخ فيه المحدثون مباحث الدرس الصوتي الجديد في المفردات والعرض والأسلوب والنتائج على قواعد علمية سليمة.

لقد كان ما قاله المرحوم الأستاذ مصطفى السقا وجماعته في مقدمتهم لسر صناعة الإعراب ملحظاً جديراً بالاهتمام... «والحق أن الدراسة الصوتية

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية: ٥.

قد اكتملت وسائلها وموضوعاتها ومناهجها عند الأوروبيين، ونحن جديرون أن نقفو آثارهم وننتفع بتجاربهم، كما انتفعوا هم بتجارب الخليل وسيبويه وابن جني وابن سينا في بدء دراساتهم للأصوات اللغوية»[1] فالأوروبيون أفادوا من خبراتنا الأصيلة. فهل نحن منتفعون؟

لقد توصل العرب حقاً إلى نتائج صوتية مذهلة أيدها الصوت اللغوي الحديث في مستويات هائلة نتيجة لعمق المفردات الصوتية التي خاض غمارها الروّاد القدامى، وقد أيد هذا التوصل إثنان من كبار العلماء الأوروبيين هما: المستشرق الألماني الكبير الدكتور براجشتراسر، والعالم الانكليزي اللغوي المعروف الأستاذ فيرث.

أ - يقول الدكتور براجشتراسر في معرض حديثه عن علم الأصوات: «لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان: العرب والهنود»[2].

ب- ويقول الأستاذ فيرث: «إنَّ علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما: السنسكريتية والعربية»[3].

والعرب مقدمون على الهنود في النص الأول، لأنَّهم أسبق، والسنسكريتية في النص الثاني لغة بائدة آثارية، والعربية خالدة.

ومن أمثلة سبق العرب في الدراسات الصوتيَّة:

١- لقد أهتم علماء الأصوات الغربيّون المحدثون بوصف الجهاز الصوتي، وبيان وظيفته في تفصيل دقيق استعانوا على تحقيقه بعلم الصوت العضويِّ،

---

(١) سر صناعة الاعراب، مقدمة التحقيق: ١٩.

(٢) التطور النحوي، براجشتراسر: ٥٧.

(٣) ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر: ١٠١.

فأعطوا ثمرات جيدة ومفيدة، ولكنها لا تختلف إلا قليلاً عن معطيات قدماء العرب، ولقد اقتصر العالم اللغوي دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣م) أبرز لغوي أوروبي في العصر الحديث، اقتصر في وصفه لجهاز الصوت على تجويف الأنف، وتجويف الفم، والحنجرة بما في ذلك فتحة لسان المزمار الواقعة بين الوترين الصوتيين، وكانت المفردات التي أخضعها للدراسة عبارة عن الشفتين، واللسان، والأسنان العليا، والحنك، واللهاة.

منتهياً إلى أنَّ العناصر التي تسهم في إخراج الأصوات هي: الهواء إلى الخارج، والنطق في الفم، وتذبذب في منطقة الحنجرة، والرنين الأنفي[1].

إذن: اندفاع الهواء من الرئتين والنطق في الفم والتّصويت في الحنجرة والرنين في الأنف يحدث الأصوات.

بهذا أعطى دي سوسير تفصيلاً مكثفاً لإحداث الأصوات وتوليدها من أجهزتها، ولكن هذا التفصيل لم يكن ليتأتى له لولا تطور الدراسات الصوتية عضويّاً وفيزيائياً وتشريحياً، أما الخليل فقد اهتدى لذلك فطرياً على وجه العموم، واكتشف ولأول مرة كل التفصيلات الصحيحة لجهاز النطق وإحداث الصوت بذهنيته الوقادة دون الاستعانة بأي علم يتسع لمثل إبداعاته الصوتية في بيئته البدوية.

ولم يكن فهم الخليل لأبعاد إحداث الأصوات بمنأى عن الفهم عند دي سوسور، بل لقد زاد عليه، كما مرَّ في كثير من الخصائص والمزايا التي قد تعدَّ أولية في مدرسة الخليل الصوتية- تنم عن إدراك متكامل للموضوع، وتمرس عميق في قضايا صوتية معقدة.

---

(١) ينظر: علم اللغة العام، دي سوسير: ٦٠.

٢- يقول دي سوسير: «إنَّ المادة الصوتية ليست أكثر ثبوتاً، ولا أشد تحديداً من الفكر: وهي ليست قالباً يصب فيه الفكر بالضرورة، بل هي مادة مرنة تنقسم في كل حالة إلى أجزاء متميزة لتوفر الدوالّ التي يحتاج إليها الفكر. وبذلك يمكن أن نتصور الحقيقة اللغوية في مجملها على أنَّها سلسلة من التقسيمات المتجاورة التي حددت على مستويين المستوى غير المحدد للأفكار المكدسة، ومستوى الأصوات، إنَّ الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت، في ظروف تؤدي بالضرورة إلى التمييز المتبادل لوحدات الفكر والصوت»[1].

إنَّ هذا المنحنى من التخطيط الصوتي هو الذي يرمي اليه الخليل في مقدمة العين ليخلص إلى صلة التفاعل الحقيقي بين الأفكار والأصوات، بل إنه يحصر ما في كتاب العين من لغة وتصريف واشتقاق بمنطق تذوقه لأصوات حروف المعجم «فإذا سئلت عن كلمة وأردت أن تعرف موضعها، فانظر إلى حروف الكلمة، فمهما وجدت منها واحداً في الكتاب المقدم (يعني مقدمة العين) فهو ذلك الكتاب "العين"[2]، فهو يرى أنَّ اللغة امتداد طبيعي للأصوات أولاً فيربطها بها ارتباط الأصل بالفرع، ونعني بذلك ربط الأصوات أصلاً، باللغة باعتبارها متفرعة عن الأصوات.

٣- من أهم ما توصل إليه الخليل في علم الصوت حصره للمعجم العربي بأبعاد صوتية فضلاً عن وصف الأصوات منفردة ومجتمعة منضمّة إلى

---

(١) علم اللّغة العام، دي سوسير: ١٣١ وما بعدها.

(٢) العين: ٥٢/١.

سواها بوضعه حداً جديداً، ومعياراً فنياً متوازناً، للكلمات العربية باشتمالها على الحروف الذلقة والشفوية؛ وللكلمات الأعجمية التي لا تشتمل على واحد من حروف الذلاقة والشفة، هذا المقياس الفني الصوتي لدى الخليل لم يخطئ ولا مرة واحدة حتى في كلمة واحدة، فيما له من مقياس ما أكلمه، يقول الخليل: «فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أنَّ تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب، لأنَّك لست واجداً من يسمع من كلام العرب بكلمة واحدة رباعية أو خماسية إلاّ وفيها من حروف الذلق أو الشفوية واحد أو اثنان أو أكثر»(١)، فهو هنا وبحِسٍ صوتي جامع مانع: يدرأ الدخيل والمعرّب والمولّد والمحدث والمبتدع عن لغة العرب، وتلك ميزة ما بعدها ميزة في هذا الخضم المتلاطم من الكلمات واللغات.

فكان الخليل ضليعاً بكل تفصيلات الجهاز الصوتي عند الإنسان، ولا يضيره -إن صح ما يقال: أن لا يذكر الوترين الصوتيين، لأنه ليس عالماً بالتشريح، ولا متخصصاً بجراحة الحنجرة، وما اضطلع بمهمة طبية قط، وما ذكره من أجزاء هذا الجهاز فيه الكفاية لعصره إن لم نقل للعصور كافة، لأنه قد تضمن بكثير من الأبعاد الإشارة لهذه المباحث التي تفرغ لها الغربيُّون.

٤- أمّا ابن جني فقد حدَّد مخارج الحروف بستة عشر مخرجاً، ناظراً إلى موقعها في أجهزة النطق، ومنطلقاً معها في صوتيتها، ويسير ذلك بكل

---

(١) ينظر: العين: ١/٤٩-٥٠.

ضبط ودقة وأناقة، فيقول: واعلم أنَّ مخارج هذه الحروف ستة عشر، ثمَّ يأتي على ذكرها واحدا واحدا بالتفصيل[1]، فيقدِّمها بدقة متناهية، ممَّا جعل تأصيله هذا أساساً لما تواضع عليه الأوربيون باسم "التشكيل الصوتي" أو هو "النظام الصوتي" في تسمية دي سوسير له[2].

الخلاصة:

هذه النظرية الصوتية عند العرب عبارة عما توصل إليه العرب من خلال تمرسهم وتجاربهم بنظريات نحوية وصرفية وبيانية وصوتية وإيقاعية وتشريحية شكلت بمجموعها «نظرية الصوت» وهي في تصور تخطيطي تشمل المنظور الآتي:

١- النظرية العربية في الأبجدية الصوتية على أساس المخارج والمدارج والمقاطع كما عند الخليل وسيبويه والفرّاء.

٢- النظرية العربية في أجهزة النطق وأعضائه، وتشبيهه بالناي تارة، وبالعود في جسّ أوتاره تارة أخرى كما عند ابن جنِّيٍّ.

٣- النظرية العربية في ربط الإعلال والإبدال، والترخيم والتنغيم، والمدّ والإشمام بعميلة حدوث الأصوات وإحداثها.

٤- النظرية العربية في التلاؤم بين الحروف وأثره في سلامة الأصوات، والتنافر فيها وأثره في تنافر الأصوات.

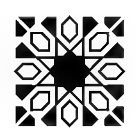
٥- النظرية العربية في أصول الأداء القرآني، وعروض الشعر وإيقاع التلاؤم الصوتيِّ، وعلاقة ذلك بالأصوات.

(١) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٦٠-٦١.

(٢) ينظر: علم اللغة العام، دي سوسير.

٦- النظرية العربية في التوصل إلى معالجة التعقيدات النحوية، والمسوغات الصرفية في ضوء علم الأصوات.

هذا العرض الإشاري لنظرية الصوت اللغوي، يكفي عادة للتدليل على أصالة النظرية عند العرب، دون حاجة إلى استجداء المصطلحات الأجنبية، أو استحسان الجنوح إلى الموارد الأوروبية، فبحوث العرب في هذا المجال متوافرة، وقد يقال: إنَّ التنظيم يعوزها، وأنها تفتقر إلى الترتيب الحديث، للإجابة عن هذه المغالطة نضع بين أيدي الباحثين المنصفين: الفصل الثاني من هذا الكتاب بين يدي الموضوع، والذي نطمح أن يكون مقنعاً بأمانة وإخلاص في إثبات تنظيم البحث الصوتي، وسلامة مسيرة الصوت اللغوي، وموضوعية العرض دون تزيد أو ابتسار في علم الأصوات وعالمها، كما أنَّ خلاصة تجارب الغربيِّين في المصطلح الصوتي كانت نتيجة حرفيَّة لمدلولات النظرية الصوتية عند العرب في نتائج ما توصل إليه علماؤهم الأعلام.



الفصل الثاني

ماهيَّة علم الصوت

ومخارج الصوت اللغويِّ وخصائصه وصفاته وتطوُّره

- **المبحث الأوَّل**: ماهيَّة علم الصوت:

المطلب الأوَّل: مصدر الصوت وكيفيَّة حدوثه:

المطلب الثاني: العمليَّة السمعيَّة:

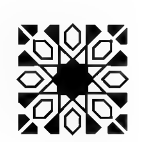
- **المبحث الثاني**: مخارج الصوت اللغويِّ وخصائصه وصفاته وتطوُّره:

المطلب الأوَّل: مخارج الأصوات وألقابها وخصائصها:

المطلب الثاني: صفات الأصوات العربيَّة وتطوُّر الصوت اللغويِّ:

توطئة:

لَّما كانت اللغة «أصوات يعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم»[(١)]، فهي تبقى متعلِّقة باللسان الإنسانيِّ والصوت الذي ينتجه، الأمر الذي يتطلَّب منَّا أن نظلَّ دائما على ذكر بتعريفنا إنّ جهاز النطق الإنسانيّ "اللسان يُعدُّ أهم عضو من أعضائه" قادر على إنتاج أصوات وأنواع من الضجيج تبعد عن اللغة بقدر ما تبعد عنها أصوات آلة متحركة، وليكون الصوت لغويّاً -بالمعنى العام- فإنَّ ما ينتجه الجهاز الصوتيّ من أصوات يجب أن تكون ذات معنى، وتنقل رسالة محدَّدة معيَّنة من عقل إنسان إلى آخر. وربَّما ذهب المرء بشروطه أبعد من هذا وقال إنه لا بد في مثل هذه الأصوات أن تكون من النوع الذي يمكن كذلك أن يغطي المواقف غير الفورية، إن نباح كلب ربما حذرك من خطر محدق عاجل، ولكن حينما أستعمل الكلام في إصدار تحذير من خطر يترقبك خلف تل أو ينتظرك في الغد فإني أستعمل اللغة الإنسانية في مجالها الواسع العريض، وأميزها عن مجرد الضجيج الذي يصدر عن حيوان كرد فعل لمثير مباشر[(٢)].



(١) الخصائص: ١/٣٤.

(٢) ينظر: أسس علم اللغة، ماريوباي: ٣٨.

المبحث الأوَّل

ماهيَّة علم الصوت

المطلب الأوَّل: مصدر الصوت وكيفيَّة حدوثه:

❖ **أوّلاً: مصدر الصوت:**

لا بدَّ للصوت من مصدر له، يكون شيئا يتعلَّق به أو جسماً يقوم به، وهذا يكون مصدراً للصوت، فالاهتزازات التي تصدر عنها الذبذبات الصوتيَّة يمكن أنْ تحدث إمَّا عند التقاء الشيئين، أو عند ابتعادهما، فيصدر الاهتزاز من التقاء الشيئين مثلا عند إغلاق الباب وصدر من ابتعاد الشيئين مثلا عند فتح الباب، وقد تناول كثيرون هذه المسألة، ولمَّا كان الصوت: «الصوت عرض لا ثبات له»(١)، فقد تناول ابن سينا مسألة حدوث الصوت في رسالته "أسباب حدوث الحروف"، وفي كتابه "الشفاء" في فصل السمع. وقد انتهى إلى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هي:

١- وجود جسم في حالة تذبذب. ويكون التذبذب بوجود قرع أو قلع أما القرع فمثل ما تقرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت. وأما القلع فمثل ما قلع أحد شقي مشقوق عن الآخر، كخشبة تنحى عليها بأن تبين أحد شقيها عن الآخر طولاً. واشترط لإحداث القرع أو القلع صوتاً أن يكون كل منهما بقوة معينة فإن قرعت جسماً كالصوف بقرع لين جدّاً لم تحسن صوتاً. بل يجب أن يكون للجسم الذي تقرعه مقاومة ما، وأن يكون للحركة التي للمقروع به إلى المقروع عنف صادم، وكذلك إذا شققت شيئاً يسيراً وكان الشيء لا صلابة له لم يكن للقلع صوت البتَّة(٢).

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٧.

(٢) الشفاء: ٨٢. وينظر: أسباب حدوث الحروف. الفصل الأول.

٢- وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب. أوضح ذلك بقوله: «أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان»، وقوله: «وهذا الشيء الذي فيه هذه الحركات شيء رطب سيال لا محالة، إما ماء، وإما هواء، فيكون مع كل قرع وقلع حركة للهواء أو ما يجري مجراه، إما قليلاً برفق، وإما دفعة على سبيل تموج أو انجذاب بقوة. فقد وجب أن ها هنا شيئاً لا بد أن يكون موجوداً عند حدوث الصوت، وهو حركة قوية من الهواء، أو ما يجري مجراه»(1).

٣- وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات. أوضح ذلك بقوله: «فإذا انتهى التموج من الهواء أو الماء إلى الصماخ، وهناك تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهي إليه، ووراءه، كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت أحس بالصوت»(2)، وقوله: «ثم ذلك الموج يتأدَّى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموِّجه فيحسُّ به العصبة المفروشة في سطحه»(3).

وهذا الذي انتهى إليه ابن سينا هو ما انتهى إليه المحدثون من علماء الصوت نفسه.

وذكر الراغب (ت: ٥٠٢هـ) ملخصاً ما تقدَّمه من المصادر في بيان مصدر الصوت، فذكر أنَّ الصوت ضربان:

صوت مجرد عن تنفس بشيء كالصوت الممتد، وتنفس بصوت ما. والمتنفس نوعان: غير اختياري كما يكون من الجمادات والحيوانات. ونوع اختياري كما يكون من الإنسان، وهو ضربان:

---

(١) الشفاء: ٨٢. وينظر: أسباب حدوث الحروف. الفصل الأول.

(٢) الشفاء: ٨٤.

(٣) ينظر: أسباب حدوث الحروف. الفصل الأول.

١- ضرب باليد كصوت العود وما يجري مجراه.

٢- ضرب بالفم في نطق وغير نطق.

فالمنطوق منه: إما مفرد من الكلام، وإما مركب كأحد الأنواع من الكلام. وغير النطق: كصوت الناي[١].

وما ظهر لنا أنَّ هذا أهمُّ ما اشتهر بين الدارسين في مسألة مصدر الصوت، لكنَّنا وجدنا أنَّهم ذكروا جانبا من مصدر الصوت، وأغفلوا الجانب الآخر، كما أسهب بعضهم من غير زيادة على من اختصر، فوقفنا على كلام نفيس لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله قد بيَّن فيه حقيقة مصدر الصوت، وأجاد أيَّما إجادة فقال رحمه الله في: الصوت لا يولّده شيء واحد بل لا بد من شيئين، أو جسمين يقرع أحدهما الآخر، أو يقلع عنه، وهذان أصلان للصوت الذي تولَّد عنهما، فَيَتَوَلَّدُ الصَّوْتُ الْمَوْجُودُ فِي أَجْسَامِ الْعَالَمِ عَنْ هذين الأَصْلَيْنِ[٢]، ومن هذا يتبيَّن أنَّ مصدر الصوت ليس جسمين يقرع أحدهما الآخر فقط، بل هذا جزء من مصدر الصوت، والجزء الآخر هو إقلاع جسم عن آخر.

وأَمَّا صوت "الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ" فَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ ((أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّعْدِ قَالَ: "مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مخاريق مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ". وَفِي مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ للخرائطي: عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّعْدِ فَقَالَ: «مَلَكٌ وَسُئِلَ عَنْ الْبَرْقِ فَقَالَ: مخاريق بِأَيْدِي

(١) ينظر: المفردات: ٢٨٨.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى: ١٣١/٤، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلاميَّة: ٢٠٤/٥-٢٠٥.

الْمَلائِكَة» -وَفِي رِوَايَة عَنْهُ- «مخاريق مِنْ حَدِيد بِيَده». فالْحَرَكَةُ تُوجِبُ الصَّوْتَ وَالْمَلائِكَةُ هِيَ الَّتِي تُحَرِّكُ السَّحَابَ وَتَنْقُلُهُ مِنْ مَكَانٍ إلَى مَكَانٍ وَكُلُّ حَرَكَة فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ فَهِيَ عَنْ الْمَلائِكَة وَصَوْتُ الإِنْسَانِ هُوَ عَنْ اصْطِكَاك أَجْرَامه الَّذِي هُوَ شَفَتَاهُ وَلِسَانُهُ وَأَسْنَانُهُ، وَلَهَاتُهُ وَحَلْقُهُ. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَكُونُ مُسَبِّحاً لِلرَّبِّ. وَآمِراً بِمَعْرُوفٍ وَنَاهِياً عَنْ مُنْكَرٍ(١).

وقد ثبت علمياً أن الصوت اهتزازات محسوسة في موجات الهواء، تنطلق من جهة الصوت، وتذبذب من مصانعه المصدّرة له، فتسبح في الفضاء حتى تتلاشى، يستقر الجزء الأكبر منها في السمع بحسب درجة تذبذبها، فتوحي بدلائلها، فرحاً أو حزناً، نهياً أو أمراً، خبراً أو إنشاء، صدى أو موسيقى، أو شيئاً عادياً مما يفسره التشابك العصبي في الدماغ، أو يترجمه الحس المتوافر في أجهزة المخ بكل دقائقها، ولعل في تعريف ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ) إشارة إلى جزء من هذا التعريف، من خلال ربطه الصوت بالتموج، واندفاعه بسرعة عند الانطلاق، فهو يقول: «الصوت تموج الهواء ودفعه بقوة وسرعة من أي سبب كان»(٢).

وبما أنَّ الصوت متولِّد عن الحركة فَلَيْسَ أَوَّلُ زَمَنِ الْحَرَكَةِ يَكُونُ أَوَّلَ زَمَنِ الصَّوْتِ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ الْحَرَكَةِ وَالصَّوْتُ يَعْقبُهَا، ووجود الصوت مشروط بوجود الحركة فالشرط يجب أن يتقدم المشروط، والحركة سبب لحدوث الصوت، والسبب يجب أن يتقدَّم على المسبَّب، وَلِهَذَا يُعْطَفُ الْمُسَبَّبُ عَلَى السَّبَبِ بِحَرْفِ الْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْقِيبِ، فَيُقَالُ: كَسَرْتُهُ

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى: ٢٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٢) أسباب حدوث الحروف: ٧.

فَانْكَسَرَ، وَقَطَعْتُهُ فَانْقَطَعَ، كما: يُقَالُ: ضَرَبْتُهُ بالسَّيْف فَمَاتَ، أَوْ فَقَتَلْتُهُ، وَأَكَلَ فَشَبَعَ، وَنَحْوُ ذَلكَ، فَالْكَسْرُ وَالْقَطْعُ فعْلٌ يَقُومُ بالْفَاعلِ مثْلُ أَنْ يَضْربَهُ بِيَده أَوْ بآلَة مَعَهُ، فَإذَا وَصَلَ إلَيْه الأَثَرُ انْكَسَرَ وَانْقَطَعَ، فَأَحَدُهُمَا يَعْقبُ الآخرَ لا يَكُونُ أَوَّلُ زَمَان هَذَا أَوَّلَ زَمَان هَذَا وَلا آخرُ زَمَان هَذَا آخرَ زَمَان هَذَا، بَلْ يَتَقَدَّمُ زَمَانُ السَّبَبِ، وَيَتَأَخَّرُ زَمَانُ الْمُسَبَّبِ(١).

وبهذا يكون علماء العربية قد سبقوا إلى دراسة الصوت فيزيائياً، وقياس سرعته ومساحته مَوْجيّاً كما مرَّ بنا في الفصل الأوَّل.

كلام الله تعالى(٢):

ممَّا توافرت فيه الأدلَّة أنَّ الله تبارك وتعالى متكلِّم يتكلَّم بما شاء متى شاء كيف شاء، وأنَّه جلَّ وعلا يتكلَّم بحرف وصوت، والصَّوْتُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ اللهُ

---

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: ٥/٢٠٥-٢٠٧، ومنهاج السنة النبوية: ١/٢٨٣-٢٨٤، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ١/٢١٧.

(٢) ذكرنا كلام الله هنا؛ لأنَّ الدراسات الصوتيَّة في التراث العربيِّ الإسلاميِّ قام جانب ليس بالقليل منها على الخلاف في إثبات صفة الكلام لله جلَّ وعلا، فذهب المعطِّلة من جهميَّة ومعتزلة إلى نفي صفة الكلام عن الله عزَّ وجلَّ، وذهب الأشاعرة إلى اثبات الكلام ونفوا في الوقت نفسه مضمونه، أي: اسم من غير مسمَّى فنفوا أن يكون كلام الله سبحانه وتعالى كلاما، بل زعموا أنَّه مجرَّد إرادة فوافقوا المعتزلة من جانب وخالفوهم من جانب، والحقُّ هو إثبات ما أثبته الله لنفسه من أسماء وصفات من غير تعطيل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تكييف، كما كان يثبته السلف الصالح ﵃. فهو كلام يليق بالله تعالى ولا يشبه كلام المخلوقين. وبما أنَّنا ندرس الدلالة الصوتيَّة في القرآن الكريم أحببنا أن نبيِّن هذه المسألة الاعتقاديَّة والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل. إ. هـ. المؤلِّفان.

جلَّ وعلا به لا مثْلَ لَهُ، فلَا يُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَكَلَامُ اللهِ هُوَ كَلَامُهُ بِنَظْمِهِ وَنَثْرِهِ وَمَعَانِيهِ. وَذَلِكَ الْكَلامُ لَيْسَ مِثْلَ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ. فَإِذَا قُلْنَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]، وَقُصِدَ بِذَلِكَ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ فَذَلِكَ الْقُرْآنُ تَكَلَّمَ اللهُ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ لا يُمَاثِلُ لَفْظَ الْمَخْلُوقِينَ وَمَعْنَاهُمْ، وَأَمَّا إِذَا قَصَدْنَا بِهِ الذِّكْرَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ أَنْ نَقْصِدَ قِرَاءَةَ كَلامِ اللهِ فَإِنَّمَا نَقْصِدُ ذِكْراً نُنْشِئُهُ نَحْنُ يَقُومُ مَعْنَاهُ بِقُلُوبِنَا وَنَنْطِقُ بِلَفْظِهِ بِأَلْسِنَتِنَا وَمَا أَنْشَأْنَاهُ مِنَ الذِّكْرِ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَ نَظِيرُهُ فِي الْقُرْآنِ العظيم[2].

❖ ثانياً: حدوث الصوت:

إنَّ حدوث الصوت الإنسانيِّ يكون نتيجة للذبذبات التي تصدر من الحنجرة، وذلك يبدأ باندفاع الهواء أو النَّفَسْ من الرئتين ثم يمر بالحنجرة التي فيها وتران صوتيان فالتقاء هذان الوتران الصوتيان يحدث الاهتزازات التي تخرج من الفم أو الأنف، ثم تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل الموجات الصوتية مبتعدة عن الجسم المهتزِّ حتَّى تصل إلى أذني السامع، يوضِّح ذلك عالم الصوت واللغة ابن جنِّيّ بقوله: «اعلم أنَّ الصوت عرض يخرج من النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك؛ ألا ترَى أنَّك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثمَّ تبلغ به أيَّ المقاطع شئت، فتجد له جرساً ما، فإنِ انتقلت عنه راجعاً منه، أو متجاوزاً له، ثمَّ

---

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى: ١٢/٧٧، ومجموعة الرسائل والمسائل: ٣/٦٢.

قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول وذلك نحو الكاف، فإنَّك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإنْ رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإنْ جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين»[1].

ثمَّ يوضِّح ابن جني عمل جهاز الصوت الإنسانيِّ، وسماعنا تلك الأصوات المختلفة، وذلك عند ذائقته للحرف العربي، ووجدانه الاختلاف في أجراسه، والتباين في أصدائه فشبه الحلق بالمزمار، ووصف مخارج الحروف ومدارجها بفتحات هذا المزمار، وتتوجه عنايه بمجرى الهواء في الفم عند إحداث الأصوات، ويشبهه بمراوحة الزامر أنامله على خروق الناي لسماع الأصوات المتنوعة والمتشعبة بحسب تغييره لوضع أنامله لدى فتحات المزمار، «فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكلٍّ خرق منها صوتٌ لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة»[2].

وكذلك تعقيبه على هذا التمثيل في إحداث الصوت بالنسبة لأوضاع أجهزة الصوت، بتشبيهه ذلك بوتر العود، وكيفيَّة ضربه ببعض أصابع اليسرى أو جسَّه في اليمنى مما يحدث أصواتاً مختلفة عند تلقي الأذن لذلك فتتذوق من خلال ذلك جوهر الصوت، كما تتذوَّقه في أصوات الحروف تبعاً للرقة والصلابة في الوتر، وكذلك الحال بالنسبة للوترين الصوتيين في جهاز النطق الصوتي عند الإنسان، يقول: «ونظير ذلك أيضاً وتر العود، فإن الضارب إذا

---

(١) سر صناعة الإعراب: ١/١٩.

(٢) سر صناعة الإعراب: ١/٢١-٢٢.

ضربه وهو مرسل، سمعت له صوتا، فإنْ حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا، سمعت غير الاثنين، ثمَّ كذلك كلَّما أدنى أصبعه من أوَّل الوتر تشكَّلت لك أصداء مختلفة، إلا أنَّ الصوت الذي يؤدِّيه الوتر غفلا غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أدَّاه وهو مضغوط محصور، أملس مهتزّاً، ويختلف ذلك بقدر قوَّة الوتر وصلابته، وضعفه ورخاوته، فالوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضراب عليه كأوَّل الصوت من أقصى الحلق، وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا»[1].

وفيما تقدَّم ضرب أمثلة مشابهة للجهاز الصوتيِّ الإنسانيِّ، وأمَّا ماهيَّة هذا الجهاز وحقيقة عمله فهو محلُّ العجائب، فالفم باب الطعام والشراب، والنفس والكلام ومسكن اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم وترجمان القلب ورسوله المؤدي عنه، ولما كان القلب ملك البدن ومعدناً للحرارة الغريزيَّة فإذا استنشق الهواء البارد وصل إلى القلب فاعتدلت حرارته وبقي هنالك مدَّة فلما سخن واحترق واحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك واللسان والشفتين والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهمَ العبدَ تركيب تلك الحروف ليؤدي بها عن القلب ما يأمر به فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضيِّعْ أحكم الحاكمين ذلك النَّفَس المستغنى عنه المحتاج إلى دفعه وإخراجه بغير فائدة، بل جعل إخراجه سبباً لحدوث منفعة

(١) سر صناعة الاعراب: ١/٢٢.

ومصلحة هي من أكمل المنافع والمصالح فإنَّ المقصود الأصلي من النَّفَس هو اتصال الريح البارد إلى القلب فأمَّا إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ومنفعة أخرى، وجعله سبباً للأصوات والحروف والكلام، ثمَّ جعل سبحانه في الحنجرة واللسان والحنك باختلافهما الصوت فيحدث الحرف ثمَّ يركِّب ذلك الحرف إلى مثله ونظيره فيحدث الكلمة، ثمَّ يركِّب تلك الكلمة إلى مثلها فيحدث الكلام، فتأمَّل هذه الحكمة الباهرة في إيصال النفس إلى القلب لحفظ حياته، ثمَّ عند الحاجة إلى إخراجه والاستغناء عنه جعله سبباً لهذه المنفعة العظيمة، فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسن الخالقين، فميَّز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر[1].

فصوت الإنسان القائم ببدنه لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تحريك عضوين فصاعداً من أعضاء الإنسان، ولا يكون الصوت بحركة عضو واحد البتَّة فالحركتان جميعاً هنا سبب الصوت والإنسان وإن كان المحرِّكَ لأعضائه، وهذا ليس من إيجاد الإنسان نفسه، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي منحه كلَّ ذلك، وامتنَّ عليه بأن علَّمه البيان، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[2].

ويمكننا القول مطمئنِّين: إنَّ هذا التفصيل الذي قدَّمه علماء العربيَّة من تفصيل تمثيلي دقيق لجهاز الصوت الإنسانيِّ وأثر انطلاق الهواء مضغوطاً وغير مضغوط في إحداث الأصوات مختلفة بحسب إرادة الناطق أو المصوِّت: هو ما تبناه علم الصوت الفيزيائيّ في الحديث عن الجهاز التنفسي الذي يقدم

---

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٩-٣١٠، ٤١١-٤١٢.

(٢) سورة الرحمن: ١-٤.

الهواء المناسب لتكييف حدوث الأصوات، وعن الحنجرة باعتبارها مفجرة الطاقة الصوتية، وعن التجاويف فوق المزمارية التي تقوم بعزف الرنين في إنتاج غالبيَّة الضوضاء المستعملة في الكلام، وعن دور التنفس في مرحلتي الشهيق والزفير في اتساع القفص الصدري لدى الشهيق، فيدعو الهواء الخارجي بسبب هبوط الحجاب الحاجز، وارتفاع الأضلاع إلى الدخول من فتحتي الأنف، أو الفم عبر القصبة الهوائية إلى الرئتين، فتنتج أصواتاً استثنائية مسموعة عند الأطفال، أو في حالتي النشيج والضحك، وأمَّا الزفير فيتشمل على ارتفاع الحجاب الحاجز، وهبوط الأضلاع، ونتيجة لهذا يندفع الهواء بكمية كبيرة من الرئتين، هذا الهواء المندفع بالزفير هو الذي يستعمل في التصويت[1].

المطلب الثاني: العمليَّة السمعيَّة:

❖ عناصر الصوت:

لقد أهتمَّ الدرس الصوتيّ الحديث بوصف الجهاز الصوتيّ، وبيان وظيفته في تفصيل دقيق استعانوا على تحقيقه بعلم الصوت النفسيّ، فأعطوا ثمرات جيدة ومفيدة، ولكنها لا تختلف إلا قليلاً عن معطيات العلماء العرب، ولقد اقتصر العالم اللغوي دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣م) أبرز لغويٍّ أوروبيٍّ في العصر الحديث، اقتصر في وصفه لجهاز الصوت على تجويف الأنف، وتجويف الفم، والحنجرة بما في ذلك فتحة لسان المزمار الواقعة بين الوترين الصوتيين، وكانت المفردات التي أخضعها للدراسة عبارة عن الشفتين، واللسان، والأسنان العليا، والحنك، واللهاة.

يقول دي سوسور: إن فتحة لسان المزمار تتألف من عضلتين موازيتين،

---

(١) ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرغ: ٤٣.

أو حبلين صوتيين، تفتح كلما ابتعدت العضلتان، بعضهما عن بعض، وتغلق عندما تقتربان، وعندما تتسع الفتحة تسمح بدخول الهواء بحرية كاملة فلا يحدث أي تذبذب في الوترين الصوتيين. في حين يحدث مثل هذا التذبذب "الصوت" عندما تكون الفتحة ضيّقة، وليس ثَمَّت بديل لهذه العمليَّة في إخراج الأصوات عادة.

إنَّ التجويف الأنفيَّ عضو غير متحرك، ولا يمكن إيقاف تدفُّق الهواء فيه إلا برفع اللهاة، فهو عبارة عن باب مفتوح أحياناً.

أمَّا تجويف الفم فالاحتمالات التي يوفرها أكثر: إذ يمكن استعمال الشفتين لزيادة طول القناة -تجويف الفم- كما يمكن دفع الفكين إلى الخارج أو تقليصهما نحو الداخل، وللشفتين واللسان حركات كثيرة مختلفة يمكن استعمالها، ويتناسب دور هذه الأعضاء في إخراج الأصوات تناسباً طردياً مع مرونة حركتها، فالحنجرة والتجويف الأنفيّ ثابتان، لهما وظيفة ثابتة..

ويستطيع المرء أن يخرج صوتاً حنجرياً بشدِّ الوترين الصوتيَّين، ولكن الحنجرة لا تستطيع أن تخرج أصواتاً متنوعة... أمَّا القناة الأنفيَّة فليس لها من وظيفة في النطق سوى إحداث رنين للذبذبات الصوتيَّة... وعلى العكس من ذلك يسهم تجويف الفم في إخراج الأصوات وإحداث الرنين.

وخلاصة ما تقدَّم: أنَّ العناصر التي تسهم في إخراج الأصوات هي:

١- الهواء إلى الخارج.

٢- النطق في الفم.

٣- تذبذب في منطقة الحنجرة .

٤- الرنين الأنفي[1].

إذن: اندفاع الهواء من الرئتين ثمَّ التّصويت في الحنجرة يليه النطق في الفم والرنين في الأنف ينتج عن ذلك كلِّه الصوت.

وبهذا يكون الدرس الصوتيّ الحديث قد أعطى تفصيلاً لعناصر الصوت وتوليدها من أجهزتها، وما قدَّمه من تفصيلات مكثَّفة ودقيقة تعود للتطوُّر العلمي الحاصل بالتشريح الطبِّيّ وأجهزة التقنيَّة الصوتيَّة.

❖ الوسط الناقل للصوت:

إنَّ الصوت بكلِّ تفصيلاته ومتعلَّقاته، آية من آيات الله تبارك وتعالى لمن تفكَّر بها، وتأمَّل حقيقتها فالصَّوْت أثر يحدث عِنْد اصطكاك الاجرام وَلَيْسَ نفس الاصطكاك كَمَا قَالَ ذَلِك من قَالَه وَلكنه مُوجب الاصطكاك وقرع الْجِسْم للجسم اَوْ قلعة عَنهُ فسببه قرع أَوْ قلع فَيحدث الصَّوْت فيحمله الْهَوَاء ويؤديه الى مَا مَعَ النَّاس فينتفعون بِهِ فِي حوائجهم ومعاملاتهم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار وتحدث الأصوات الْعَظِيمَة من حركاتهم فَلَو كَانَ أثر هَذِه الحركات والأصوات يبْقى فِي الْهَوَاء كَمَا يبْقى الْكتاب فِي القرطاس لامتلأ الْعَالم مِنْهُ ولعظم الضَّرَر بِهِ واشتدت مُؤْنَته وَاحْتَاجَ النَّاس إلى محوه من الْهَوَاء والاستبدال بِهِ اعظم من حَاجتهم إلى استبدال الْكتاب المملوء كِتَابَة فإن مَا يلقى من الْكَلَام فِي الْهَوَاء أضعاف مَا يوضع فِي القرطاس فاقتضت حِكْمَة الْعَزِيز الْحَكِيم أن جعل هَذَا الْهَوَاء قرطاساً خفياً يحمل الْكَلَام بِقدر مَا يبلغ الْحَاجة ثمَّ يمحي بإذن ربه فَيَعُود جَدِيداً نقياً لا شَيْء فِيهِ فَيحمل مَا حمل كل وَقت[2].

---

(١) ينظر: علم اللغة العام، دي سوسير: ٦٠.

(٢) ينظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ٢١٧/١.

على رغم من أنَّ الذبذبات الصوتيَّة لا يمكن إدراكها بصريّاً إلا أنَّها يمكن إدراكها سمعيّاً وذلك من خلال الوسائل فما نسمعه من الأصوات لا يكون بطريقة واحدة، أو يصلنا في وسط واحد، كما أنَّ ما تسمعه بعض المخلوقات الأخرى يختلف وسطه عمَّا نسمعه، فالحيوانات البحرية على سبيل المثال يمكن أن تتواصل بينها لأنَّ الذبذبات الصوتيَّة تنتقل بوساطة الماء - الوسط السائل- وكذلك سماعنا أنواع الأصوات عن بعد فذلك يحدث لأنَّ الذبذبات الصوتيَّة تنتقل بوساطة الهواء -الوسط الغازي- أو الاتصال بيننا هاتفياً الذي يحدث لأن الذبذبات الصوتية يمكن أن تنتقل من خلال السلك - الوسط الصلبي-.

❖ **جهاز الاستقبال والعمليَّة السمعيَّة:**

إنَّ الجهاز السمعيَّ لدى الإنسان المتمثِّل بالأذنين وما يليها، فالصنع العجيب لهما بشقِّهما وخلقهما وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عوناً على إدراك السمع وجعلهما مُرَّة لتمتنع الهوامُّ عن الدخول في الأذن وحوَّطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤدِّيانه إلى الصماخ وجعل في الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتنكسر حدَّة الصوت ولا تلج الهوام دفعة، بل تكثر حركاها فينتبه لها فيخرجها فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلقه وعن جانبيه فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور فسبحان من بهرت حكمته العقول ولم يجعل لهما غطاء كالَّذي للعينين؛ لأن مدرك الأذن الأصواتُ ولا بقاء لها فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فزالت المنفعة[1].

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن: ٤٠٩.

ومِمَّا يتعلَّق بالسمع أنَّه يراد به ثلاثة أمور:

الأوَّل: إدراك الصوت.

الثاني: معرفة المعنى مع إدراك الصوت.

الثالث: القبول والاستجابة مع الفهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[1]، ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثمَّ ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، فذمَّهم بأنَّهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به[2].

ومِمَّا يتَّصف به الجهاز السمعيُّ قابليَّته لإدراك الأصوات بمعدَّلات معيَّنة للتردُّد والتوتُّر لها حدٌّ أدنى وحدٌّ أعلى، وأن ينتبه إلى أنَّ زيادة شدَّة الصوت عن مقدار معيَّن تسبِّب الأذى والإزعاج للسامع، وقد ذكر ذلك ابن سينا فقال: «القرع الشديد يحدث صوتاً يضر السمع» وقال: «التموج الفاعل للصوت قد يحسُّ حتَّى يؤلم»[3]، فخلقَ الأُذنَ أحسنَ خلقةٍ وأبلغها فِي حُصُول الْمَقْصُود مِنْهَا فَجَعلهَا مجوفة كالصدفة لِتجمع الصَّوْت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بدبيب الْحَيَوَان فِيهَا فيبادر الى إخراجه وَجعل فِيهَا غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الْهَوَاء وَالصَّوْت الدَّاخِل فتكسر حدته ثمَّ تُؤَدِّيه الى الصماخ وَمن حِكْمَة ذَلِك أن يطول بِهِ الطَّرِيق على الْحَيَوَان فَلا يصل الى الصماخ حَتَّى يَسْتَيْقِظ أَوْ ينتبه لإمساكه وَفِيه أيضاً حكم غير ذَلِك ثمَّ اقْتَضَت حِكْمَة الرب الْخَالِق سُبْحَانَهُ أن جعل مَاء الأُذن مُرّاً فِي غَايَة المرارة فَلا

---

(١) سورة الأنفال: ٢٣.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ١٠٢.

(٣) الشفاء: ٨٣-٨٤.

يُجَاوِزهُ الْحَيَوَان وَلا يقطعهُ دَاخِلاً إلى بَاطِن الاذن بل إِذا وصل اليه أعْمَلْ الْحِيلَة فِي رُجُوعه[1].

❖ الحكم الربَّانيَّة في الصوت الإنسانيِّ:

في حدوث الصوت من الحكم والمآرب وَالمَنَافِع سوى مَنْفَعَة الْكَلام الشيء الكثير الذي تذهل النفوس عند التفكُّر به، فَفِي الحنجرة مَسْلَك النسيم الْبَارِد الَّذِي يروح على الْفُؤَاد بِهَذَا النَّفس الدَّائِم المتتابع وَفِي اللِّسَان مَنْفَعَة الذَّوْق فتذاق بِهِ الطعوم وتدرك لذهّا ويميز بهَا بَينهَا فَيعرف حَقِيقَة كل وَاحِد مِنْهَا وَفِيه مَعَ ذَلِك مَعُونَة على إساغة الطَّعَام وان يلوكه ويقلبه حَتَّى يسهل مسلكه فِي الْحلق وَفِي الاسنان من الْمَنَافِع مَا هُوَ مَعْلُوم من تقطيع الطَّعَام وفيهَا إِسْنَاد الشفتين وإمساكهما[2].

فهو آية من آيات الله تبارك وتعالى لمن تفكَّر بها، وتأمَّل حقيقتها، فالصَّوْت الْخَارِج من الْحلق وتهيئة آلاته، وَالْكَلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تَجِد الْحِكْمَة الباهرة فِي هَوَاء ساذج يخرج من الْجوف فيسلك فِي أنبوبة الحنجرة حَتَّى يَنْتَهِي الى الْحلق وَاللِّسَان والشفتين والأسنان فَيحدث لَهُ هُنَاكَ مقاطع ونهايات وأجراس يسمع لَهُ عِنْد كل مقطع، وَنِهَايَة جرس مُبين مُنْفَصِل عَن الآخر يحدث بِسَبَبِهِ الْحَرْف فَهُوَ صَوت وَاحِد ساذج يجرى فِي قَصَبَة وَاحِدَة حَتَّى يَنْتَهِي الى مقاطع وحدود تسمع لَهُ مِنْهَا تِسْعَة وَعشْرين حرفا يَدُور عَلَيْهَا الْكَلام كُله امْرَهْ وَنَهْيه وَخَبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله فَمِنْهُ المضحك وَمِنْه المبكي، وَمِنْه

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ١/١٩٠.

(٢) ينظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ١/٢٦٩.

المُؤيس، وَمِنْه المُطمع، وَمِنْه الْمخوف، وَمِنْه المرجي، والمسلى، والمحزن، والقابض للنَّفس والجوارح، والمنشط لَهَا، وَالَّذي يسقم الصَّحِيح وَيُبرئ السقيم وَمِنْه مَا يزيل النعم وَيحل النقم وَمِنْه مَا يُستدفع بِهِ الْبلاء ويُستجلب بِهِ النعماء وتُستمال بِهِ الْقُلُوب ويُؤلف بِهِ بَين المتباغضين ويوالي بِهِ بَين المتعاديين وَمِنْه مَا هُوَ بضد ذَلِك وَمِنْه الْكَلِمَة الَّتِي لا يُلقى لَهَا صَاحبهَا بَالا يهوى بهَا فِي النَّار أبعد مَا بَين الْمشرق وَالْمغْرب، والكلمة الَّتِي لا يُلقي لَهَا بَالا صَاحبهَا يرْكض بهَا فِي أعلى عليين فِي جوَار رب الْعَالمين فسبحان من أنشأ ذَلِك كُله من هَوَاء ساذج يخرج من الصَّدْر لا يدْري مَا يُرَاد بِهِ وَلا أَيْن يَنْتَهِي وَلا أَيْن مستقرُّه، هَذَا إِلَى مَا فِي ذَلِك من اخْتِلاف الألسنة واللغات الَّتِي لا يحصيها إلا الله، فيجتمع الْجمع من النَّاس من بِلاد شَتَّى فيتكلم كل مِنْهُم بلغته، فَتسمع لُغَات مُخْتَلفَة كلاماً منتظماً مؤلفاً وَلا يدْري كل مِنْهُم مَا يَقُول الآخر وَاللِّسَان الَّذِي هُوَ جارحة وَاحِد فِي الشكل والمنظر وَكَذَلِكَ الْحلق والأضراس والشفتان، وَالْكَلام مُخْتَلف متفاوت أعظم تفَاوت فالآية فِي ذَلِك كالآية فِي الأرض الَّتِي تسقى بِمَاء وَاحِد وَتخرج مَعَ ذَلِك من أنواع النَّبَات والأزهار والحبوب وَالثِّمَار تِلْكَ الانواع الْمُخْتَلفَة المتباينة، وَلِهَذَا أخبر الله سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه أنَّ فِي كل مِنْهُمَا آيَات فَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[1]، وَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] الآية فَانْظُر الآن فِي

(١) سورة الروم: ٢٢.

(٢) سورة الرعد: ٤.

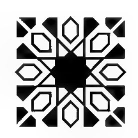
الحنجرة كَيفَ هِيَ كالأنبوب لخُرُوج الصَّوْت، وَاللِّسَان والشفتان والأسنان لصياغة الْحُرُوف والنغمات، ألا ترى أنَّ من سَقَطت أسنانه لم يُقِم الْحُرُوف الَّتِي تخرج مِنْهَا وَمن اللِّسَان وَمن سَقَطت شفته كَيفَ لم يقم الرَّاء وَاللَّام، وَمن عرضت لَهُ آفَة فِي حلقه كَيفَ لم يتَمَكَّن من الْحُرُوف الحلقيَّة وَقد شبَّه أصحاب التشريح مخرج الصَّوْت بالمزمار والرئة بالزقِّ الَّذِي ينْفخ فِيهِ من تَحْتَهُ ليدْخل الرّيح فِيهِ والفضلات الَّتِي تقبض على الرئة ليخرج الصَّوْت من الحنجرة بالأكفِّ الَّتِي تقبض على الزق حَتَّى يخرج الْهَوَاء فِي الْقصب والشفتين والأسنان الَّتِي تصوغ الصَّوْت حروفا ونغما بالأصابع الَّتِي تخْتَلف على المزمار فتصوغه ألحاناً والمقاطع الَّتِي يَنْتَهِي إليها الصَّوْت بالأبخاش الَّتِي فِي القصبة حَتَّى قيل إنَّ المزمار إِنَّمَا اتُّخذ على مِثَال ذَلِك من الإنسان فَإِذا تعجَّبت من الصِّنَاعَة الَّتِي تعملها أَكُفُّ النَّاس حَتَّى تخرج مِنْهَا تِلْكَ الأصوات فَمَا أحراك بطول التَّعَجُّب من الصِّنَاعَة الإلهية الَّتِي أخرجت تِلْكَ الْحُرُوف والأصوات من اللَّحْم وَالدَّم وَالْعُرُوق وَالْعِظَام ومَا أبعد المسافة بَينهمَا وَلَكِنَّ المألوف الْمُعْتَاد لا يَقع عِنْد النُّفُوس موقع التَّعَجُّب فَإِذا رَأَتْ مَالا نِسْبَة لَهُ إليه أصلاً إلا أَنَّه غَرِيب عِنْدهَا تَلَقَّتْهُ بالتعجب وتسبيح الربِّ تَعَالَى وَعِنْدهَا من آيَاته العجيبة الباهرة مَا هُوَ أعظم من ذَلِك مِمَّا لَا يُدْرِكهُ الْقيَاس ثمَّ تَأَمَّل اخْتِلاف هَذِه النغمات وتباين هَذه الأصوات مَعَ تشابه الْحَنَاجِر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان فَمن الَّذِي ميَّز بَينهَا أتمَّ تَمْيِيز مَعَ تشابه محالِّها سوى الخلاق الْعَلِيم(١).

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ١/٢٦٨-٢٦٩.

❖ اختلاف الصوت عند الإنسان شدَّة وجمالاً:

تختلف شدَّة الصوت من شخص لآخر خاصَّة بين النساء والرجال وبين الأطفال والكبار إذ إنَّ صوت النساء أَحَدُّ من صوت الرجال وصوت الأطفال أحدُّ من صوت الكبار، والسبب في ذلك هو أنَّ الوترين الصوتيين عند الأطفال والنساء أقصر وأصغر من الكبار، والرجال مما يؤدي إلى زيادة في سرعتهما وعدد ذبذباتهما في الثانية. فكلما كان الوتران الصوتيان قصيرين وصغيرين كلما كان اهتزازهما سريعاً وذبذباتهما كثيرة. والطفل عندما يصل البلوغ يزداد وترانه الصوتيان طولاً وضخمة مما يجعل صوته عميقاً أقرب إلى الرجال منه إلى النساء.

ثمَّ أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة لتختلف الأصوات باختلافها فيختلف جمالاً من شخص لآخر فصوت المطرب والقارئ على سبيل المثال أجمل من غيرهما، ولا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان وهذا من أظهر الأدلة على قدرة الله الخلّاق العليم القدير الخبير، فإنَّ هذا الاختلاف الذي بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها فقلما يشتبه صوتان أو صورتان ليس في الطبيعة ما يقتضيه وإنَّما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن كل شيء خلقه، فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسن الخالقين فميَّز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر[1].



(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٩-٣١٠.

المبحث الثاني

مخارج الصوت اللغويِّ وخصائصه وصفاته وتطوُّره

لا بدَّ لأيِّ صوت لغويٍّ من عنصرين مهمَّين هما بمثابة الروح والجسد له، وهما: مخرجه، وصفاته، ومن غير المخرج والصفات لا يكون الصوت اللغويّ، وبهما يمتاز الصوت عن غيره من الأصوات، وهذا يتمثَّل في عوامل عدَّة منها:

١- اختلاف نقطة التحكم في مجرى الهواء بسبب اختلاف الأجرام التي يقع عندها وبها الحبس والإطلاق، فإنَّها ربما كانت ألين، وربَّما كانت أصلب، وربَّما كانت أيبس، وربَّما كانت أرطب.. وقد يكون الحابس أصغر وأعظم، والمحبوس أكثر وأقلّ، والمخرج أضيق وأوسع، ومستدير الشكل، ومستعرض الشكل مع دقة، والحبس أشد وألين، والضغط بعد الإطلاق أحفز وأسلس..[(١)].

٢- اختلاف حال التموج فالتموج يفعل الصوت، وأمَّا حاله في نفسه من اتِّصال أجزائه وتماسها، أو تشظِّيها بها فيفعل الحدَّة والثقل، أمَّا الحدَّة فيفعلها الأولان، وأمَّا الثقل فيفعله الثانيان [(٢)]، ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الحدَّة والثقل بأحد تفسيرين:

أولهما وأرجحهما: أن ابن سينا هنا يشير إلى درجة الصوت؛ لأنَّ طول الموجة مع الصوت الحادِّ أقلُّ منه مع الصوت الثقيل، فأجزاء الموجه في الصوت الحادّ متقاربة متماسكة، على حين أنَّ أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة.

---

(١) ينظر: أسباب حدوث الحروف- الفصل الثاني.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

المطلب الأوَّل: مخارج الأصوات وألقابها وخصائصها:

تناول العرب المسلمون الأصوات بدراسة مستفيضة ومعمَّقة ومميزة، لم تحظ بها أصوات أمم أخرى، ومن دراساتهم هذه ما خصُّوا به مخارج الأصوات من شرح تفصيليٍّ، فصنفُّوا الأصوات بحسب المكان الذي يتمُّ فيه التحكم في الهواء الخارج من الرئتين، وهي مبيَّنة فيما يأتي:

المخارج: جمع مَخْرَج على وزن مَفْعَل، بفتح الميم وسكون الخاء وفتح الراء.

والمخرج لغةً: محلُّ الخروج.

واصطلاحاً: اسم لموضع خروج الحرف وتمييزه عن غيره، كمَدْخَل اسم لموضع الدُّخول، ومَرْقَد اسم لموضع الرُّقود[1].

وكانت المخارج نوعين: عامَّة، ومخارج خاصَّة:

❖ المخارج العامة:

هي المشتملة على مخرج فأكثر وتنحصر في خمسة:

١- الجوف. ٢- الحلق. ٣- اللسان. ٤- الشَّفتان. ٥- الخَيشُوم.

❖ المخارج الخاصَّة:

هي المحددة التي لا تشتمل إلا على مخرج واحد، وقد اختلف فيها العلماء، فمنهم من عدَّها سبعة عشر مخرجاً منحصرة في خمسة مخارج عامة كما سبق، وهو مذهب الخليل بن أحمد، واختاره الإمام ابن الجزري فجعل للجوف مخرجاً واحداً، وللحلق ثلاثة، وللسان عشرة، وللشفتين اثنين، وللخيشوم واحداً.

---

(١) ينظر: غاية المريد في علم التجويد: ١٢٤.

ومنهم من عدَّها ستة عشر مخرجاً منحصرة في أربعة مخارج عامة، وذلك بأن أَسْقَطَ مخرج الجوف، وفرَّق حروفه فجعل مخرج الألف من أقصى الحلق كالهمزة، ومخرج الياء المدِّيَّة كغير المدية من وسط اللسان، ومخرج الواو المدية كغير المدِّيَّة من الشفتين، وهذا مذهب سيبويه ومن تَبِعه، واختاره الإمام الشاطبي، ومنهم من عدَّها أربعة عشر مخرجاً بأن أسقط مخرج الجوف ووزَّع حروفه كالمذهب السابق، ثم جعل مخرج اللام والنون والراء مخرجاً واحًدا وهو طَرَفُ اللسان وهذا مذهب الفَرَّاء وأصحابه(١).

وفيما يأتي بيانها مفصَّلة(٢):

١- **الجوف**: وهو المخرج الأوَّل من المخارج العامَّة: ويخرج منه ثلاثة أصوات وهي حروف المدّ وهي: الألف نحو: «قَالَ» والواو المدِّيَّة نحو: «يَقُولُ»، والياء المدية نحو: «قِيلَ»، وتسمَّى هذه الأصوات جوفيَّة؛ لأنَّها من الجوف، وتسمى مدِّيَّة؛ لامتداد الصوت في يُسْر عند النطق بها، وهي الصوائت الطويلة، وتسمَّى كذلك هوائيَّة؛ لأنَّها تنتهي بانقطاع هواء الفم؛ لأنَّها لا أحياز لها كسائر الحروف التي لها أحياز، وإنَّما تخرج من هواء الجوف فسميَّت مرة جوفا ومرة هوائية وسمِّيت ضعيفة لانتقالها من حال إلى حال عند التصرف باعتلال(٣)، وتسمَّى أيضاً حروف عِلَّة لتأوُّه العليل -أي المريض- بها، وبيَّن ابن جني، حالة النطق بها وهيئة مخرجها فقال: «إن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصــوت الذي يجري

(١) ينظر: غاية المريد في علم التجويد: ١٢٦ – ١٢٧.

(٢) ينظر في تفصيل مخارج الأصوات العربيَّة: غاية المريد في علم التجويد: ١٢٦-١٣٠.

(٣) ينظر: العين: ١/٦٤، ولسان العرب: ٣.

في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان، وضغطته، وتفاج الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعدا هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال، وأمَّا الواو فتضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت فلما اختلفت أشكال الحلق والفم، والشفتين مع هذه الأحرف اختلف الصدى المنبعث من الصدر، وذلك قولك في الألف "ءَا" وفي الياء "**إِي**" وفي الواو "**أُو**"»[1]، كما أنَّه أوضحها بأنَّه إذا اتَّسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتدا حتى ينفذ، فيفضي حسيرا إلى مخرج الهمزة، فينقطع بالضرورة عندها، إذ لم يجد منقطعا فيما فوقها. والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة الألف ثم الياء ثم الواو[2]، وتشبه عمليَّة النطق بهذه الأصوات عمليَّة التصويت بالناي: «فإنَّ الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة. فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات وسُمِعَ لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه. فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة»[3]، فأمَّا الواو الصائتة

(١) سر صناعة الإعراب: ٦/١، وينظر منه: ٦٥/١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠/١.

(٣) العربية، معناها ومبناها: ٥٣.

وأختها الضمَّة فإنَّ مخرجها مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وميل به سلس إلى فوق، وأمَّا الياء الصائتة وأختها الكسرة فإنَّ مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وميل به سلس إلى أسفل، وأخيراً الألف الصائتة فإنَّ مخرجهما مع إطلاق الهواء سلسا غير متزاحم(١)، على أنَّه قد يمكن الفصل بين الياء والواو وبين الألف بأنَّها لا بدَّ من أن تكون تابعة وأنَّهما قد لا تتبعان ما قبلهما(٢).

٢- **الحلق** وهو المخرج الثاني منَ المخارجِ العامَّة: وفيه ثلاثة مخارج تخرج منها ستَّة أصوات وهي:

أ- أقصى الحلق: أي أبعده مما يلي الصدر ويخرج منه: صوتي الهمزة فالهاء، فأمَّا الهمزة: فيحدث عن حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير، ومن مقاومة الطرجهالي الحاصر زماناً قليلاً لحفز الهواء ثم اندفاعه إلى الانقلاع بالعضلة الفاتحة وضغط الهواء معاً له، ثمَّ يليه الهاء.

ب- وسط الحلق: وهو ما بين أقصاه وأدناه ويخرج منه صوتي: العين والحاء، ويخالف صوت الحاء العين في هيئة المخرج وفي المحبس وفي القوة وفي جهة مخلص الهواء، فإنَّ الفرجة بين الغضروفين السافلين تكون عند النطق بالحاء أضيق، والهواء يندفع أميل إلى قدَّام، ويصدم حافَّة التقعير الذي كان يصدمه هواء العين عند الخروج، وتلك الحافَّة صلبة والدفع فيها أشدُّ فيقسر الرطوبة ويميلها إلى قدام.

ت- أدنى الحلق: أي أقربه مما يلي الفم ويخرج منه صوتي: الغين والخاء، فالغين: يحدث باهتزاز الرطوبة لكنَّها أكثر منها في صوت الخاء.

---

(١) ينظر: الرعاية لتجويد القراءة: ١٠٨-١٠٩.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٩.

٣- **اللسان:** وهو المخرجُ الثالثُ من المخارجِ العامَّة، وفيه عشرة مخارج تخرج منها ثمانية عشرة حرفاً وهي:

أ- أقصى اللسان من فوق -أي: أبعده مما يلي الحلق- مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ويخرج منه: القاف.

ب- أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، ويخرج منه: الكاف، إلا أنَّ مخرجها أسفل من مخرج القاف، قريب من وسط اللسان.

وربَّ سائل يسأل: لِمَ جعل أقصى اللسان مخرجين لحرفين، ولم يجعل مخرجاً واحداً كأقصى الحلق؟

ويجاب: بأنَّ هناك فرقاً بين أقصى اللسان، وأقصى الحلق، وذلك لأنَّ أقصى اللسان فيه طُولٌ، وبين موضعي القاف والكاف بُعْد؛ ولذا اعتبر كل من الموضعين مخرجاً خاصّاً لحرف خاص، بخلاف أقصى الحلق ففيه قِصَر، وبين موضعي الهمزة والهاء قُرب شديد ولذا اعتبر أقصى الحلق مخرجاً واحداً لصوتين.

ت- وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، ويخرج منه: الجيم فالشين فالياء غيرُ المدِّيَّة، وهي الياء "الصامتة"، و«تحدث حيث السين والزاي، ولكن بضغط وحفز للهواء ضعيف لا يبلغ أن يحدث صفيراً»[1].

ث- إحدى حافتي اللسان مما يلي الأضراس العليا اليسرى أو اليمنى، ويخرج منه الضاد، وخروجه من اليسرى أسهل وأكثر استعمالاً، ومن اليمنى أصعب وأقل استعمالاً، ومن الجانبين معاً أعز وأعسر، وبالجملة فالضاد أصعب الحروف وأشدها على اللسان، ولا توجد في لغة غير العربية؛ ولذلك تسمَّى لغة الضاد.

---

(١) كتاب الموسيقى الكبير: ١٠٧٢.

ج- أدنى حافة اللسان إلى منتهاها مع ما يحاذيها من اللَّثَة العليا ويخرج منه: اللام، ويكون هذا الصوت بحبس من طرف اللسان رطب غير قويٍّ جدًّا، ثمَّ قلع إلى قدام قليلاً، والاعتماد على الجزء المتأخِّر من اللسان المماس لما فوقه أكثر من الاعتماد على طرف اللسان، وليس الحفز للهواء بقوي. ولو كان الحفز والشد قويّاً خرج حرف كالطاء، وإن كان طرف اللسان متعرضاً للموضع الذي يمسه في اللام من غير مس صادق، ولا التصاق رطوبة، ثم عرض حافتاه بالعضلتين المطولتين تعريضاً أقوى من تعريض الطرف نفسه، وحمل عليه الهواء حتى نفضه وأرعده كما يفعل الريح بكلِّ لين متعرض له متعلِّق، من طرف منه بشيء ثابت حدث منه حرف الراء، وسمع التكرير الذي فيه للارتعاد قدماً.

ح- طرف اللسان تحت مخرج اللام قليلاً مع ما يليه من لَثَة الأسنان العليا ويخرج منه: النون المظهرة والمتحركة، وقيدنا النون بالمظهرة؛ لأن النون المخفاة عبارة عن غنّة مخرجها الخيشوم، وهي من الحروف الفرعية.

خ- طرف اللسان قريب إلى ظهره قليلاً بعد مخرج النون، ويخرج منه الراء والمراد من ظهر اللسان: ظهره مما يلي رأسه، وظهره أي صفحته التي تلي الحنك الأعلى.

د- طرف اللسان مع ما بين الثنايا العليا والسفلى، قريب إلى أطراف الثنايا السفلى غير أنه يوجد انفراج قليل بينهما، ويخرج منه أصوات الصاد والسين والزاي، فيكون صوت الزاي قريباً من الموضع الذي يخرج منه صوتي السين والصاد، ولكن يكون طرف اللسان فيها أخفض، وما بعده أرفع وأقرب من سطح الحنك كالمماس بالعرض أجزاء دون أجزاء، ولكنَّها أقلُّ

أخذاً في الطول مما يأخذه المقرب من سطح الشَّجْر والحنك في السين، والغرض من ذلك أن يحدث هناك اهتزاز على سطح اللسان وسطح الحنك ليجتمع ذلك الاهتزاز مع الصفير. وأمَّا في سائر الأشياء فهو كالسين، ويكاد للاهتزاز الذي يقع في الزاي أن يكون تكريراً كالتكرير الواقع في الراء

ذ- ظهر طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ويخرج منه: الطاء والدال والتاء.

ر- ظهر طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا، ويخرج منه: الظاء والذال والثاء، فأمَّا صوت الثاء: يكون باعتماد الهواء عند موضع التاء بلا حبس وتحبس عند طرف الأسنان ليصير الخلل أضيق؛ فيكون صفير قليل مع القلع، وكأنَّ الثاء سين تُلوفِيَت بحبس فرج مسلك هوائها الصفار، وأمَّا صوت الذال فيخرج من مخرج صوت الثاء لكنَّ يفارقه في الاهتزاز.

٤- **الشَّفتان**: وهو المخرجُ الرابعُ من المخارجِ العامَّةِ: وفيهما مخرجان:

أ- بطن الشَّفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا ويخرج منه حرف: الفاء.

ب- ما بين الشفتين معاً ويخرج منه ثلاثة أصوات وهي: الباء والميم والواو، مع انطباق عند الباء والميم وانفراج قليل عند الواو المدِّيَّة، ويكون صوت الميم بحبس فيها تامٍّ وبأجرام من الشفة أيبس وأخرج، وليس تسريب الهواء مع القلع إلى خارج الفم كلِّه، بل يصرف بعضه بحفز قوي إلى التجويف الذي في آخر المنخر ليدور فيه ويفعل دويّاً، ثم يطلقان معاً، وتحدث الواو الصامتة «حيث تحدث الفاء، ولكن بضغط وحفز للهواء ضعيف لا ينافس في انضغاطه سطح لشفة، ثم يتم هيئته بقلع أيضاً للمقدار المنطبق من الشفة في الفاء»[1].

---

(١) كتاب الموسيقى الكبير: ١٠٧٥.

٥- **الخيشوم**: وهو المخرجُ الخامسُ من المخارجِ العامَّة: والخيشوم هو أقصى الأنف من الداخل، أي: التجويف الذي يربط الأنف بالفم، وفيه مخرج واحد تخرج منه: الغنة، وممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ الأصل في الغنَّة أنَّها ليست صويتا، أي: لا أثر لها في المعنى، بل هي نغمة.

❖ ألقاب الأصوات:

اصطلح علماء العربيَّة أن يقسِّموا الأصوات العربيَّة إلى عشرة أقسام يطلقون على كلِّ قسم منها لقباً مستقىً من مخرجها وفيما يأتي بيان ذلك:

١- الحروف الحَلْقِيَّة: وهي ستة الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء، وسميت بذلك لخروجها من الحلق.

٢- الحروف اللَّهَوِية: وهما حرفان: القاف والكاف، ولقبا بذلك؛ لخروجهما من قرب اللَّهَاة؛ وهي اللَّحْمَة المدلَّاة في أقصى سقف الحلق.

٣- الحروف الشَّجَرِيَّة: وهي ثلاثة الجيم والشين والياء، ولقبت بذلك لخروجها من شَجَر الفم أي منفتح ما بين اللحيين، هذا ما قاله أكثر علماء التجويد، وقد ذكر صاحب لآلئ البيان أن حرف الضاد يلقب أيضاً بأنه من الحروف الشَّجرية، وبذلك تكون الحروف الشجرية أربعة.

٤- الحروف الأسَلِيَّة: وهي ثلاثة الصاد والزاي والسين، ولقبت بذلك لخروجها من أسلة اللسان أي من طرفه.

٥- الحروف النِّطَعية: وهي ثلاثة الطاء والدال والتاء، ولقبت بذلك لخروجها من قرب نطع الفم أي من غاره؛ وهو الجزء الأمامي من الحنك الأعلى.

٦- الحروف اللِّثَوِيَّة: وهي ثلاثة الظاء والذال والثاء، ولقبت بذلك لقرب مخرجها من اللثة؛ وهي اللحم الذي ينبت فيه الأسنان.

٧- الحروف الذَّلَقِيَّة: وهي ثلاثة اللام والراء والنون، ولقبت بذلك لخروجها من ذَلَق اللسان أي طرفه.

٨- الحروف الشَّفَهِيَّة: وهي أربعة الفاء والواو والباء والميم، ولقبت بذلك لخروج الفاء من بطن الشفة السفلى، وخروج الباقي من الشفتين معاً.

٩- الحروف الجوفية: وهي حروف المدّ الثلاثة، ولقبت بذلك لخروجها من الجوف، وتسمَّى كذلك الحروف الهوائية، وسمِّيت بذلك؛ لأنَّ خروجها ينتهي بانقطاع هواء الفم، الأصوات وتسمى مدِّيَّة؛ لامتداد الصوت في يُسْر عند النطق بها، وهي الصوائت الطويلة، وتسمَّى كذلك هوائيَّة؛ لأنَّها تنتهي بانقطاع هواء الفم؛ لأنَّها لا أحياز لها كسائر الحروف التي لها أحياز، وإنَّما تخرج من هواء الجوف فسميَّت مرة جوفا ومرة هوائية وسمِّيت ضعيفة لانتقالها من حال إلى حال عند التصرف باعتلال(١)، وتسمَّى أيضاً حروف عِلَّة لتأوُّه العليل -أي المريض- بها.

❖ خصائص الأصوات العربيَّة:

لا شكّ أنّ كلّ اللغات الطبيعيّة قائمة على محمل صوتيّ، بمعنى أنّ اللّغة أصوات، أو هي حسب بعض التعريفات اللّسانيّة الحديثة صوت ومعنى (النحو التوليدي). والأصوات اللّغوية هي حدث فيزيائيّ محسوس قابل للقياس مثل أيّ صوت آخر موجود في الطبيعة. وكلّ صوت من أصوات اللّغة تتجلّى قيمته باعتباره صوتاً متميّزاً أو غير متميّز، وتميّزه يظهر في مقابلته لأصوات أخرى، وذلك من نحو أنّ التاء والطاء في العربيّة صوتان متمايزان (مثل قولنا "تين" و"طين") في الوقت الذي يكونان فيه في أغلب اللغات الأعجميَّة

---

(١) ينظر: العين: ١/٦٤، ولسان العرب: ٣.

تنويعين صوتيين لا غير، وغير ذلك من الظواهر الخاصَّة بالصوت العربيّ وفيما يأتي أهمُّ هذه الخصائص.

١- من خواص الأصوات العربية أنَّ قيمها الصوتيَّة يعبَّر عنها دائما بصدر أسمائها، فالاسم "كاف" مثلا يعبِّر صدره وهو "ك" عن الصوت "ك"، وكذلك الاسم "ألف" يعبِّر صدره صوتيّاً عمّا سُمِّي أخيرا الهمزة، وفي هذا المعنى يقول ابن جني: «إن كل حرف سميته ففي أول حروف تسميته لفظه بعينه. ألا ترى أنك إذا قلت: جيم فأول حروف الحرف "جيم". وإذا قلت: دال فأول حروف الحرف "دال" وإذا قلت: حاء فأول ما لفظت به "حاء"، وكذلك إذا قلت: ألف، فأول الحروف التي نطقت بها همزة»[1]، ويقول حفني ناصف: «للحروف العربية خواص لم تجتمع في غيرها من اللغات الأخرى. منها أن مسمياتها دائما في صدر أسمائها، فصدر كلمة ألف "ء" وصدر كلمة باء "ب" وصدر كلمة جيم "ج" وهكذا لآخر الحروف»[2].

من خصائص الأصوات العربيَّة ائتلاف الحروف في نظام بناء الكلمة العربيَّة. وقد بيَّن ذلك الخليل رحمه الله أنَّ اللغات تختلف في ذلك، وما قد يتلاءم مع أمَّة ربَّما لا يتلاءم مع أمَّة أخرى، وذكر أيضاً أنَّ الأذن العربيَّة قد تستسيغ أصواتاً معيَّنة لا يستسيغها غيرها، وأنَّ اللسان العربيَّ قد ينطق بتركيب خاص لا ينطق به لسان غيره، وأنَّ العرب كانوا يأبون تأليفاً خاصّاً من الكلمات لا يأباه غيرهم، مثل إبائهم اجتماع واوين

(١) سر صناعة الإعراب: ١/٤٧.

(٢) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية: ٢٨، وينظر: شرح المفصل: ١٠/١٢٦.

أول الكلمة، والابتداء بالساكن، واجتماع حرفين ساكنين[1].

٣- من خصائص الأصوات في العربيّة: التلاؤم الصوتي[2]: وهو نقيض التنافر، ويراد به: تعديل الحروف في التأليف، لأنَّ تأليف الكلام على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا[3]، والغاية من التلاؤم هي تجانس الأصوات، ولما كانت أصوات القرآن متجانسة تماماً، فإنَّ القرآن كله متلائم في الطبقة العليا، وذلك بيّن لمن تأمله، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض[4]، لذلك فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتياً في تداخل حروفها، وتنافر مخارجها، فمن غير الوارد اجتماع الأصوات المتقاربة جدّاً أو المتباعدة جدّاً، سواء في موضع النطق أو الصفات. والتلاؤم الصوتيُّ لا يتعلّق بطبيعة الحروف في حدّ ذاتها، وإنّما يتعلّق بالحركات أيضاً. وذلك من نحو الانتقال من الضمّة إلى الكسرة أو العكس، ومن نحو وجود أربع حركات لوازم في الكلمة الواحدة، أو من نحو التوافق بين الفتحة والحروف الحلقيّة وغيرها.

---

(١) العين: ١٢٣/١.

(٢) آثرنا مصطلح: التلاؤم الصوتيّ على مصطلح الموسيقى تأدُّباً مع القرآن الكريم لما للموسيقى من تشعُّب في المزامير وآلات اللهو، ولأنَّه مصطلح أعجميٌّ دخيل، ومصطلح التلاؤم الصوتيّ مصطلح عربيٌّ أصيل استعمله أسلافنا من العرب المسلمين. فيكون لنا فيه سلف. المؤلّفان.

(٣) ينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٩٤.

(٤) المصدر نفسه: ٩٥.

٤- من الخصائص الصوتيَّة في اللغة العربيَّة الانسجام الصوتي كما في إبدال السين صاداً في كلمة مثل السويق، وإبدال الصاد زاياً في بعض اللغات إذا كانت الصاد ساكنة وبعدها صوت مجهور مثل "يصدق" التي ينطقها بعضهم "يزدق". وعللا هذه الظاهرة بقولهما: «ليكون عمل اللسان من وجه واحد»، ويعنيان بذلك الاقتصاد في الجهد العضلي. وتلك نظرية يقرهما عليها علم اللغة الحديث، وممن نادى بها "أندريه مارتن" إذ صرح بأنَّ التغييرات الصوتيَّة الهامَّة في اللغة ترجع أساساً إلى الميل إلى استعمال الوسائل الصويتيَّة في اللغة اقتصاديّاً، وبطريقة سهلة بقدر الإمكان(١).

٥- تتميَّز بعض الأصوات بسمات خاصَّة، مثل اللام التي تتَّصف بالانحراف، والراء التي تتَّصف بأنَّها حرف مكرَّر(٢).

٦- تقسَّم الأصوات إلى صحيحة ومعتلَّة على أساس اتِّساع المخرج في أصوات العلة دون الأصوات الصحيحة.

٧- التمييز في أصوات العلة بين الفتحة والألف من ناحية، والكسرة والياء والضمة والواو من ناحية أخرى يقول ابن جني: «والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثمَّ الياء ثمَّ الواو، وأوسعها وألينها الألف، إلا أنَّ الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والصوت الذي يجري في اليـــاء مخالف للصوت الذي

---

(١) ينظر: البحث اللغوي عند العرب: ١١٩.

(٢) سر صناعة الإعراب: ١/٨، ٧٠، ٧١، ٧٢.

يجري في الألف والواو، والعلة في ذلك أنَّك تجد الفم والحلق في الأحوال الثلاثة مختلف الأشكال: فالألف تجد الحلق والفم معها منفتحين، والياء تجد الأضراس معها سفلاً وعلواً قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، والواو تضمُّ لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس»[(١)]، ومعنى هذا أنَّ أصوات العلَّة في اللغة العربيَّة تقسَّم إلى قصيرة وطويلة وأطول يقول ابن جني: «اعلم أنَّ الحركات أبعاض حروف المدِّ واللين، وهي الألف والواو والياء، فكما أنَّ هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الكسرة والفتحة والضمة، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدِّمو النحويِّين يسمُّون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمَّة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة، ألا ترى أنَّ الألف والياء والواو اللواتي هنَّ توامٌّ كواملُ قد تجدهنَّ في بعض الأحيان أطول وأتمَّ منهنَّ في بعض، وذلك قولك: يخاف وينام ويسير ويطير ويقوم ويسوم. فتجد فيهنَّ امتداداً واستطالة ما، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً وذلك نحو يشاء.. وتقول مع الإدغام شابَّة ودابَّة»[(٢)]، وهذا يعني أنَّهنَّ في حالات المدِّ لا يكنَّ صويتات، وإنَّما نغمات، وأمَّا الأصوات القصيرة: الفتحة والكسرة والضمَّة فهنَّ صويتات لما لهنَّ من أثر في المعنى وإن كانت اللغة العربيَّة خاصَّة والجزريَّة عامَّة تستغني عنهنَّ في الكتابة في أكثر الأحيان، وهذه الأصوات القصيرة في حالات الإشباع تتحوَّل في النطق لا في الكتابة إلى

(١) سر صناعة الإعراب: ٨/١، ٩.

(٢) سر صناعة الإعراب: ١٩/١، ٢٠.

صوت طويل كامل لكنَّه لا يكون صويتا، بل نغمة، فالضمَّة تتحوَّل إلى واو، والكسرة تتحوَّل إلى ياء كما في مدّي الصلة الصغرى والكبرى ومعنى الصوت الطويل هو أن يأخذ مدَّة زمنيَّة في جريان النفس عند نطقه كالمدَّة التي يأخذها أيّ صوت من الأصوات الصحيحة، أو الصوامت على تسمية بعضهم، والصوت القصير يتمُّ فيه قطع النفس في أقلّ من هذه المدَّة والانتقال إلى الأصوات الأخرى في النطق بمعنى أنَّ لا يأخذ المدَّة الزمنيَّة في جريان النفس التي يأخذها الأصوات الأخرى، بل أقلّ منها، لذلك سمِّيت حركات في الاصطلاحات اللغويَّة العربيَّة.

ممَّا تقدَّم من الخصائص الصوتيّة، وخصائص أخرى غيرها، تبرز قيمة اللّغة العربيّة من حيث النطق والكتابة، ومن حيث أبنية الكلمات حروفاً وأسماء وأفعالاً، والبناء النحويّ، أو التركيب الإسناديّ.

المطلب الثاني: صفات الأصوات[1] العربيَّة وتطوُّر الصوت اللغويِّ:

الصفات جمع صفة. وهي تعني في **اللغة:** ما قام بالشيء من المعاني كالعِلم والسواد والبياض، وليس المقصود الصفة بمعنى النعت كما أراده النحويون، أو ما يرجع إليها عن طريق المعنى نحو: شبه أو مثل، بل المقصود بالصفة المعاني الحسية أو المعنوية.

وأمَّا في **الاصطلاح** فتعني: هيئة ثابتة للحرف عند النطق به، مِنْ جهر واستعلاء وقلقلة ونحو ذلك.

والصفات تُعَدُّ بمثابة المعايير للحروف فتُمَيِّز بينها حتى يُعرف القويُّ من الضعيف وخاصَّة تلك التي تخرج من مخرج واحد كالطاء والتاء، فلولا

---

(١) ينظر في تفصيل ألقاب الأصوات وصفاهما كلّاً من: العميد في علم التجويد: ٧٤-٨٠، وغاية المريد في علم التجويد: ١٣٧.

الإطباق والقلقلة في الطاء لما استطعت أن تميِّز بينهما، وقد اختلف علماء التجويد في عدد الصفات: فذهب ابن الجزري ومن تبعه إلى أنها ثماني عشرة صفة، وعدَّها بعضهم عشرين، وزادها بعضهم حتى أوصلها إلى أربع وأربعين صفة إلى غير ذلك من الأقوال، وقد اخترنا المذهب المشهور وهو أن عدد الصفات عشرون صفة.

وتنقسم الصفات على قسمين:

١- **الصفات العَرَضِيَّة**: وهي الصفة التي تلحق الحرف أحياناً وتفارقه أحياناً أخرى كالتفخيم والترقيق.

٢- **الصفات الذاتيَّة**: وهي الصفات الملازمة للصوت فلا تفارقه أبداً كالقلقلة والشِّدة، وهي تنقسم على صنفين:

أ - صنف له ضدَّ: وعدد صفاته إحدى عشرة صفة وهي: الجهر ضده الهمس، والرِّخاوة وضدها الشِّدة وبينهما صفة التَّوسط ويقال لها الْبَينِيَّة أيضاً، والاستفال وضده الاستعلاء، والانفتاح وضده الإطباق، والإصمات وضده الإذلاق، ولا بدَّ لكلِّ صوت من أصوات حروف الهجاء أن يأخذ منها خمس صفات.

ب- صنف لا ضدَّ له: وعدد صفاته تسع وهي: الصفير، القلقلة، اللِّين، الانحراف، التَّكرير، التَّفَشِّي، الاستطالة، الخفاء، الغُنَّة، وفيما يأتي بيان هذه الصفات تفصيلا:

❖ أولاً: الصفات التي لها ضدّ

١- **الهمس**: ويعني في **اللغة**: الخفاء. وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: جريان النَّفَس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على مخرجه وحروف صفة الهمس

عشرة، جمعها الإمام ابن الجزري في قوله: فحثّه شخصٌ سَكَت، وهي الفاء، والحاء، والثاء، والهاء، والشين، والخاء، والصاد، والسين، والكاف، والتاء.

وبعض هذه الحروف أقوى من بعض في الهمس، فأعلاها الصاد؛ لما فيها من استعلاء وإطباق وصفير وكلها من صفات القوة، ويليها الخاء؛ لأن فيها استعلاء ويلي الخاء الكاف والتاء؛ لما فيهما من الشدة وهي من صفات القوة أيضاً، وأضعف هذه الحروف هي الهاء والفاء والحاء والثاء إذا ليس فيها صفة قوة مطلقاً.

وتظهر الصفة حالة النطق بالحرف إذا كان ساكناً أو مشدداً بصفة خاصة، وكذا إذا كان متحركاً، أما حروف المد فحسب شروطها.

٢- **الجهر**: وهو ضد الهمس: وهو يعني في **اللغة**: الظهور والإعلان. وأمَّا في **الاصطلاح** فهو يعني: انحباس جري النفس عند النطق بالحرف؛ لقوة الاعتماد على مخرجه.

وحروفُهُ: الهمزة، والباء، والجيم، والدال، والذال، والراء، والزاي، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، والغين، والقاف، واللام، والميم، والنون، والواو، والياء، والألف، والواو المدِّيَّة، والياء المدية، وبعض هذه الحروف أقوى من بعض في الجهر، وذلك على قدر ما في الحرف من صفات القوة فالطاء أقوى من الدال وإن اشتركتا في صفة الجهر إلا أنَّ الطاء تنفرد بالإطباق والاستعلاء وهكذا.

والسبب في حدوث الهمس والجهر هو الرنين الذي يصحب نطق بعض الأصوات، وتقسَّم الأصوات من حيث وجوده أو عدم وجوده إلى مجهورة ومهموسة(١).

---

(١) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٦٨، ٦٩.

وقد ذكر أبو الحسن الأخفش أنَّه سأله سيبويه عن الفرق بين المهموس والمجهور فقال له: «المهموس إذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك، وأما المجهور فلا يمكنك فيه. ثم كرر سيبويه التاء بلسانه وأخفى فقال: ألا ترى كيف يمكن؟ وكرر الطاء والدال وهما من مخرج التاء فلم يمكن. قال: وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر. فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجري في الحلق.. أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها.. والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف ولا تصل إلى ذلك في المجهور...»(١)، وذكر الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس أنَّ عبارة سيبويه هذه: «تتضمَّن آراء قيمة في الدراسة الصوتية تتفق مع أحدث النظريات الحديثة إلى حد كبير. فسيبويه يرشدنا هنا إلى وسيلة أخرى لتمييز المهموس من المجهور وذلك عن طريق إخفاء الصوت، وأنه يمكن هذا الإخفاء في المهموسات دون أن تفقد معالمها. أما الإخفاء في المجهورة فيترتَّب عليه أنَّ الحروف تضيع صفتها المميَّزة فلا نسمع حرف الدالِ دالاً حينئذ وإنَّما نسمع صوتاً آخر هو التاء... وكذلك يحدثنا سيبويه عمَّا يسمِّيه بصوت الصدر ويراه صفة مميِّزة للمجهور. ولعلَّ هذا الصوت هو صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة»(٢).

وقد ميَّز سيبويه بين صفة الجهر وصفة الهمس تمييزاً دقيقاً فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصدر والفم، ومصدر الصوت المهموس من الفم وحده، وبمعنى آخر أن للرئتين عملاً ما في صفة الجهر، بينما ينفرد الفم بصفة

---

(١) الأصوات اللغوية: ٨٩. نقلاً عن مخطوطة دار الكتب لشرح السيرافي لكتاب سيبويه.

(٢) الأصوات اللغوية: ٩٠. وينظر: البحث اللغوي عند العرب: ١١٧.

الهمس[1]، فتعريف المجهور عنده: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت. بينما المهموس: حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»[2].

٣- **الشِّدة**: وهي تعني في **اللغة**: القوة، وأمَّا في **الاصطلاح** فتعني: انحباس جري الصوت عند النطق بالحرف؛ لكمال قوة الاعتماد على مخرجه.

وحروف الشدة ثمانية جمعها الإمام ابن الجزري في قوله: أَجِدُ قَطٍ بَكَتْ، وهي: الهمزة، الجيم، والدال، والقاف، والطاء، والباء، والكاف، والتاء، وقد جمعت في عبارة: "أَجِدُ قَط بَكَتْ".

وهذه الحروف مختلفة أيضاً في القوة فإنْ كان مع الشدة جهر وإطباق فذلك غاية القوة كالطاء.

وتكون الشدَّة في الأصوات بالتحكُّم في مجرى الهواء فإنَّ له تأثيرا هامّاً في إنتاج الصوت، وذلك عند حبسه نقطة معيَّنة حبساً تامّاً، أو حبسا غير تامٍّ، فالحروف بعضها مفردة، وحدوثها عن حبسات تامَّة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت يتبعها إطلاق دفعة[3]، وهذه الأصوات هي التي تكون شديدة؛ لأنّها تمنع الصوت من أن يجري فيه، والرخو هو الحرف الذي يجري فيه الصوت[4]، وبعضها مركَّبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع إطلاقات[5]، ويكون

---

(١) ينظر: الكتاب: ٢/٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٤٠٥.

(٣) ينظر: أسباب حدوث الحروف- الفصل الثاني.

(٤) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٦٩، ٧٠ وجمهرة اللغة: ١/٨، ودروس في علم أصوات اللغة، كانتينو: ٣٥، ٣٦.

(٥) ينظر: أسباب حدوث الحروف- الفصل الثاني.

الصوت في هذه الحالة رخواً.

وبقدر ما يوجد في الصوت من صفات قويَّة تكون قوَّته، وعلى قدر ما يوجد فيه من صفات الضعف يكون ضعفه.

٤- **التَّوَسُّط**: ويعني في **اللغة**: الاعتدال. وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: اعتدال الصوت عند النطق بالحرف.

وحروف التوسط خمسة، وهي: الراء والعين واللام والميم والنون، وقد جمعت في عبارة "ان عمر" ويسمِّيها بعضهم البَينِيَّة؛ وذلك لعدم كمال انحباس الصوت كانحباسه في حروف الشدَّة، وعدم كمال جريانه كما في حروف الرِّخاوة، بل حالة متوسطة بين كمال انحباس الصوت وكمال جريانه.

لكنَّ سيبويه عدَّ الميم والنون صوتان شديدان يجري معهما الصوت؛ لأنَّ ذلك الصوت غنَّة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك، وخالفه ابن جني والزمخشري وابن الجزري وغيرهم بأنَّهما ضمن الحروف المتوسطة، أي: بين الشديدة والرخوة.

٥- **الرِّخاوة**: وهي ضد الشدة والتوسط، وهي تعني في **اللغة**: اللِّين. وأمَّا في **الاصطلاح** فتعني: جريان الصوت عند النطق بالحرف؛ لضعف الاعتماد على مخرجه.

وحروفها: ثمانية عشر حرفاً الباقية بعد حروف الشدة والتوسط وهي: الثاء، والحاء، والخاء، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والظاء، والغين، والفاء، والهاء، والواو، والياء، والألف، والواو المدِّيَّة، والياء المدِّيَّة.

فالحروف الهجائية مقسَّمة بين هذه الصفات الثلاث فما كان من حروف: أَجِدُ قَط بَكَتْ، سمِّي شديداً، وما كان من حروف: لن عمر، سمي

متوسطاً أو بَينِيّاً، والعامل في ذلك هو طريقة حبس النفس الصوت عند نقطة معيَّنة كما تقدَّم في الأصوات الشديدة.

٦- **الاستعلاء**: وهو يعني في **اللغة**: العلو والارتفاع. وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: ارتفاع جزء كبير من اللسان عند النطق بأغلب حروفه إلى الحنك الأعلى.

وحروف صفة الاستعلاء سبعة، جمعها الإمام ابن الجزري في قوله: خُصَّ ضَغْط قَظْ، وهي الخاء، والصاد، والضاد، والغين، والطاء، والقاف، والظاء، وهذه الحروف السبعة هي التي تفخم قولا واحداً، وارتفاع معظم اللسان يكون عند النطق بالطاء، والصاد والضاد والظاء، ثم يكون أقل عند القاف، ثم يضعف عند الخاء والغين.

وقيل: سُمِّيَت مستعليةً؛ لخروج صوتها من جهة العلو وكل ما حل في عالٍ فهو مستعلٍ.

٧- **الاستفال**: وهو ضد الاستعلاء، ويعني في **اللغة**: الانخفاض. وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: انخفاض اللسان إلى قاع الفم عند النطق بأغلب حروفه.

وحروفُهُ: أربعة وعشرون حرفاً الباقية من أحرف الهجاء بعد حروف الاستعلاء وهي: الهمزة، والباء، والتاء، والثاء، والجيم، والحاء، والدال، الذال، والراء، والزاي، والسين، والشين، والعين، والفاء، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والواو، والياء، والألف، والواو المدية، والياء المدية.

وهذه الحروف حكمها الترقيق قولا واحداً إلا الألف واللام والراء فسيأتي الكلام عليها، وهي في حالة التفخيم تشبه الحروف المستعلية.

٨- **الإطباق**: وهو يعني في **اللغة**: الإلصاق، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: إطباق اللسان على الحنك الأعلى عند النطق بحروفه بحيث ينحصر الصوت بينهما.

وحروفُهُ: أربعة وهي الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، تمتاز الأصوات المطبقة عن غيرها، بأنَّها أصوات مفخَّمة يشترك مؤخر اللسان في النطق بها[1]، فهذه الأصوات الأربعة تكون بوضع اللسان في محاذات الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف، وي إليه ابن جني بقوله: « والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له»[2]، إلا أنَّ هناك تفاوتاً بين حروفه، فالطاء أقواها درجة في الإطباق يليها الضاد فالصاد، أما الظاء فهي أضعفهم إطباقاً، ويفصِّل ذلك أكثر ابن سينا، فيقول عن الصاد: «ويحدث في اللسان كالتقعير حتى يكون لانقلاب الهواء كالدوي»[3].

ويتميَّز صوت الطاء الذي يتَّحد مخرجه بمخرج صوتي التاء والدال ويفارقهما بأنَّه يحبس في ذلك الموضع بجزء من طرف اللسان أعظم، وتقعر وسط اللسان خلف ذلك المحبس ليحدث هناك للهواء دوي عند الإخراج، ثم يقلع ويكون الحبس بشدٍّ قويٍّ، فيختلف صوت الطاء عن صوت التاء بأنَّ التاء يكون مثله في كلِّ شيء إلا أنَّ الحبس بطرف اللسان فقط.

٩- **الانفتاح**: وهو ضد الإطباق، ويعني في **اللغة**: الافتراق. وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: تجافي اللسان عن الحنك الأعلى ليخرج الريح عند النطق بأغلب حروفه.

وحروفُهُ: سبعة وعشرون حرفاً الباقية من حروف الهجاء بعد حروف

---

(١) ينظر: جمهرة اللغة: ١/٨.

(٢) سر صناعة الإعراب: ١/٧٠.

(٣) نقلا عن البحث اللغوي عند العرب: ١١١.

الإطباق وهي: الهمزة، والباء، والتاء، والثاء، والجيم، والحاء، والخاء، والدال، والذال، والراء، والزاي، والسين، والشين، والعين، والغين، والفاء، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والواو، والياء، والألف، والواو المدِّيَّة، والياء المدِّيَّة.

١٠- **الإذلاق**: وهو يعني في **اللغة**: حدَّة اللسان وبلاغته وطلاقته، وقيل: الطرف، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: خفَّة الحرف وسرعة النطق به؛ لخروجه من ذَلَقِ اللسان أي طرفه أو من طرف إحدى الشَّفتين أو منهما معاً.

وحروفُهُ: ستة جمعها ابن الجزري في قوله: فِرَّمِنْ لُبٍّ، وهي: الفاء، والراء، والميم، والنون، واللام، والباء، وسمِّيت مذلقة؛ لخروج بعضها من ذلق اللسان وهي: الراء، والنون، واللام، وبعضها من ذلق الشَّفَة وهي: الباء، والفاء، والميم.

١١- **الإصمات**: وهو ضد الإذلاق، وهو يعني في **اللغة**: المنع تقول: صَمَتَ عن الكلام أي منع نفسه منه، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: ثقل الحرف وعدم سرعة النطق به؛ لخروجه بعيداً عن ذَلَقَ اللسان والشَّفَة، وهذا التعريف يتعارض مع الواو؛ لخروجها من الشفتين ولكنها وصفت بالإصمات؛ لأنَّ فيها بعض الثقل حيث تخرج من الشفتين مع انفراج بينهما بعكس الفاء والباء والميم فهي أخف الحروف وأسهلها.

وحروفُ الإصماتِ: خمسة وعشرون حرفاً الباقية من حروف الهجاء بعد حروف الإذلاق وهي:

الهمزة، والتاء، والثاء، والجيم، والحاء، والخاء، والدال، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، والغين، والقاف، والكاف، والهاء، والواو، والياء، والألف، والواو المدية، والياء المدية.

وقيل: سميت هذه الحروف مُصْمَتة؛ لأنها ممنوعة من الانفراد أصولاً في الكلمات الرباعية والخماسية بمعنى أن كل كلمة على أربعة أحرف أو خمسة أصولاً لا بد أن يكون فيها مع الحروف المصمتة حرف من الحروف المذلقة، ولذلك قالوا: إن "عسجد" -اسم للذهب- أعجمي لكونه رباعيّاً وليس فيه حرف من الحروف المذلقة.

وبهذا تنتهي الصفات التي لها ضد، وقد تقدَّم التنبيه بأنّ كلّ صوت من أصوات حروف الهجاء لا بد أن يأخذ منها خمس صفات.

❖ ثانياً: الصفات التي لا ضد لها:

والصفات التي لا ضد لها عددها تسع، كما تقدم وفيما يلي بيانها مفصلة:

١- **الصفير**: وهو يعني في **اللغة**: صوت يشبه صوت الطائر، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: صوت زائد يخرج من بين الثنايا وطرف اللسان عند النطق بأحد حروفه.

وحروفُ الصَّفيرِ: ثلاثة: الصاد، والزاي، والسين، فالصاد تشبه صوت الأَوَزِّ والزاي تشبه صوت النَّحل، والسين تشبه صوت الجراد، وأقواها الصاد؛ لما فيها من استعلاء وإطباق وصفير، ثم يليها الزاي لما فيها من جهر، ثم السين وهي أضعفها؛ لكونها مهموسة، والهمس الخفاء كما تقدم، وعلى هذا فينبغي لك أن تظهر صفير السين أكثر من الزاي، وتظهر الزاي أكثر من الصاد.

٢- **القلقلة**: وهي تعني في **اللغة**: الاضطراب، وأمَّا في **الاصطلاح** فتعني: اضطراب الصوت عند النطق بالحرف حتى يسمع له نبرة قوية.

وحروفُ القلقلةِ: خمسة جمعها الإمام ابن الجزري في قوله: قُطْبٌ جَدَّ، وتنقسم القلقلة بالنسبة لحروفها إلى ثلاثة أقسام:

أعلى وهو في الطاء، وأوسط وهو في الجيم، وأدنى وهو في الثلاثة الباقية.

ومراتبُهَا أربعةٌ: أقواها عند الساكن الموقوف عليه المشدد مثل: الحقّ، يليه الساكن الموقوف عليه غير المشدد مثل: خلاق، ثم يلي هذا الساكن الموصول مثل: خلقنا، وفي هذه المراتب الثلاث نجد أن القلقلة قد بلغت صفة الكمال، أما المرتبة الرابعة وهي في الْمُحَرَّك مثل: المتقِين، فلا يوجد فيه من القلقلة إلا أصلها فقط مثل: الغنة في النون والميم المظهرتين والمحركتين، فالثابت فيهما أصلها لا كمالها كما تقدم.

كيفيتُهَا: وأمَّا كيفية القلقلة فقد اختلف العلماء فيها، فقيل: إنها أقرب إلى الفتح مطلقاً، وهو الأرجح، وقيل: إنها تابعة لما قبلها، فإن كان ما قبلها مفتوحاً نحو: أقرب، كانت قريبة إلى الفتح، وإن كان ما قبلها مكسوراً نحو: اقْرأ، كانت قريبة إلى الكسر، وإن كان ما قبلها مضموماً نحو: اقتْلوا، كانت قريبة إلى الضم.

٣- **اللِّين:** وهو يعني في **اللغة:** السهولة، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: إخراج الحرف من مخرجه بسهولة وعدم كُلْفَة على اللسان.

وحرفَاهُ: اثنان وهما الواو والياء الساكنتان المفتوح ما قبلهما مثل: خَوْف، بَيْت.

٤- **الانحراف:** وهو يعني في **اللغة:** الميل والعدول، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: الميل بالحرف بعد خروجه من مخرجه عند النطق به حتى يتصل بمخرج آخر.

وحرفَاهُ: اثنان وهما اللام والراء، ووصفا بالانحراف؛ لأنهما انحرفا عن مخرجهما حتى اتصلا بمخرج غيرهما، فاللام فيها انحراف إلى طرف اللسان، والراء فيها انحراف أيضاً إلى ظهر اللسان وميل قليل إلى جهة اللام.

٥- **التكرير**: وهو يعني في **اللغة**: الإعادة، وأمَّا في **الاصطلاح** فهو يعني: ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف، وحرف التكرير هو الراء، ولمَّا كان التقسيم الثنائي إلى شديد ورخو لم يشمل صوت الراء، اختصَّه اللغويون باسم "المكرر" -وإن عدَّوها نوعاً من الشديد- فإنَّ مصطلح -المركب- عند ابن سينا يمكن أن يشملها بسهولة؛ لأنَّ شرط التركيب في الصوت أن يمتدَّ في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق، وهو ما ينطبق على الصوت المكرر: الراء، كما ينطبق على الأصوات الاحتكاكية[1].

والتكرير صفة ملازمة لحرف الراء بمعنى أنها قابلة لها فيجب التحرز عنها؛ لأنَّ الغرض من معرفة هذه الصفة تركها، بمعنى: عدم المبالغة فيها، وأكثر ما يظهر التكرير إذا كانت الراء مشددة نحو: كرة، مرة، فالواجب على القارئ أن يخفي هذا التكرير ولا يظهره لقول الإمام ابن الجزري: وأخفِ تكريراً إذا تشدد.

وليس معنى إخفاء التكرير إعدام ارتعاد رأس اللسان بالكلية؛ لأن ذلك يؤدي إلى حصر الصوت بين رأس اللسان واللّثة كما في حرف الطاء وهذا خطأ لا يجوز، وإنما يرتعد رأس اللسان ارتعادة واحدة خفيفة حتى لا تنعدم الصفة.

وطريق الخلاص من هذا أن يلصق القارئ ظهر لسانه بأعلى حنكه بحيث لا يرتعد رأس اللسان كثيراً.

٦- **التفشي**: وهو يعني في **اللغة**: الانتشار، وقيل الاتساع، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: انتشار خروج الريح بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف. وحرف التفشي هو الشين.

---

(١) ينظر: البحث اللغوي عند العرب: ١٠٨.

وسمِّيت الشين متفشية؛ لانتشار الريح في الفم عند النطق بها حتى تتصل بمخرج الظاء.

٧- **الاستطالة**: وهي تعني في **اللغة**: الامتداد، وأمَّا في **الاصطلاح** فتعني: امتداد الصوت من أول إحدى حافتي اللسان إلى آخرها، وحرف الاستطالة: هو الضاد.

وسمِّيت الضاد مستطيلة؛ لاستطالة مخرجها حتى تتصل بمخرج اللام، والحرف المستطيل يمتد الصوت به ولكن لم يبلغ قدر الحرف الممدود، وذلك لأن المستطيل يجري في مخرجه، والممدود يجري في ذاته؛ حيث إن مخرجه مقدر.

والفرق بينهما أن الحرف المستطيل يجري الصوت في مخرجه بقدر طوله ولم يتجاوزه حيث إن الحرف لا يتجاوز مخرجه المحقق.

أما الحرف الممدود فليس له مخرج محقق، وإنما مخرجه مقدر كما عرفت، فيجري الصوت في ذاته، ولا ينقطع إلا بانقطاع الهواء.

٨- **الخفاء**: وهو يعني في **اللغة**: الاستتار، وأمَّا في **الاصطلاح** فيعني: خفاء صوت الحرف عند النطق به.

وحروف صفة الخفاء أربعة: حروف المد الثلاثة والهاء، ويجمعها كلمة: هاوي. فأمَّا خفاء حروف المدّ فلِسَعَة مخرجها، وأمَّا خفاء الهاء؛ فلأنّ صفاتها كلَّها ضعيفة ومن أجل هذا قويت بالصلة.

٩- **الغنَّة**: وهي تعني في **اللغة**: صوت له رنين في الخيشوم، وأمَّا في **الاصطلاح** فهي: صوت لذيذ مركب في جسم النون والميم في كل الأحوال، وحروفُ صفةِ الغنة: اثنان وهما الميم والنون.

❖ العربيَّة وتطور الصوت اللغوي:

تنتاب اللغات الحية تطورات صوتية، تنشأ عنها تغيرات أساسية في اللغات، فينجم عن ذلك تغيير ملحوظ بطبيعة الصيغ الكلامية، ويحدث تطوير في الوحدات التركيبية، وأهم من ذلك ما ينشأ من تغيير في الأصوات، وهو غالبا ما يكون نابعا عن تحولات المجتمعات البشرية من ساذجة إلى متطورة، أو من بدائية إلى متحضرة، وما يرافق هذا التحول من تحول بالعلاقات الاجتماعية، والمناخ القومي العام، مما ينطبع أثره على الظواهر الاجتماعية وأبرزها اللغة؛ لأنَّها أكبر ظواهره التواصليَّة والخطابية، فتتحول تدريجياً إلى لغة متطوِّرة في كثير من أبعادها المرتبطة بتطوُّر مجتمعها، إذ لا يمكن أن ينفصل التفكير في تحول مسار لغة ما عن التفكير في تحوّل مسار متكلمي تلك اللغة، فاللغة في تطورها جزء لا يتجزأ من المحيط في تطوره، وليس بالضرورة التطور إلى الأفضل بل قد تتطور اللغة إلى شيء آخر يعود بها إلى التدهور والانحطاط، تفقد فيه جملة من خصائصها الفنية أو الصوتية أو الجمالية، وتنسلخ فجأة عن ملامحها الذاتية وتستبدلها بما هو أدنى قيمة لغوية.

وقد تزدهر ازدهاراً يفوق حد التصور إذا كانت بسبيل من حماية أصالتها كما هي الحال في اللغة العربية إذ يحرسها القرآن العظيم.

لكنَّ هذا التطوُّر غير وارد في اللغة العربيَّة، فمن أهم خصائص العربيَّة ثبات أصوات الحروف فيها، لأنَّ جوهر الصوت العربي بقي واضحاً، وهو ما يتمثل في قراءة القرآن الكريم وإخراج الحروف الصامتة إخراجاً يكاد يكون واحداً أن اللغة العربية تستمد أصولها من القرآن، بل تبقى أصولها ثابتة في القرآن، وأولويات هذه الأصول هي الأصوات لأن الأصوات أصل اللغات، ولّما كان

القرآن الكريم هو القاعدة الصلبة للنطق العربيِّ الصحيح لجملة أصوات اللغة، ولاسيما الضاد والظاء أو الحاء والهاء، في التمرس عليهما والتفريق الدقيق بينهما.

الخلاصة:

مصدر له، يكون شيئا يتعلّق به أو جسما يقوم به، فالاهتزازات التي تصدر عنها الذبذبات الصوتيَّة يمكن أنْ تحدث إمَّا عند التقاء الشيئين، أو عند ابتعادهما.

وممَّا يتعلَّق بالبحث الصوتيِّ في جهود العلماء العرب المسلمين هو كلام الله تبارك وتعالى فإنَّه جلَّ وعلا يتكلَّم بحرف وصوت، والصَّوْتُ الَّذي يَتَكَلَّمُ اللهُ جلَّ وعلا به لا مِثْلَ لَهُ، فلا يُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَكَلامُ اللهِ هُوَ كَلامُهُ بِنَظْمِهِ وَنَثْرِهِ وَمَعَانِيهِ.

وحدوث الصوت الإنسانيِّ يكون نتيجة للذبذبات التي تصدر من الحنجرة، التي فيها الوتران الصوتيَّان، وهما اللذان يؤثِّران في اختلاف شدَّة الصوت من شخص لآخر.

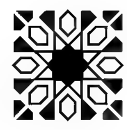
كما اهتمَّ الدرس الصوتيّ الحديث بوصف الجهاز الصوتيّ، وبيان وظيفته فبيَّنوا أنَّ العناصر المكوِّنة للصوت هي: الهواء إلى الخارج، والنطق في الفم، وتذبذب في منطقة الحنجرة، والرنين الأنفي.

كلَّ صوت لغويٍّ له مخرج، وصفات، ولا ينفكُّ عنهما البتَّة؛ لأنَّه من غيرهما لا يكون، وبهما يتميَّز عن غيره من الأصوات، ويحصل عليهما بسببين هما: اختلاف نقطة التحكم في مجرى الهواء، أو اختلاف حال التموُّج وغيرهما:

الوسط الناقل للصوت يتمثَّل بالمادَّة التي ينتقل خلالها الصوت، فالحيوانات البحريَّة مثلا ينتقل صوتها عبر الماء -الوسط السائل- وكذلك سماعنا أنواع

الأصوات عن بعد فذلك يحدث لأنَّ الذبذبات الصوتيَّة تنتقل بوساطة الهواء -الوسط الغازي- أو الاتصال بيننا هاتفيا الذي يحدث لأن الذبذبات الصوتية يمكن أن تنتقل من خلال السلك -الوسط الصلبي.

وتكون العمليَّة السمعيَّة باستعمال جهاز الاستقبال وهو الأذنين، ويتعلَّق بالسمع ثلاثة أمور: إدراك الصوت، ومعرفة المعنى مع إدراك الصوت، والقبول والاستجابة مع الفهم.



الفصل الثالث

الصوامت والصوائت وأشباههما

- المبحث الأوَّل الصوائت وشيوعها في العربيَّة وأهمِّيَّتها

المطلب الأوَّل: الصوائت.

المطلب الثاني: شيوع الصوائت في العربيَّة وأهمِّيَّتها.

- المبحث الثاني: الصوامت وأشباه الصوائت والصوائت المزدوجة ونطقها

المطلب الأوَّل: الصوامت وأشباه الصوائت:

المطلب الثاني: نطق أشباه الصوائت والصوائت المزدوجة

توطئة:

إنَّ الأصوات في العربيّة -مثل غيرها من اللّغات الأخرى- تقسّم فيها الأصوات تقسيماً عريضاً، يشمل الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة، وهذا التقسيم يؤشِّر إلى وجود اختلاف بينهما في المخرَج والصِّفة، والوظيفة والدَّلالة، فالصوائت إن كانت أقلَّ عدداً من الصوامت، لكنَّ أهميتها تبقى تُضاهي الصامت؛ إذ ثبت أنَّ الصوائت تتميَّز بخواص مشتركة، وهذه الخاصية لا نكاد نعثر عليها عندَ الصوامت، فقد يتَّفق صامتان في المخرَج ويختلفان في صفة ما، بينما الصوائت يجمع بينهما العديدُ من الخواص، فهي كلها متَّسعة المخرَج، حيث يمرُّ الهواء دون عائق أو عارض يعترضه؛ إذ يمرُّ الهواء حرّاً طليقاً، مما يُعطيها القوَّة التصويتيَّة، فهي أصواتٌ كلها مجهورة يَتَذَبذب عندَ صدورها الوَتران الصَّوتيَّان، وتزداد كمية الهواء باتِّساع المخرَج، فتكون أوضحَ في السمع من باقي الأصوات، وتقلُّ هذه الظاهرة وتزداد حسبَ طبيعة الصائت وكميَّته، كما يعرف عن الصائت خروجه من دون كُلفة ومشقَّة، يعتمد على اللِّسان والشفتين في نُطقه، فيُعطيه مرونةً في النطق؛ فتخرُج الصوائت من دون ضوضاء؛ لانتظام ذبذباتها، ممَّا يجعلها تساعد على أن تكون أصواتاً غنائية؛ لأنَّها مأهولة بالانفتاح المتكامل لمجرى الهواء، فتنطلق من دون أيِّ دوي أو ضوضاء، و تصل إلى الأسماع مؤثرة فيها تأثيراً تلقائياً في الوضوح والصفاء، وعلَّة ذلك انبساطها مسترسلة دون تضييق في المخارج.

ويتضح من هذا أنّ الأصوات الصامتة ما كانت بخلاف ذلك فهي تتَّسم بتضييق مجرى الهواء واختلاسه، فتنطلق أصواتها بأصداء مميَّزة تختلف شدَّة وضعفاً بحسب مخارجها فتحدث الضوضاء من خلالها نتيجة احتباس الهواء بقدر ما.

ويمكن تقسيم الأصوات اللغويَّة أو الصويتات بحسب المخارج والصفات إلى ثلاثة أنواع: صوامت وصوائت، وأشباه صوائت، وفيما يأتي بيان كلِّ نوع:

المبحث الأوَّل

الصوائت وشيوعها في اللغة العربيَّة وأهمِّيَّتها

المطلب الأوَّل:

❖ **الصوائت:**

الصوائت جمع صائت، والصائت: هو اسم فاعل من صاتَ، أي: أحدث صوتاً، وأصات الشيء: جعله يحدث صوتا، وأصات به: حمل إليه خبراً سيِّئاً.

وفي **الاصطلاح**: هو الصوت المجهور الذي يخرج مع الهواء عند النطق به على شكل مستمرّ من الحلق والفم، مع تغْيير يسير لوضع اللّسان ومجرى الفم وشكله أحياناً، غير أنَّه لا يتعرَّض لتدخُّل الأعضاء الصوتيَّة الأخرى تدخُّلاً يمنع خرُوجه أو يسبِّب فيه احتكاكاً مسموعاً[1]، فيكون النطق بالصائت دون عوائق ظاهرة.

أو هي الأصوات التي يندفع الهواء عند النطق بها، فيُخْلَى سبيل الهواء أثناء النطق بها، وذلك عند خروجه من الرئتين مرورا بالحنجرة، ثمَّ يتَّخذ مجراه في الحلق والفم في ممرٍّ ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة، أو تحتبس النفس ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة. فالصفة التي تختص بها الصوائت هي كيفيَّة مرور الهواء في الحلق والفم وخلوِّ مجراه من حوائل وموانع[2]، فالصوت الصائت لا يعترض مجرى النفس عند نطقه سدٌّ أو تضييق -يمكن الصياح بها-، وقد أطلق ابن سينا تسمية "المصوتات" على الصوائت وهذا المصطلح لا يزال متداولاً إلى

---

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٢٤.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٩.

يومنا هذا عند بعض الدارسين العرب[1].

وتُسمَّى كذلك أصوات علّة، ومدِّيَّة، وجوفيَّة وهوائيَّة؛ لأنَّها لا أحياز لها كسائر الحروف التي لها أحياز، وإنَّما تخرج من هواء الجوف فسميَّت مرة جوفا ومرة هوائية وسميت ضعيفة لانتقالها من حال إلى حال عند التصرف باعتلال[2]، وتكون هذه الأصوات صائتة إذا سكنت وجانست الحركة السابقة لها، كقولنا: بَاع، يِبيع، يقُول، فكل من الألف، والياء، والواو، وردت ساكنة بعد حركة من جنسها، أما الألف فلا تكون إلا صائتاً طويلاً، أي: لا يكون إلا ساكناً مفتوح ما قبله، فهي بعكس الواو والياء، اللذين يتخذان في حالات معينة شكل الصوامت، فالواو، في قولنا مثلا: وَلَد، يَوم، والياء في قولنا: يَلبَسُ، يُسافر، بَيْتٌ.

وفي اللُّغة العربية في لهجاتها المختلِفة ثمانية عشر صائتاً من حيث النطق، ولكن مِن حيث الوظيفة لها ستَّة صوائت فقط، ثلاثة قصيرة وثلاثة طويلة، يقول الدكتور كمال بشر: «فالكلام كله مُنصبٌّ على حركاتِ العربية الفصيحة الخالية مِن الألوان اللهجية»[3]؛ لأنَّ الصوائت المتفرِّعة عن الصوائت الستَّة هي مجرَّد نغمات، لا أثَر لها في الدلالة ولا في الوظيفة، وسنتناول هذه الصوائت الستَّة فيما يأتي:

أ- **الثلاثة القصيرة** هي:

١- الفتحة كما في الفتحة التي على الباء من "بَل" وعلى النون من "نَعْبُدُ" وعلى الراء من "رَبِّ".

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٤.

(٢) ينظر: العين: ١/٦٤، ولسان العرب: ٣.

(٣) علم الأصوات، كمال بشر: ٤٤٦.

٢- الكسرة كما في الكسرة التي تحت الباء من "بِسْمِ اللهِ" والتي تحت الراء من "غَيْرِ" والتي تحت الجيم في "الجَنَّةِ".

٣- الضمة كما الضمَّة التي على الدال في "الْحَمْدُ" والتي على الدال والهاء في "لَدُنْهُ" والتي على القاف في "قُلْ".

ب- **الثلاثة الطويلة** -أصوات مد- وهي:

١- الألف، أو الفتحة الطويلة كما في "قَاْلَ" و"النَّاس" و"حَاشَا".

٢- الياء المدِّيَّة أو الكسرة الطويلة وهي الساكنة ومكسور ما قبلها كما في "قِيْلَ" و"الزِّيْنَة" و"فِيْ".

٣- الواو المدِّيَّة أو الضمة الطويلة وهي الساكنة ومضموم ما قبلها كما في "يَقُوْلُ" و"نُور" و"جُوْع".

والملحظ أنَّ الصوائت الطويلة والقصيرة مرتبطة ببعضها، قال ابن جنِّيٍّ: «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدِّ واللين وهي: الألف والواو والياء، فكما أنَّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي: الفتحة والكسرة والضمَّة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة: الألف الصغيرة، والكسرة: الياء الصغيرة، والضمَّة: الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة»(١) والدليل على صحة رأي ابن جني أنَّ الحركات إذا أشبعتها أصبحت حروفاً، فحركة الفتحة إذا أشبعتها ومددها أصبحت ألفاً، وحركة الكسرة إذا أشبعتها ومددها أصبحت ياءً، وحركة الضمة إذا أشبعتها ومددها أصبحت واواً.

---

(١) سر صناعة الاعراب: ١٩/١، وينظر: التحديد في الإتقان والتجويد: ١٠٩.

فكأنَّ ابن جنِّيٍّ يشير بذلك إلى التفاوت في كمية النطق ونوعيته، فالألف في حقيقتها هي فتحة ممدودة، والياء هي كسرة ممدودة، والواو هي ضمَّة ممدودة، والعكس بالعكس.

❖ خصائص الصوائت:

إنَّ حرِّيَّة مرور الهواء أثناء النطق بالصوائت أعطاها مجموعة من الخصائص والمميِّزات أهمُّها:

١- **الوضوح**: تتَّسم الصوائت بالوضوح التامِّ بحيث لا تخفى عند النطق، وتسمع بكامل صفاتها[1]، وذلك يعود لاتصافها بالجهر، فالأصوات المجْهورة أوضح في السَّمع من الأصوات المهموسة، وكذلك لسعة مخرجها، وقابليَّتها للمدّ، ولاجتماع هذه الميزات الصوتيَّة فيها فضلاً عن سهولة نُطقها -كما مرَّ في التَّعريف السَّابق- جَعَلَها أيسر الحروف وأسهلها على الجهاز النطقي للمتكلم باللغة، الَّذي يميل بطبْعه إلى الاقتصاد في المجهود العضَلي، وتلمس أسهل السُّبُل مع الوُصُول إلى ما يهْدف إليْه من إبراز المعاني، وإيصالها إلى المتحدِّثين معه بهذه اللُّغة؛ ولَّما كانت متصاحبة مع هواء النَّفس الخارج من الجوف، امتازت بميزة الوضوح السَّمعي؛ إذ تسمع من مسافة عندها قد تخفى الأصوات الصَّحيحة أو يُخطأ في تمييزها، وهذه الميزة للصوائت دون الصوامت، وإنَّما أتتْها من قبيل عدم الاحتِكاك الَّذي تتميَّز به عند النُّطق بها ممَّا جعلها أصواتاً موسيقيَّة منتظِمة قابلة للقِياس، خالية من الضَّوضاء، لها القدرة على الاستِمْرار، وهي بهذا تختلِف عن الصوامت الَّتي هي عبارة عن ضوْضاء

---

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٣-٤.

ناتجة عن الاحتِكاك[1]، فهي أسهل وأوْضح من الحروف الصوامت -السَّاكنة الصحيحة-، لكنَّ الألف تمتاز عن بين الواو والياء بأنَّها لا بد من أن تكون تابعة لما قبلها بالتفخيم والاستعلاء والاستفال ونحو ذلك، وأنَّ الواو والياء قد لا تتبعان ما قبلهما[2].

٢- **الجهر**: تتَّصف الصوائت بالجهر دائما، وهذه الصفة تشاركها فيها بعض الصوامت وليس كلُّها، فميزة الصوائت أن لا تكون إلا مجهورة، وأمَّا الصوامت فمنها ما يكون مجهوراً ومنها ما يكون مهموساً، وقد عدَّ سيبويه الصوائت بأنَّها «غير مهموسة وهي حروف مدٍّ ولين ومخارجها متسعة لهواء الصوت وليس من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمد للصوت، فإذا وقعت عندها لم تضمه بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها»[3]، وفي قول سيبويه حقيقة كون هذه الأصوات مجهورة.

٣- **المخرج**: عدم اختصاصها بمخرج معيَّن، فلا يجد الناطق أثراً للاحتكاك في إصدار هذه الأصوات، وأنَّ قوَّتها التصويتيَّة كان بسبب من خروج الهواء وهذه هي الميزة الأساسيَّة التي تمتاز بها أصوات المد[4]، فالألف حرف لين اتسع مخرجه لهواء الصوت، فكان مخرجه أشدَّ اتِّاعاً من مخرج الياء والواو، لأنَّك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك[5]، فأقصى

(١) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٦.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٩.

(٣) الكتاب: ٢/١٦٧، ٣/٤٦٩، ٤/٧٥-١٩٣، إذ فصَّل في الياء والواو شبهي الصوائت.

(٤) ينظر: تهذيب اللغة: ١/٥١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢.

ما يصل إليه اللسان متجها نحو الحنك الأعلى بحيث لا يحدث الهواء المار بينهما أيَّ نوع من الحفيف، يُعَدُّ موضعا مضبوطا بين أصوات اللين، وهو ما يشبه الكسرة الرقيقة في اللغة العربية حين يكون قصيراً، ويشبه ما يسمَّى بياء المدِّ حين يكون طويلاً، وإذا هبط اللسان إلى «أقصى ما يمكن أن يصل إليه في الفم، بحيث يستوي في قاع الفم، مع انحراف قليل في اقصى اللسان نحو أقصى الحنك، ما يشبه الفتحة المفخمة في اللغة العربية حين يكون قصيرا، ويشبه ما يسمى بألف المد المفخمة حين يكون طويلاً، أمَّا الواو أو الضمة فتحدث بأن يصعد أقصى اللسان نحو الحنك الأعلى، ليكون الفراغ بينها من لسعة، بحيث لا يحدث الهواء أي نوع من الحفيف[(١)]، ومن هذا المنطلق قسَّم سيبويه أصوات المدِّ إلى ضربين:

أ - مرتفعة وتضمّ الواو والياء والضمَّة والكسرة.

ب- مستفلة وتضم الألف والفتحة، مميز بين النوعين بفكرة الاستعلاء والاستفال، المرتبطة أساسا عند اللغويين العرب بارتفاع اللسان وانحطاطه داخل الفم أثناء النطق بالأصوات اللغوية[(٢)].

٤- **الازدواجيَّة:** فالواو والياء تتَّصفان بازدواجيَّة الخصائص والوظيفة ويختلفان، عن الألف بأنَّ الألف لا تكون إلا ساكنة مفتوح ما قبلها، فلا تتغيَّر عن هذا الحال، ولو حرَّكت صارت صوتاً آخر غير الألف، وأمَّا الواو والياء فإنَّهما تحرَّكان ولا تتغيَّران[(٣)].

(١) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٧-٩.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٧-٨.

(٣) ينظر: الأصوات اللغوية: ٣١.

٥- **الشيوع**: تشيع في اللغات، فلا تخلو لغة من الصوائت، فهي أكثر تردُّداً في النطق من الحروف الصوامت -السَّاكنة الصحيحة-[1].

٦- **النطق**: لكلِّ لغة طريقة في نطق الصوائت، فأيَّ انحراف عن أصول النطق بها يبعد المتكلم عن الطريقة المألوفة بين أهل هذه اللغة[2].

المطلب الثاني: شيوع الصوائت في العربيَّة وأهمِّيَّتها:

❖ شيوع الصوائت في العربيَّة:

إنَّ الصوائت في اللُّغة العربيَّة قليلة في العدد، بخلاف الصوامت التي تزيد على ثلاثة أضعاف الصوائت إلا أنَّ الصوائت تضاهي الصوامت في الشيوع والاستعمال، وإنَّ لكثرة ورود الصوائت في الكلام وارتفاع نسبة شيوعها يعود لأسباب عديدة منها ما يتعلَّق بطبيعة هذه الأصوات نفسها، ومنها ما يتعلَّق بنظام اللغة العربيَّة، ومنها ما يتعلَّق بطبيعة بناء الكلمات، وهذا الأخير متفرِّع عن نظام اللغة، وسنذكر فيما يأتي أهمَّ تلك الأسباب:

أ – طبيعة الصوت:

إنَّ ممَّا يحدِّد نسبة ورود الصوت في الكلام هو طبيعة الصوت نفسه، وهذا يتبيَّن فيما يأتي:

١- **الجهر**: تقدَّم في الفصل الثاني أنَّ الجهر من الصفات التي لها ضدٌّ وهو الهمس، والجهر يضفي على الصوت الصوتَ المجهور أكثر شيوعاً، «فالكثرة الغالبة من الأصوات اللغوية في اللغات كلها مجهورة، ومِن الطبيعي أن تكونَ كذلك، وإلا فقدتِ اللغة عنصرها الموسـيقيِّ ورَنينها

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٣-٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣-٤.

الخاصَّ الذي نميِّز به الكلام من الصمتِ والجهْر والهمس»[1]، فالأصوات المجهورة هي التي تحافظ على تنغيم اللغة، والصوائت هي مِن الأصوات المجهورة، فلمَّا كانتِ الصوائت أصواتاً مرنة انطلاقية ملساء، نجد أنَّ القرآن الكريم يكثر في فواصله الصوائت الطويلة، وخاصَّة الألف «وهذه الألف تملِك قيمةً تنغيمية وتطريبية أكثرَ مِن الواو أو الياء، فهي ممدودةٌ ومخرجها مِن أقْصَى الحلْق، وتصل ذبذبتها إلى أكثرَ مِن "٨٠٠" ذبذبة في الثانية، أي: إنَّها تحتاج إلى ضِعفي زمن الحرف الصحيح الساكن، وتُعادل أكثر مِن ضعفي ذبذبات ذينك الحرفَيْن، وتقف قبالتهما في أقْصى مكان مِن طبقة الصوت وهما أدناه»[2]، ويقدِّم صاحب النص مثالاً عن تردُّد صوت الألِف في القرآن الكريم مِن خلال سورة الشمس:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[3].

فهذا الصوت -أي: صوت الألف- يتردَّد في فواصل آيات هذه السورة الكريمة، بنغمه وإيقاعه، فهو النَّغمة الموسيقيَّة الأكثر تردُّداً.

---

(١) الأصوات اللغوية: ٢٢.

(٢) قواعد تشكُّل النغم في موسيقى القرآن- بحث: ١٥٠.

(٣) سورة الشمس: ١-١٥.

٢- **سهولة النطق**: فكلَّما خفَّ الصوت على اللسان وسهل نطقه كلَّما كثر استعماله، وتكرَّر وروده في الكلام، وقد سبق الخليل إلى إثبات ذلك، فتوصَّل إلى أنَّ أكثر الأصوات الصامتة دَوراناً في العربية، هي أصوات الذلاقة: -ر، ل، ن، ف، ب، م-، فهي الأصوات التي يُبنى منها الكلامُ العربي، والأكثر شيوعاً فيه، والسبب هو «لَمَّا ذلقتِ الحروف الستَّة ومَذَلَ بهنَّ اللسان وسهلتْ عليه في المنطق، كثرت في أبنية الكلام، فليس شيءٌ مِن بناءِ الخماسي التامِّ يعرَى منها أو مِن بعضها»[1]، ولم يكن ما ذكره الخليل مجرَّد اجتهاد أو تخمين، بل هو نتيجة على استقراء دقيق للغة العربيَّة، يؤكِّد هذا ما توصَّلتْ إليه الدراسات الحاسوبيَّة الحديثة؛ يقول الدكتور أحمد محمد قدُّور: «أثبتت الدِّراسات الحاسوبية لجذور الصحاح ولسان العرب وتاج العروس أنَّ أكثر الحروف دوراناً في العربية هي: الراء واللام والنون والباء والميم، ثمَّ العين والقاف والدال والفاء والسين، ويتبين مِن هذه النتيجة العلمية الدقيقة أنَّ حروف الذلاقة التي اعتدَّها الخليل، وهي: (اللام والنون، والراء والفاء، والباء والميم)، جاءت أولاً ما عدا الفاء، أمَّا من حيثُ تشكل هذه الحروف في الأبنية، فقد أظهرتِ الدراسات الحاسوبيَّة أنَّ أكثر الحروف تردُّداً في الرباعي والخماسي هي حروف الذَّلاقة، إضافةً إلى شيوعها في الثُّنائي والثلاثي، مما يؤيِّد فكرة كثرتها في الكلام عامَّة»[2]، إذن خفَّة الأصواتَ وسهولتها في النُّطق سبب رئيس في ارتفاع نسبة شيوعها وانتشارها في الكلام، فالعربي بطبعه كان يميل إلى السهولة والتيسير.

(١) المصدر نفسه: ١/١٧٤.

(٢) أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة العين: ٦٢.

٣- **الخواصُّ الفيزيائيَّة:** إنَّ الخواصَّ الفيزيائيَّة للأصوات أثر في استعمالها في الكلام، وكثرة ورودها أو قلَّته، فالصوائت بما تحمله من الخصائصِ الفيزيائيَّة الواضحة والتي لا تُوجَد في الصوامت؛ نتيجةَ اتِّساع مخرجها وعلوِّ رَنينها وخفَّتها وسهولتها في النطق، بالإضافةِ إلى أنَّ «تردُّدات هذه الأصوات متقارِبة فيما بينها أكثر مِن غيرها من الصوامِت، مما جعل الانطباع السَّمْعي لها متقارباً أيضاً، وذلك راجِع إلى أوضاعها التشريحيَّة الحرَّة المتقاربة التي لا تملك نقاط "ارتكاز" مِن قبيل ما تملكه الصوامتُ التي يؤلِّف الاحتكاك فيها نقاط ارتكاز تؤدي إلى الاستقرار»(١)، فالخواص الصَّوتية للصوائِت جدُّ متقاربة.

وبناءً عليه، فإنَّ الأصوات التي يكثر دورانها، تختصُّ بمعايير وخواص صوتيَّة تميزها عن غيرها مِن الأصوات، فبعض أصواتِ الذلاقة أوضحُ في السمع من الصوائت، فاللام والنون والميم أصوات عالية النسبة في الوضوح السَّمعي، وتكاد تشبه أصوات اللين في هذه الصِّفة(٢)، وبالتالي ألْحَقوها بأشباه الصوائِت لوضوحها السَّمْعي، ومِن خواصها كذلك خفَّتها في النطق، والذلاقة كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس هي: «القُدرة على الانطلاق في الكلام بالعربية دون تعثُّر أو تلعثُم»(٣)، مما يجعلها كذلك تشبه الصوائت؛ لتكون من الصوامت الأكثر دوراناً في العربية.

ب- النظام اللغويُّ:

إنَّ اللُّغة العربية لها نظام خاص وقواعد لا خللَ فيها، تتمتَّع بالاستقلالية

---

(١) في الأصوات اللغوية- دراسة في أصوات المد العربية: ٥٤.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية: ٧٩.

(٣) الأصوات اللغوية: ٧٩.

في بنيتها الصوتيَّة والصرفيَّة، وتحتوي على مجموعة من الصويتات التي لها علاقة وطيدة بالدَّلالة اللفظيَّة أو النحْويَّة، أو الصرفيَّة أو السياقيَّة، وسنذكر فيما يأتي أثر النظام اللغويِّ في كثرة استعمال الصوائت، ونسبة وروده في الكلام:

١- **طريقة الكلام**: إنَّ طريقة العرب في كلامهم أعطت الصوائت ميزة على الصوامت، فهم لا يبتدئون بساكن، ولا يجيزون اجتماع ساكنين إلا في حالات نادرة، وقد بيَّن ذلك مكي بن أبي طالب ذلك بقوله: «وإنَّما كان الحرف المتحرِّك في الكلام أكثرَ مِن الساكن؛ لأنَّك لا تبتدئ إلاَّ بمتحرِّك، وقد يتَّصل به حرفٌ آخر متحرِّك، وآخر بعد ذلك متحرِّك، ولا يجوز أن يُبتدَأ بساكن، ولا أن يتَّصل ساكن بساكن أبداً، إلاَّ أن يكون الأول حرفَ مدٍّ ولين، أو يكون الثاني سكِّن للوقف، وإنَّما كانت الحركة أكثرَ مِن السكون؛ للعلَّة التي ذكرنا في المتحرِّك والساكن»[١]، وللألِف خاصِّيَّة في أنَّها تشبه الهمزة في كثرة الاستعمال، ولكن للهمزة بداية الكلام وللألِف درَجه، وذلك لأنَّ «الألف لا تُزاد أوَّلاً لسكونها، ألا ترَى أنَّ أوائل الكلم التي يُبتدأ بها لا تكون إلاَّ متحرِّكة، ولكنَّها تزاد وحْدها ثانيةً في فاعل ومع غيرها في ساباط، وثالثة في كتاب، ورابعة في نحو سَكْرَى ومِعزى ونحوهنَّ، وخامسة في نحو حِلِبْلاب وحَنْبَطى، وسادسة في قَبَعْثَرى، وهي أجدر بالزِّيادة مِن الهمزة؛ لأنَّها تكثر ككثرتها ولا تكاد تخلو كلمة مِن زيادة بعضها فيها وهي الفتْحة»[٢]، فهي تتردَّد بكثرةٍ في الكلام، فلا تكاد تخلو كلمةٌ منها، وكذلك الفتحةُ في دورانها،

---

(١) المصدر نفسه: ٢٧.

(٢) التكملة- الجزء الثاني مِن الإيضاح: ٢٣٤.

كما أنَّ ائتلاف الأصوات لا يتعلّق بطبيعة الحروف في حدّ ذاتها، وإنّما يتعلّق بالصوائت القصيرة أيضاً، وذلك من نحو الانتقال من الضمّة إلى الكسرة أو العكس، ومن نحو وجود أربع حركات لوازم في الكلمة الواحدة، أو من نحو التوافق بين الفتحة والحروف الحلقيّة وغيرها، فهذه الأمور نابعة من طريقة العرب في كلامهم، وهي تقوم في الأساس على استحباب الصائت، لما يضفيه على الكلام من سهولة وجرس، كما تقدَّم.

٢- **الربط بين الأصوات الصامتة**: الصوائت التي تربط بين الصوامت في السلسلة الكلاميَّة، وهذا ما يجعلها تكون في المقدمة، وهذا أمر يجعل الصوامت مفتقرة إلى الصوائت في البناء، وهي لا تخلو بحال مِن وجود الصوائت، وهذا ما يعطي الصوائت كثرة في شيوع وانتشارا في الاستعمال، وقد بيَّن ذلك مكي بن أبي طالب فقال: «فإنَّ الكلام إنّما جِيء به لتفهم المعاني التي هي نفس المتكلّم وبالحرَكات واختلافها تُفهم المعاني، فهي منوطةٌ بالكلام مرتبطة به ونيطت به؛ إذ به نفرِّق بين المعاني التي من أجلها جِيء بالكلام»(١)، فإن كانتِ الصوائت هي التي تُحدِّد الكثيرَ مِن المعاني في اللغة العربية، فإنَّ العرب بنوا كلامَهم على متحرِّك وساكن، «والحرف المتحرِّك في كلام العرَب أكثر مِن الساكِن، كما أنَّ الحركة أكثرُ مِن الساكن»(٢)، إذ من النادِر أن تجد صامتاً لا يتبعه صائت، فهي معادلةٌ حسابية، طرَفاها الصامت والصائت، والصامِت لا يُنطق إلاَّ بوجود الصائِت فهو مضطرٌّ إليه ومفتقر.

---

(١) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: ٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧.

٣- **الأبنية الصرفيَّة:** الصوائت التي تؤثِّر في الأبنية، ومن خلاله نستطيع أن نميِّز بين بناء وآخر، وذكر هذا سيبويه فقال: «فأما الأحرف الثلاثة -الصوائت الطويلة-، فإنَّهنَّ يكثرن في كل موضع، ولا يخلو منهنَّ حرف -يعني كلمة- أو مِن بعضهن، ثم ليس شيءٌ مِن الزوائد -الصوائت القصيرة- يعدل كثرتهن في الكلام، هن لكل مدّ، ومنهنَّ كلّ حركة، وهن في كل جميع -كل جمع-، وبالياء الإضافة، والتصغير، وبالألف التأنيث، وكثرتهنَّ في الكلام وتمكنهنَّ فيه زوائد أَفْشَى مِن أن يُحصَى ويُدرك، فلما كُنَّ أخوات وتقاربن هذا التقارب، أجرين مجرًى واحداً»[(١)]، فالأبنية في اللغة العربيَّة تقوم في الأساس على الصوائت طويلة كانت أم قصيرة، وهذا ما يعطيها ارتفاع في نسبة شيوعها في الكلام، وبناءً عليه، فإنَّ الزِّيادة في الصيغ لا تكون إلاَّ بهذه الأصوات، يقول سيبويه: «وأمَّا الألف، فلا تلحق رابعة فصاعداً إلاَّ مزيدة؛ لأنَّها كثرت مزيدةً كما كثرت الهمزة أوَّلاً، فهي بمنـــزلتها أوَّلاً: ثانية وثالثة ورابعة فصاعداً، إلاَّ أن يجيء ثَبَتٌ، وهي أجدر أن تكونَ كذلك من الهمزة؛ لأنَّها تكثُر ككثرتها أوَّلاً، وأنَّه ليس في الكلام حرف إلاَّ وبعضها فيه أو بعض الياء والواو»[(٢)]، فهذه الصوائت تقوم بوظائف مهمّة، إذ هي لا تقتصر على تحريك الحرف فحسب، وإنَّما هي تميّز بين الصيغ الصرفيّة، وذلك من نحو قولنا: " **مُكرِم** -بالكسر- **ومُكرَم** "-بالفتح-، و"**مُستثمِر ومُستثمَر**" كذلك ونحوهما، وهي تميّز بين بعض الكلمات في دلالاتها المعجميّة، وذلك من نحو قولنا: "**سَنة وسِنة**"، و"**ثَمَّ وثُمّ**"، و"**قَطر وقُطر**".

---

(١) الكتاب: ٤/٤٦١.

(٢) الكتاب: ٤/٤٥٣.

٤- **الوظائف النحويَّة**: لقد أدرك العلماءُ العربُ المسلمون أنَّ نِسبة الشيوع بيْن الصوائت، مِن حيث كثرة الاستعمال مرتبطة بالوظائف النحويَّة، فهم أعطوا المفاعيل لَمَّا كثرت أخفُّ الحرَكات وهي الفتحة، ولما قلَّ الفاعل اختير له أثْقل الحرَكات وهو الرَّفْع، حتى تقَع الزيادة في العدد مقابلة للزِّيادة في المقدار فيحصل الاعتدال[1]، فدور الصوائت في البناء النحويِّ لا غنى عنه في اللغة العربيَّة؛ إذ بها يكون ضبط الإعراب فالضمّة تدلّ على الفاعليّة والفتحة على المفعوليّة، وتوزيع الصوائِت على الوظائف يتمُّ بمعيار خِفَّة وثقل الصوت، فالضمَّة أقوى مِن الفتحة؛ لهذا أعطوها أقلَّ الوظائف، لما فيها من تكبُّد الجهد، على خلاف المفاعيل التي أعطوها أخفَّ الحركات ليسهل النطق بها مع كثرة ورودها.

❖ **أهمِّيَّة الصوائت:**

إنَّ الصوائت ذات أهمِّيَّة كبيرة في اللُّغة فهي متعدِّدة المقاصد، وخاصَّة في البناء اللغويِّ، فلا يمكن للغة أن تسيغني عنها، فلا يمكن تصوُّر كلمة من غير أن يكون للصوائت فيها حضور فهي التي تربط الصوامت في السلسلة الكلاميَّة، فإذا كان الكلام الإنساني ينصبُّ على عدد الصوامت، فإنَّ اللُّغة العربية لها ستَّة صوائت فقط، ثلاثة قصيرة وثلاثة طويلة، يقول الدكتور كمال بشر: «فالكلام كله مُنصبٌّ على حركاتِ العربية الفصيحة الخالية مِن الألوان اللهجية»[2]؛ وعرفت اللهجات العربيَّة صوائت أخرى متفرِّعة عن هذه الستَّة الصوائت المتفرِّعة عن الصوائت الستَّة بلغ عدده اثني عشر صائتا تضاف إلى

---

(١) ينظر: التفسير الكبير- مفاتيح الغيب: ١/ ٦١.

(٢) علم الأصوات، كمال بشر: ٤٤٦.

هذه السِّتَّة فيكون المجموع ثمانية عشر صائتا، لكن ليس لها أَثَر في الدلالة ولا في الوظيفة، فتكون هذه الاثني عشر الزائدة هي مجرَّد نغمات، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس: «أنَّ العِبرة ليست بالعدد، وإنَّما بنسبة شيوع كلٍّ من النوعين في الكلام»(١)، فاستعمال الصوت هو الذي يحدِّد شيوعه وكثرة وروده في الكلام، وهذا يدلُّ على أنَّ القلة في العدد للأصوات لا تَعني الفقر في العمل، وهذا يتجلَّى مع الصوائت في اللغة العربية؛ إذ نِسب دورانها يعادل مجموع نسَب الصوامت.

وقُدِّمت دراساتٌ أخرى في بعض سور القرآن الكريم، فوجد أنَّ «في تحليل سريع لدور الحركات الستِّ مع الحروف الثمانية والعشرين "نسبتها إلى مجموع الأصوات نحو ١٧,٥%"، نجد أنَّ سورة الفاتحة -مثلاً- تحتوي من الحروف على "١٢٠" حرفاً، ومن الحرَكات على "٧٨" حركة؛ أي: إنَّ نِسبة الحركات المستعملة في السورة إلى مجموع حروفها وحركاتها نحو ٤٠%»(٢)، وفي عملٍ آخر يشير صاحب النص، «وبتحليل آيات السورة آيةً آية لم تقلَّ هذه النسبة في أيَّة آية عن "٣٧%"، أي: إنَّ قيمة الحرَكات في بنات اللُّغة أكثرُ مِن ضعف نِسبتها بين الأصوات المجرَّدة، وأنَّها تسهم في ألفاظِ اللغة بأكثرَ مِن الثلث»(٣)، وقد لَحَظ المحدَثون ذلك، فقد أجرى المستشرق فليش إحصاءً بسيطاً على آيات مِن سورة البقرة، تبيَّن من خلاله تكرُّر الفتحة "١١٠" مرَّات، والكسرة "٤٢" مرَّة، والضمَّة "٥٠" مرَّة، والنسبة لورود كلٍّ منها، الفتحة: "٥٤,٤% "، والكسرة: "٢٠,٨%"،

---

(١) الأصوات اللغوية: ٢٢.

(٢) المختصر في أصوات اللغة العربية- دراسة نظرية تطبيقية: ١٤١.

(٣) المصدر نفسه: ١٤١.

والضمَّة: "٢٤,٨%"[١]، وهذا يتوافَق ميل العرَب إلى استعمال الفتحة في كلامهم؛ لأنَّها أخفُّ الصوائت القصيرة، وهذا ما تؤكِّده اللسانيات الحاسوبيَّة؛ إذ يشير الدكتور أحمد محمد قدُّور بقوله: «أما مِن حيث دوران هذه الأصوات في الكلام، فقد توصَّل علماء التعمية واستخراج المعمَّى إلى تحديدِ مراتب دوران الحروف مِن حيثُ الكثرة والقلَّة في اللِّسان، وأجمع هؤلاء على أنَّ الحروف "المصوتة" هي أكثرُ الحروف في كلِّ لِسان، أمَّا الألف فهي أكثرها في العربية»[٢]، ومسألة شيوع صائِتَي "**الفتْحة**"، و"**الألِف**"، مسألة تتعلَّق بالنظام الصوتيِّ العامِّ للغة، فهي أكثر من حيث عموم اللغة، وليس المقصود منها أن تكون أكثر من غيرها في كلِّ عبارة، وجملة، وتركيب، فإنَّ هذا أمر مرتبط بالبناء، والتركيب الخاصِّ بالجملة، فقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾[٣]، لا يخفى أنَّ الضمَّة فيه أكثر من الفتحة والكسرة، وكذلك قوله عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾[٤]، لا يخفى أنَّ الكسرة فيه أكثر من الفتحة والضمَّة، إلا أنَّ هذا لا يعدُّ عامٌّ في البناء الصوتيِّ للُّغة العربيَّة، بل تبقى الفتحة والألف هما الأكثر استعمالا من حيث عموم اللغة، وسنبيِّن فيما يأتي الأهمِّيَّة الصوائت في البناء اللغويِّ:

١- الصائت هو الَّذي يخرج الصامِت من سكونه، ويساعِد الصوامت على الاتِّصال ببعضها البعض؛ لأنَّه يعدُّ القنطرة التي تربط الصوامتَ في السلسلة الكلاميَّة، فمِن قواعد التلفُّظ في العربية: عدم الابتداء بالساكِن، ولا يُبتدأ

(١) العربية الفصحى- نحو بناء لُغوي جديد: ٣٦.

(٢) أصالة علِم الأصوات عند الخليل مِن خلال مقدمة كتاب العين: ٦٢.

(٣) سورة القمر: ٥٢.

(٤) سورة القمر: ٤٧.

بالصائِت، ولكن الصامِت لا ينطق إلاَّ إذا كانت الدفعة والدفْقة من الصائت، ولولاه لكانتِ الصوامت ساكنةً لا نفع فيها، فهو يمثِّل نواةَ المقطع، الذي يعتبر أصغرَ وحدة صوتيَّة في الكلام، ولما كانتِ الصوائت ضرورةً في بناء السلسلة الكلاميَّة، أصبحت أكثر شيوعاً ودوراناً في الكلام، فمنها كل الصيغ الصرفيَّة المختلفة، والوفْرة في تعدُّد المعاني، فيَكفي لتغييرِ صائِت فيتغير المعنَى، فخواصها الصوتيَّة تساعدها على البروز والدوران.

٢- الصائت هو الذي يمنح الكلامَ هذا التنوُّع؛ إذ يغلب على الصوائت طابع التعاقُب بالتتابع أو التآلف، وذلك من موقع واحِد مِن عناصر الصيغة الإفراديَّة، بداية أو وسطاً، أو نهاية، وقد جعل المختصُّون لكلِّ موقع مجالاً، فقالوا البداية للغة، والوسط للصَّرْف، والنهاية للنحو، وفي كلِّ موقعِ ثلاث حالات، تفترضها المعنى، وتحكمها الدلالة[1]، مما يجعل الصائتَ يستأثر بالشيوع وبكثرة الدوران؛ لأنَّ مواقعه هي التي تُعطيه هذا الغِنى والثراء.

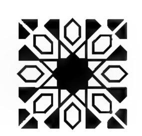
٣- والخطأ يكثُر فيه، فلو تتبعْنا اللحن الَّذي مسَّ اللغة -وما زال يمسها- سنجد أنَّه يقَع على الصائت؛ لذلك كان الصائت مِن الأسس الهامَّة لتعلُّم أية لُغة وتأديتها بقواعدها التي تحكمها، فالصائت في اللغة العربية يتغيَّر بتغيُّر أواخر الكلمات، ويتغيَّر بتغيُّر الصيغة.

٤- للصوائت أهمِّيَّة كبرى في إخصابِ اللغة وإثراءها في صِيغها المختلفة،

---

(١) تداعيات التعاقب والاستبدال الصوتي في تثليث عناصر المباني المعجمية الإفرادية- بحث: ١٢٦.

فاللُّغة العربية غنية بتنوُّعها؛ لأنَّ «الصوامت تعمل في البناء والصوائِت تعمل في التنويع»[1]، فهي تلون الكلمة من خلال المواقِع التي تتَّخذها، فتعمل في جميعِ المباني؛ «لأنَّ الأصل في الدَّلالة على المعاني الطارِئة على الأسماء أن تكون بحروف المدِّ واللين وأبعاضِها، وهي الحرَكات الثلاث»[2]، وهذه الوظيفة التي تقوم بها الصوائت يُعطيها هذا الشيوع، خاصَّة إنَّ الصوائت القصيرة -الحركات- إذ على الرغم من محدوديّة عددها كان لها هذا الدور المهمّ بالنظر إلى وظيفتها المشار إليها، وإن بدت في الظاهر أنها شيء تابع أو ملحق، وذلك بسبب من هامشيتها في مستوى الخطّ أو الكتابة، أي أنّها عبارة عن رموز تحتلّ مكانا فوق الحرف أو تحته ولا تتبعه مثلما تقرّه سلسلة الكلام المنطوقة. لهذا وحتى نعطي الحركات قيمتها الحقيقيّة لا بدّ أن نميّز بشكل دقيق بين المنطوق والمكتوب.



(١) المصدر نفسه: ١٢٨.

(٢) بدائع الفوائد: ١/٤٨.

المبحث الثاني

الصوامت وأشباه الصوائت والصوائت المزدوجة ونطقها

المطلب الأوَّل: الصوامت وأشباه الصوائت:

❖ الصوامت:

تُعدُّ الدراسة الصوتيَّة من أهمِّ المجالات التي اعتنى بدراستها وتفصيلها وبيانها العرب المسلمون، خدمة للقرآن الكريم، معتمدين في كل ذلك على الذوق والحس المرهف، فأضحت كتبهم، وما تحويه من درر نفيسة، المصدر الأوَّل، الذي لا يمكن للباحث المحدث الاستغناء عنها، لما لها من فضل السبق في البحث عن الظواهر الصوتية والقوانين النطقية التي يعمل الباحثون المحدثون على تطويرها بفضل معطيات العلم الحديثة من آلات وغيرها؛ إذ إنَّ معظم الظواهر الصوتيَّة قد تطرَّق إليها القدامى في مباحثهم الصوتيَّة، ومن بينها تفصيلهم بين الصوامت والصوائت، فقسَّموا الأصوات إلى صحيحة ساكنة وهي الصوامت، وأصوات اللين، وهي الصوائت[1]، وهذا ما أشار إليه علماء الصوت العرب منذ عهد مبكر لدى اعتبارهم الفتحة والكسرة والضمة، وألف المدّ، وياء المدّ، وواو المدّ: أصوات لين، وما سواها أصواتاً ساكنة.

وقد كان الاهتمام العربيَّ المبكِّر منصبًا على الصوامت وهي الأصوات الساكنة، فعبَّر عنها العلماء برموز كتابيَّة معيَّنة وأعطيت حيِّزاً كبيراً من الدرس والتأصيل.

الصامت: الصوت الذي له مكان نطق محدَّد ينتج بقدر كبير من التوتُّر والاحتكاك، وربَّما غلْق كامل لمجرى الهواء ثمَّ فتحه فجأة، وذلك بخلاف

(١) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٦.

حرف العلّة واللين، أي: الصوائت[1]، والصوامت في العربية أربعة أنواع:

١- **أصوات شديدة -انفجارية-:** وهي التي يسدُّ مجرى النفس عند النطق بها تماما، بأن يكون حبس النفس كلِّيًا، ثمَّ يحدث له انطلاق فجائي، مثل: الباء، والتاء، والدال، والضاد، والطاء، والكاف، والقاف، والهمزة[2].

٢- **أصوات رخوة- احتكاكية:** وهي التي لا يُسدُّ مجرى النفس تماما عند نطقها، فيضيق مجرى الهواء ولا يُسَدُّ ويمر محتكًّا بالعضوين الذين ضيقا مجراه، فيحدث النفس نوعا من الصفير أو الحفيف، وهذه الأصوات هي: الثاء، والحاء، والخاء، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والظاء، والعين، والغين، والهاء[3].

٣- **أصوات مركَّبة:** وهي الأصوات الناتجة عن حبسٍ للهواء يعقبه تضييق يولِّد احتكاكاً، وفي العربية صوت واحد بهذه الصفة هو صوت الجيم.

٤- **الأصوات المائعة:** وهي الأصوات التي يصاحبها اتِّساع أو تسرُّب في مجرى النفس في موضع آخر. وهذا يحدث لأصوات: الواو، والياء، والنون، والراء، واللام، والميم.

❖ **أشباه الصوائت:**

إنَّ أغلب اللغويِّين العرب القدماء لم يصرحوا بتقسيم الأصوات إلى الأصوات الصامتة، والأصوات الصائتة، وما يكون بينهما من "شبه الصائت" أو

---

(١) ينظر: أسس علم اللغة، ماريوباي: ٧٨.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية: ٢٦.

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب: ٦-٧.

"شبه الصامت" ولكن النظام الصوتيّ العربيَّ يشتمل على صويتين شبهي صائتين هما الواو والياء في مثل "وَيْح" و"يَوْم" ؛ فما نظرة القدماء إلى هذين الصوتين؟

يقول سيبويه عن الياء في "أن أُعْطِيَه" إنها «لما تحركت خرجت من أن تكون حرف لين، وصارت مثل غير المعتل، نحو باء "ضَرَبَه"، وبَعُدَ شبهها من الألف..»(١)، فيؤسِّس هذه الفكرة للاحقين بعده كي يرددوها أو يوسعوها أو ينقحوها؛ أما مرددوها فلا داعي للوقوف عندهم، وأما الموسعون والمنقحون فنذكر منهم أبا الفتح ابن جني، إذ يفسر جواز أمثال "غُيُر" و"عِوَض" في اللغة وعدم جواز أمثال "*مُيْسِر" و"*عِوْد" فيقول: «إنما جاز ذلك من قبل أن الياء والواو لما تحركتا قويتا بالحركة فلحقتا بالحروف الصحاح، فجازت مخالفة ما قبلهما من الحركات إياهما»(٢).

ويزداد تميز الواو والياء شبهي الصائتين وضوحا عند مكي القيسي وأبي عمرو الداني -القرن الرابع الهجري- وأمثالهما من المتأخرين إذ يقول القيسي: «حرفا اللين وهما: الواو الساكنة التي قبلها فتحة، والياء الساكنة التي قبلها فتحة، وإنما سميتا بذلك لأنهما يخرجان في لين وقلة كلفة على اللسان لكنهما نقصتا عن مشابهة الألف لتغير حركة ما قبلهما عن جنسهما فنقصتا المد الذي في الألف، وبقي فيهما اللين لسكونهما، فسميتا بحرفي اللين»(٣)، ويقول الداني: «فإن انفتح ما قبلهما زال عنهما معظم المدِّ، وانبسط اللسان بهما، وصارا بمنـــزلة سائر الحروف الجامدة»(٤)، وهذا ما يسمِّيه بعضهم بالسكون

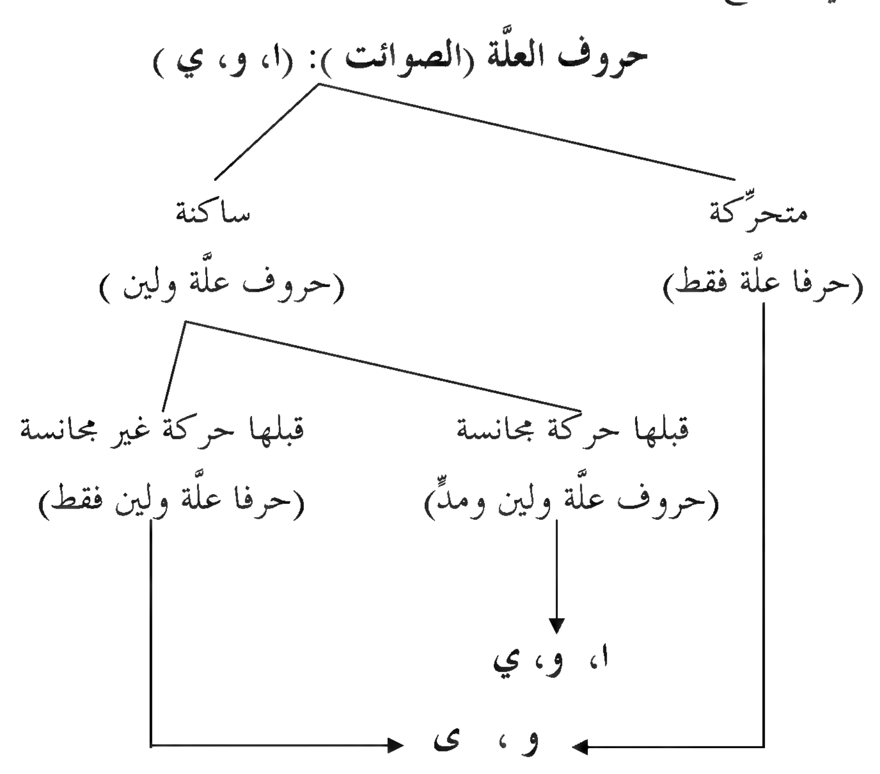
(١) الكتاب: ١٩٣/٤، ٤٦٩/٣، إذ وصف واو " جَدْوَل" بأنها حية.

(٢) سرُّ صناعة الإعراب: ٢٠/١.

(٣) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: ١٠١-١٠٢.

(٤) التمهيد في علم التجويد.

الحيّ"؛ لأنَّ لَّما انفتح ما قبلهما أخذ اللسان في "**الياء**" والشفتان في "**الواو**"، بخلاف ما لو كانت حركة ما قبلهما حركة مجانسة فإنَّهم يسمُّون السكون حينها ميِّتا؛ لأنَّه في هذه الحال لا يكون لهنَّ حَيِّز ولا مقطع[1]، وفي المخطِّط الآتي توضيح للصوائت وأحوالها:



ولعلَّ هذا اللين الذي يميِّز الياء والواو عن غيرهما من صوامت العربيَّة هو الذي أتاح لهما القيام بوظائف لغويَّة متنوِّعة، فهما تؤدِّيان من جهة وظائف لا تؤدِّيها إلا الصوامت، كتكوين جذور الاشتقاق في معجم هذه اللغة، وتشاركان من جهة أخرى الصوائت في أداء وظيفة الزوائد في الصيغ القياسية لاشتقاق الألفاظ من الجذور المعجميَّة، وتقومان بوظائف صوتيَّة

---

(١) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣٨.

وتركيبيَّة، وقد كان اللغويون القدماء يشيرون إلى بعض هذه الوظائف وإلى درجة تردُّد الواو والياء في الخطاب العربيِّ، فهذا ابن دريد يقول: «واعلم أنَّ الألف والياء والواو أمَّهات الزوائد، لأنَّهنَّ حروف المدِّ واللين»، ثمَّ يذكر أنَّ «أكثر الحروف استعمالاً عند العرب الواو والياء والهمزة»[1]، ويذكر ابن جني أنَّ كلّاً من الواو والياء «يكون في الكلام على ثلاثة أضرب: أصلا وبدلاً وزائداً»[2]، وسنذكر فيما يأتي من أهمِّ وظائفهما:

١- أنهما تشاركان بنصيبهما في تكوين جذور الاشتقاق ضمن معجم اللغة العربية، وهذا ما يقصده اللغويون عادة حين ينسبون إليها وظيفة الصوامت[3]، ولإتمام الفائدة نذكر الأصول والزوائد في الكلمات العربيَّة:

أوَّلاً: الأصول: وهي دائما صوامت يرمز لها في الأوزان بالحروف ف.ع.ل. كما هو معروف، وتقوم بهذه الوظيفة كل صوامت العربية الثمانية والعشرين.

ثانياً: الزوائد، وهي نوعان:

أ- الصوائت قصيرة كانت أم طويلة ترد في الميزان الصرفي كما ترد في الألفاظ الموزونة، ويقوم هذه الوظيفة كل صوائت العربية.

ب- صوامت، وليس المراد كلُّ الصوامت، بل قسم منها اختارها العربية

---

(١) جمهرة اللغة: ٤٨/١، ٥٠، وينظر أيضاً: شرح المفصل: ١٤١/٩.

(٢) الخصائص: ٥٧٣/٢، ٧٢٩.

(٣) ينظر: التصريف العربيّ من خلال علم الأصوات الحديث: ٥٣ ؛ ودراسة الصوت اللغويّ، الدكتور أحمد مختار عمر: ٢٨٣، وفي الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٤٢ ودروس في علم أصوات اللغة، كانتينو: ١٢٦.

من بين صوامتها الثمانية والعشرين لتسند إليها هذه الوظيفة الإضافية، وعددها سبعة هي "أ، ت، س، ل، م، ن، هـ".

والزوائد بنوعيها جمعت في قولنا: "**سألتمونيها**".

ويمكن أن نلحظ مقدار إسهام كلٍّ من الواو والياء في تكوين جذور أكبر معجم للغة العربية، وهو "**تاج العروس من جواهر القاموس**"، وذلك إذا انطلقنا من أن نسبة التردد الوسطي لكل صويت صامت من صويتات العربية هو ٢٨/١ (٣,٥٧%)، فندرك أن الواو تحتلُّ رتبة متوسطة (هي الثانية عشرة بنسبة ٣,٥١%) في تردُّدها العام خلال مجموع جذور تاج العروس ثلاثية ورباعية وخماسية، أمَّا الياء فتأتي في رتبة متأخرة نوعا ما (بنسبة ٢,٣٨%). وإذا اقتصرنا على الجذور الثلاثية وجدنا أن نسبة تردد كل من الواو والياء ترتفع لتحتل الواو الرتبة الثانية (بنسبة ٥,٨٩%)، والياء الرتبة العاشرة (بنسبة ٤,٠١%). ومعنى هذا أنه لا ينافس الواو الصامتة في قوة ترددها خلال الجذور الثلاثية إلا الراء (ونسبة ترددها ٥,٩٠%)، وأن الياء أكثر ترددا في هذه الجذور من ثمانية عشر صويتا تأتي دونها في الترتيب.

٢- للواو والياء وظيفة ثانية متميزة هي مشاركتهما بنصيبهما في تنويع صيغ الاشتقاق من الجذور المعجمية، عن طريق "زيادتهما"، وفق نظام توزيعي مطرد غالباً، ضمن أصول هذه الجذور وزوائدها الأخرى. ويقوم بهذه الوظيفة في العربية الصوائت بالدرجة الأولى وفئة قليلة من الصوامت[(١)].

لم يستعمل في النظام الصوتي للُّغة العربيَّة من أشباه الصوائت إلا اثنين

(١) ينظر: شرح المفصل: ١٤١.

هما "**الواو**"، و"**الياء**" اللذان عدَّها أغلب الدارسين ضمن الأصوات الصامتة في اللغة العربيَّة تحت عنوان فرعي استدراكي هو "أشباه الصوائت" أو ما في معناه، أو "**الواو، والياء**" مباشرة، أمَّا اللغويين العرب القدماء فقد تنبَّهوا إلى وجود نوعين من "**الياء**" ونوعين من "**الواو**"، و قد وسَّع بعض الدارسين مفهوم أشباه الصوائت ليشمل أصواتا أخرى غير "**الواو**"، و"**الياء**" المذكورين، خصوصاً الذين استعملوا مصطلحات غير "أشباه الصوائت"، ونذكر منهم "گليزون" و"أبركرومبي" و"شومسكي/هالي" والجمعية الصوتية الدولية(1).

ويُعَدُّ الدكتور إبراهيم أنيس من أوائل إنْ لم يكن أوَّل من خصَّهما بشيء من العناية والتمييز عن غيرهما فذكرهما تحت عنوان "أشباه أصوات اللين"، وذكر أنَّهما صوتان يستحقان أن يعالجا علاجا خاصا، لأنَّ موضع اللسان معهما قريب الشبه بموضعه مع أصوات اللين -الصوائت-؛ ومع هذا فقد دلت التجارب الدقيقة على أننا نسمع لهما نوعا ضعيفا من الحفيف، ثمَّ عاد ليأخذ استنتاج ابن جنِّيٍّ ويضيف عليه شيئاً من التفصيل فوازن بينهما وبين الضمَّة والكسرة في موضع النطق ونوعه، فذكر أنّ موضع نطق الواو والياء هو موضع نطق الضمة والكسرة تقريبا، غير أنَّ الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه في حالة النطق بصوت اللين، وكذلك الواو لا فرق بينها وبين الضمة إلا في أنَّ الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك في حالة النطق بالواو أضيق منه في حالة النطق بالضمَّة، ثمَّ يستخلص أنَّ كلا من الواو والياء صوت انتقالي لأنَّهما تتكوَّنان من موضعي الضمَّة والكسرة ثمَّ

---

(1) ينظر: مبادئ علم الأصوات العام، ديفيد أبروكرومبي: ١٢٢، وأشباه الصوائت في اللغة العربيَّة -نظامها ووظائفها- بحث: ١٠.

تنتقلان إلى مواضع صوائت أخرى، ولهذا ولقصرهما وقلّة وضوحهما السمعيِّ قياسا على الصوائت أمكن أن يعدَّا من الأصوات الساكنة -الصوامت-[1]، ثمَّ بين وجوه النقص في وصف القدماء لهذين الصوتين.

وفي المدَّة نفسها تناول "كانتينو" هذين الصوتين في مقال له صدر قبل كتابه حول علم أصوات العربية، فرأى أنَّ الصائتين الواو والياء المدِّيَّين معرَّضان لتحقُّقات خاصَّة في بعض المواضع، وهذه التحققات تقوم صرفياً بوظيفة الصوامت، وذكر أنه لا داعي لعدِّ شبهي الصائتين الياء والواو غير المدِّيَّين صويتين متميزين عن الصائتين الواو والياء المدِّيَّين وعرض أمثلة متنوعة تبين مختلف صور ورود الياء والواو في صيغ العربية ثمَّ استنتج من ذلك أنَّه لاوجود لصوائت مزدوجة أحادية الصويت في اللغة العربيَّة[2].

ومن جاء بعدهما فهو يسير في فلكهما، وينهل من معينهما فلم يضف شيئا مهمَّاً على ما قدَّما إلا ما فعله سلمان العاني في وصف نطقهما معتمداً في ذلك على التجربة والمختبر، فجاء وصفه في معظمه جديداً، إذ كان فيزيائياً أكثر منه نطقياً[3].

هذا التمييز الذي أنكره كثير من الدارسين العرب المحدثين، فاتَّهموا أسلافهم بالقصور أو التقصير إذ إنَّهم بزعمهم لم: «يقدموا لنا أي تعريف علمي لهذه الحروف، واكتفوا بالإشارة العارضة إلى وظيفة صوتية- صرفية من وظائفها. هذه الوظيفة، بحسب ما قرروا، هي كونها المادة الصوتية التي

(١) ينظر: الأصوات اللغويَّة، إبراهيم أنيس: ٤٢؛ واللسانيات العامة، روبرت هنري روبيتز، (مصدر إنجليزي): ٧٣.

(٢) ينظر: دروس في علم أصوات اللغة، كانتينو: ١٣٧.

(٣) ينظر: التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية: ٥٩.

تتألف منها أصول الكلمات مهما اختلفت صورها وصيغها الصرفيَّة»[1]. لكن القدامى كما سنرى أدركوا الفرق بين الاثنين، واعتنوا بالصوائت -طويلة كانت أم قصيرة-، أيَّما عناية معتمدين في ذلك على ذكائهم وفطنتهم، ثمَّ لَمَّا دعت الحاجة إلى ضبطها كتابيّاً لم يتوانوا في ضبط ذلك كما في جهد أبي الأسود الدؤليِّ، ثمَّ جهود الخليل رحمهما الله.

المطلب الثاني: نطق أشباه الصوائت والصوائت المزدوجة

❖ نطق أشباه الصوائت

إنَّ عمليَّة النطق لشبه الصوائت -الواو والياء- لوجدناها تحدث عن طريق انتقال المتكلِّم من صائت إلى شبه صائت أو العكس، ولذلك أطلق عليه بعض الدارسين "**الصائت المزدوج**" لأنَّه لا يتصوَّر أحدهما إلا بتصوُّر الآخر، ومن هنا عمَّم بعضهم مفهوم المزدوج ليشمل كل المجموعات الصوتية التي تتجاور فيها الصوائت، والتي لو حاولنا أن نستقصي صورها الممكنة لحصلنا مع الاقتصار على الصوائت الرئيسية الثلاثة: الفتحة والكسرة والضمة على اثنتي عشرة صورة يمكن تصنيفها إلى فئتين[2]:

أ – فئة ينطق ثاني عنصريها كما تنطق أشباه الصوائت ويبقى أولهما صائتاً خالصاً، وهي فئة **المزدوج الهابط** (أو المزدوج الحقيقي) مثل:

١- فتحة تتبعها ياء ساكنة "اَيْ" كما في "بَيْت".

٢- فتحة تتبعها واو ساكنة "اَو" كما في "كَوْن".

---

(١) علم اللغة العام -الأصوات، كمال بشر: ٧٦.

(٢) علم اللغة العام، دي سوسير: ٨٥-١٠٠، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربيّ: ١٨٠، ودراسة الصوت اللغويِّ، أحمد متار عمر: ١١٨.

٣- كسرة تتبعها ياء ساكنة "اِيْ" كما في "جِيْد، قِيْل".

٤- كسرة تتبعها واو ساكنة "اِوْ" كما في "مِوْزَان"، وتعدُّ الكسرة هذه من أندر الكسرات لثقلها فموزان تقلب إلى ميزان في النطق العربيّ وإن أردنا لها مثالا في العربيَّة نجده في حالات الإدغام كما في "**مِنْ وَرَاءِ**" من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾[1]، و"**مِنْ وَالٍ**" من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[2]، و"**مِنْ وَاقٍ**" من قوله تعالى وتقدَّس: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾[3]، فتنطق: "**مِوْوَرائهم**"، و"**مِوْوَال**"، و"**مِوْوَاق**"، علما أنَّ الواو هنا لم تكن خالصة؛ لأنَّ الإدغام هنا إدغام ناقص، أي: بغنَّة، إذ ذهبت النون، وبقيت غنَّتها في الواو، ولم نجد لها استعمالا في غير هذه الصورة، أي: الإدغام كما في الأمثلة التي ذكرناها، أمّا أن في بناء أصليٍّ، فلم تستعمل.

٥- ضمة تتبعها ياء ساكنة "اُيْ" كما في "مُيْسِر" وهي صيغة مهملة في العربيَّة.

٦- ضمة تتبعها واو ساكنة "اُوْ" كما في "رُوْح"، و"صُوْر"[4].

---

(١) سورة هود عليه السلام: ٧١.

(٢) سورة الرعد: ١١.

(٣) سورة الرعد: ٣٤.

(٤) علم اللغة العام، دي سوسير: ٨٥-١٠٠، وعلم اللغة مقدِّمة للقارئ العربيِّ: ١٨٠، ودراسة الصوت اللغويّ، الدكتور أحمد مختار عمر: ١١٨.

ب- وفئة ينطق أوَّل عنصريها كما تنطق أشباه الصوائت ويبقى الثاني صائتا خالصا وهي فئة **المزدوج الصاعد** (أو المزدوج المزيف) مثل[1]:

٧- ياء تتبعه فتحة "يَـ" كما في "يَذْهَب".

٨- ياء تتبعه كسرة "يـِ" كما في المقطع الأوسط من "بُويِعَ".

٩- ياء تتبعه ضمَّة "يُـ" كما في "يُذْهِب".

١٠- واو تتبعه فتحة "وَ" في "وَصْل".

١١- واو تتبعه كسرة "وِ" كما في "وِصَال".

١٢- واو تتبعه ضمة "وُ" كما في "وُجُوه".

ونظراً لتعدُّد الفتحات والكسرات والضمَّات، وقبولها للتطويل، فإنَّ عدد صور الازدواج الصائتي قابل للزيادة نظريا، ولكنَّ المستعمل منها يختلف بين لغة وأخرى، ففي اللغة العربيَّة تُعَدُّ الصورة الخامسة مهملة بينما تنطق كلُّ الصور الأخرى مع قبول الحركات في أغلبها للإطالة المميَّزة -المدِّ-.

❖ نطق الصوائت المزدوجة:

ممَّا يتَّصل بموضوع الصوائت ما يصطلح على تسميته بـ**"الصائت المزدوج"** أو الصائت المركب، وهو ترجمة لمصطلح أجنبيٍّ، وليس بالضرورة ما يكون في لغة أجنبيَّة ينطبق على اللغة العربيَّة، فلكلٍّ لغة نظامها، وخصائصها، ولئن شملت بعض اللغات الأعجميَّة أصواتاً من قبيل الصائت المزدوج، فلربما لحاجة أهلها لذلك، أو لضعف اللغة نفسها، وقلَّة في أصواتها، وعلى ما يظهر لنا

---

(١) لا يعدُّ **مالمبرغ** هذه الفئة صوائت مزدوجة، لأنها في نظره صوامت تليها حركات. ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرغ: ٤٤.

أنَّ العربيَّة ليس فيها صائتاً مزدوجاً، أو مركَّباً قائماً بنفسه، إلا ما يكون في الإمالة ونحوها، فهي في الأساس نغمة وليست صويتا، وسنبيِّن فيما يأتي إن شاء الله أسباب عدم وجود الصائت المزدوج في اللغة العربيَّة:

١- التحقيق النطقي للياء والواو الصامتتين ما هو إلا عملية انتقالية من صائت إلى شبه صائت أو العكس، وفي جرد الصور الممكنة لهذا الانتقال، في نطاق النظام الصوتي للعربية، يتبيَّن أنَّ جميع الصور التي يقتضيها التوزيع التأليفي للياء والواو غير المدّيتين مع الصوائت القصيرة والطويلة - جميع هذه الصور قد وردت لها أمثلة من الألفاظ العربية، باستثناء صورة واحدة لم نجد لها مثالا مستعملا، وهي الضمَّة التي تتبعها ياء ساكنة: "ـــُيـْــ"، والصور المستعملة منها ما هو كثير الاستعمال، ومنها ما هو قليل، ومنها ما هو نادر.

٢- إنَّ كلا من الواو والياء غير المدِّيتين تقع هامشا للمقطع إمَّا قبل قمته وإمَّا بعد هذه القمة، وهذا ما يؤكِّد صامتيَّتَهما وعدم كونهما جزءاً غير منفصل مما يسمى في لغات أخرى بــ"الصوائت المزدوجة"، بدليل إمكان استبدال غيرهما من الصوامت بهما، في جل مواقعهما، مع بقاء الصوائت المحيطة بهما، ويكفي لتأكيد هذا موازنة كلِّ مثال بميزانه الصرفي. ومعنى هذا أنَّ العربية ليس فيها "صوائت مزدوجة" على المستوى الصوتيِّ خلافاً لعبد الصبور شاهين الذي له رأي آخر، وإن كانت بعض التأليفات الصوتيَّة التي تتجاور فيها الصوائت مع الياء والواو الصامتتين تبدو على مستوى علم الصوت كأنَّها صوائت مزدوجة[1]؛

---

(١) ينظر: أشباه الصوائت في اللغة العربية -نظامها ووظائفها- بحث.

ولا ينبغي أن ننخدع ببعض الموازنات التي قد توحي بتقابل صوتي بين "الصائت المزدوج" من جهة وبين الصائت المفرد من جهة أخرى، كما في "عَيْلَم" و"عَلَم" اللذين مثل بهما "أ. أندريه رومان"[1]؛ فلم لا نقول هنا: إنَّ "عَلَم" تتقابل مع "عَيْلَم" كما تتقابل ألفاظ أخرى نحو: "**عَبْهَل**"، و"**عَيْهَل**"، و"**دَرَق**"، و"**دَوْرَق**" وغيرها، أي أن الياء في "عَيْلَم" يقابلها فراغ مكانها في عَلَم، كما يقابلها "فتحة" أخرى مكانها في "عَالَم"، أو بعبارة القدماء: الياء زائدة في "عَيْلَم" والألف زائدة في "عَالَم"، أما الفتحة التي بعد العين في الألفاظ الثلاثة فهي باقية في "عَلَم" وفي "عَيْلَم" ومطوَّلة في "عَالَم" بـــ"إضافة" فتحة أخرى إليها، وهكذا تتقابل الألفاظ الثلاثة بالصويتات.

٣- تتميَّز الياء والواو غير المدّيتين عن باقي صوامت العربية صوتيّاً وصرفيّاً؛ أمَّا تميزهما الصوتيّ فهو أصل تسميتهما بـــ"شبهي الصائتين"، وأمَّا تميزهما الصرفيّ فيتجلَّى في كونهما "ليّنتين" إلى درجة إمكان ورودهما مع صامتين آخرين في بعض صيغ العربية، مثل "**دُوَيْـــبَّة**" ومعلوم أن النظام المقطعي للعربية لا يقبل تجاور أكثر من صامتين. ومن نتائج هذا اللين في الياء والواو أنَّ تجاورهما مع الصوائت، أو فيما بينهما ليس حرّاً، بل هو خاضع لعدد من القيود؛ إذ قد تقع إحداهما في بعض الصيغ القياسيَّة مواقع "ضعف" تعرضها لـــ"التعديل" -الإبدال- أو "الحذف".

٤- تقوم الياء والواو الصامتتان بأداء وظيفة لغوية ثالثة: هي المشاركة في

---

(١) ينظر: دراسة علم الأصوات والصرف في العربيَّة الفصحى، أندريه رومان (مصدر فرنسيٌّ): ٣٤١.

تكوين بعض الوحدات اللغوية "**المبنيَّة**" الكثيرة الشيوع في الخطاب العربيِّ، وهي "**حروف المعاني**" و"**الأسماء الموصولة**" و"**الضمائر**" و"**أسماء الإشارة**" و"**بعض الظروف**".

٥- للياء الصامتة وظيفة خاصَّة لا تشاركها فيها الواو الصامتة، وهي كونها علامة تثنية وإعراب في المثنى المنصوب، والمجرور.

الخلاصة:

تنقسم الأصوات اللغويَّة إلى قسمين رئيسين: الصوامت والصوائت، وتختلف نسبة كلِّ نوع من لغة إلى أخرى، والعربيَّة نسبة الصوائت قليلة فقد ضمَّت ستَّة صوائت منقسمة إلى نصفين طويلة، وقصيرة.

وعلى الرغم من قلَّة عدد الصوائت فإنَّها ذات أهمِّيَّة كبيرة في اللغة، ولا غنى عنها فهي التي تُخرِج الصامتَ مِن سكونه، وتساعِد الصوامت على الاتِّصال ببعضها؛ فهي كالقنطرةَ التي تربط الصوامتَ في السلسلة الكلاميَّة، كما أنَّها مصاحبة دائما لحرف الافتتاح في الكلام فمِن قواعد التلفُّظ في العربية عدمُ الابتداء بالساكِن، ولا يُبتدأ بالصائت، ولكن الصامِت لا يُنطق إلاَّ إذا كانتِ الدفعة والدفقة مِن الصائت، ولولاه لكانتِ الصوامت ساكنةً لا نفعَ فيها، فهو يمثِّل نواةَ المقطع، الذي يعتبر أصغرَ وحدة صوتية في الكلام، ولما كانتِ الصوائت أساساً في بِناء السلسلة الكلامية، أصبحتْ أكثرَ شيوعاً ودوراناً في الكَلام، فمنها كل الصيغ الصرفية المختلفة، والوفرة في تعدُّد المعاني، فيكفي لتغيير صائِت فيتغيَّر المعنى، فخواصُّها الصوتية تساعدها على البروز والدوران.

كما أنَّها سهلة التعامل في الأبنية الكلاميَّة فمرَّة تحذف، ومرَّة تزاد، وتتخذ أحيانا أشكالاً في النطق كالإمالة، والروم والإشمام والاختلاس، وذلك يعود لسعة مخرجها وسهولة تدفُّق النفس أثناء النطق بها.

الفصل الرابع

المتغيِّرات في الأداء الصوتيَّ

- **المبحث الأوَّل**: مدُّ الصوائت

المطلب الأوَّل: المدُّ ودرجته.

المطلب الثانيّ: أسباب المدِّ.

- **المبحث الثانيّ**: الإمالة:

المطلب الأوَّل: حروف الإمالة وشروطها.

المطلب الثانيّ: الروم والإشمام والتضعيف والاختلاس.

- **المبحث الثالث**: التغيُّرات الصوتيَّة:

المطلب الأوَّل: الزيادة والقلب ولإبدال.

المطلب الثاني: الحذف.

توطئة:

تتعرَّض الأصوات أثناء عمليَّة النطق إلى بعض الظواهر الصوتيَّة، مراعاة لسهولة النطق وجماليَّته، وخاصَّة في حالة شيوع الصوت آثاراً وظواهِر يخلفها، وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى ذلك فقال: «الصوت اللُّغوي إذا شاع استعمالُه كان عرضةً لظواهر لُغوية نسميها حيناً إبدالاً، وحيناً آخر إدغاماً، وقد يتعرَّض للسقوط مِن الكلام»(١)، فهذه تبعات شيوع الأصوات، وهذا ما نلاحِظه على الصوائت؛ إذ يكثُر التناوب بينها، وذلك بتقارب الانطباعات السمعيَّة التي تحدِثها هذه الأصوات، وهذا التناوب سَمَاعي وليس قياسيّاً، وهو في حدود ضيِّقة جدّاً؛ إذ كثيراً ما يغير هذا التناوب في المعنى وهو ما نراه في ظاهِرة المثلَّثات العربية؛ كقولنا: البَهار والبِهار والبُهار، بالفتْح نبت له نورٌ أصفر، وبالكسر جمع بهرة وهي وسط كلِّ شيء، وبالضم إناء كالإبريق(٢)، وهذا التناوب عُزي إلى لهجات عربية، وقد نجد التناوُب بين الصوائت مِن صيغة إلى أخرى، من التحوُّل من صيغة إلى أخرى، وهذه الظواهر تختلف باختلاف طبيعة الأصوات، فمنها ما يكون خاصًّا بالصوامت، ومنها ما يكون خاصٌّ بالصوائت، ومنها ما يكون مشتركا بينهما، وتعود هذه الظواهر في الغالب إلى الصِّلات الَّتي تربط هذه الأصْوات بعضها ببعض في كلِمة واحدة(٣)، وفيما يأتي توضيح لهذه التغييرات:

---

(١) الأصوات اللغوية: ١٩٤.

(٢) في الأصوات اللغوية- دراسة في أصوات المد العربية: ٢٩٧.

(٣) ينظر: التطور اللغويُّ: ١٧.

المبحث الأوَّل

مدُّ الصوائت

المطلب الأوَّل: المدُّ ودرجته:

إنَّ ظاهرة المدِّ في الصوائت لم تكن واحدة في جميع الصوائت ولا في جميع الحالات فالمدّ الذي في الألف أكثر منه في الياء والواو؛ لأنَّ اتِّساع الصوت بمخرج الألف أشدُّ من اتِّساعه لهما؛ لأنَّك قد تضم شفتيك في الواو، وترفع لسانك قبل الحنك في الياء، وتسمى أيضاً حروف اللين لضعفها وخفائها(١).

فللمدِّ في الواو والياء حالتين مختلفتين هما:

١- حال المدِّ الكامل، وعبر عنها بمصطلحي «الواو الساكن بعد الضمة والياء الساكنة بعد الكسرة»(٢).

حالة الواو والياء إذا تحركتا أو جاءتا بعد فتحة وهي الحالة التي «أطلق فيها على الواو والياء مصطلح نصفي مدٍّ»(٣)، وهي الفكرة نفسها التي أيدتها الدراسات الصوتية الحديثة(٤)، أمَّا إذا سبقت صامتا ساكنا فإنَّها تسقط؛ لأنَّ الألف اللينة والياء بعد الكسرة والواو بعد الضمَّة إذا لحق بهنَّ حرف ساكن سقطن كقولك في الألف: "**هذه حبلى الرجل، ومعزى القوم**" فكأنَّك قلت: "**حُبْلَ رَّجُل، ومَعْزَلْ قَوم**"، وفي الواو تقول: "**يغزو القوم، ويدعو الناس**"

---

(١) ينظر: التحديد في الإتقان والتجويد: ١٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٢.

(٣) ينظر مثلاً: الأصوات اللغوية، لإبراهيم أنيس: ٤٢-٤٣، أو علم اللغة العام- الأصوات، لكمال بشر: ٨٣ وما بعدها.

(٤) تهذيب اللغة: ٥٢/١.

كأنَّك قلت: "**يَغْزُ لْقوم، ويَدْعُنْ نَاس**"، وفي الياء تقول: "**يرمي الرجل، ويقضي الحق**"، فكأنَّك قلت: "**يَرْمِرْ رَجُل، ويَقْضِ لْحَقّ**"[(١)]، وقد يؤدِّي هذا النوع الحذف إلى اسقاط الصائت من الرسم كما ورد في القرآن الكريم في كلمة: "**أَيُّهَ**" وأصله "**أَيُّها**"، فرسمت من غير ألف بعد الهاء في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ**﴾[(٢)]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[(٣)]، وقوله جلَّ وعزَّ وعلا: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[(٤)]، فيوقف عليها جميعاً بالهاء وقفاً اضطرارياً أو اختبارياً فقط[(٥)].

٢- المدِّ بسبب الإعراب: ويكون في المدِّ المتَّصل نحو: "**السَّمَاءِ**"، و"**يشاء**" فإن كان مجروراً نحو: "**من السَّمَاءِ**" ففيه خمسة أوجه، وهي: مدُّه أربعا، أو خمساً، أو ستّاً مع السكون المحض، ومدّه أربعا أو خمسا مع الروم، وقد تقدَّم أنَّ الروم كالوصل، وليس في السماء وصلا إلا أربع حركات، أو خمس.

وإن كان مرفوعاً نحو: "**يَشَاءُ**" ففيه ثمانية أوجه: وهي مدُّه أربعاً، أو خمساً، أو ستّاً مع السكون المحض، ومع الإشمام، ومدُّه أربعاً، أو خمساً مع الروم[(٦)].

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤/١٥٦-١٥٧.

(٢) سورة النور: ٣١.

(٣) سورة الزخرف: ٤٩.

(٤) سورة الرحمن: ٣١.

(٥) ينظر: فتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد: ١٢٥.

(٦) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٢٩.

ملحوظة: إذا اجتمع سببا مدٍّ يعمل بالأقوى، ويترك الأضعف، **ممَّا** يعطي درجة أقوى للمدِّ، نحو قوله جلَّ وعزَّ وعلا: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾[1]، فإنَّ **"الواو"** في **"جَاءُواْ"** اجتمع فيها في حالة الوصل مدُّ البدل والمد الجائز المنفصل فطرح سبب البدل في الوصل، وعمل بالمدِّ الجائز المنفصل؛ لأنَّه أقوى.

وكذلك وقوله جلَّ وعلا: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[2]، اجتمع فيها سببان: البدل، والمتَّصل، فطرح البدل، وعمل بالمتَّصل؛ لأنَّه أقوى[3].

وترتيب المدود من حيث القوَّة موضَّح فيما يأتي[4]:

١- **المدُّ اللازم بأنواعه:** اللازم الكلميّ المثقَّل[5]، واللازم الكلميّ المخفَّف[6]، واللازم الحرفيُّ المثقَّل[7]، ....

(١) سورة يوسف عليه السلام: ١٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٣) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩-٣٨.

(٥) و هو أن يأتي بعد حرف المد ساكن لازم مصحوب بالإدغام أو التشديد، مثل "الطَّآمَّة"، و"الصَّاخَّة"، و"تَأْمُرُونِّي". سمي كلمياً لوقوع المد في كلمة، ومثقلاً لوجود الإدغام أو التشديد معه. ينظر: قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود: ٩٨.

(٦) وهو: إذا كان الساكن اللازم بعد حرف المد ليس بمدغم ولا مشدد و لم يقع منه في القرآن إلا في كلمة "**ءَالآنَ**" الاستفهامية، في موضعين بيونس: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، وقوله عزَّ من قائل: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. ينظر: المصدر نفسه: ٩٩.

(٧) وهو ما يكون في الحروف المقطعة من فواتح السور، فإذا كان الساكن اللازم مصحوباً بالإدغام سمي مثقلاً، نحو"**آلم**"، و"**طسم**". ينظر: المصدر نفسه: ٩٩.

واللازم الحرفيّ المخفَّف[1]، ويلحق به مدُّ الفرق[2]، ومدُّ الفرق كلُّه سكونه أصليٌّ، فهو ملازم له في حالتي الوصل والوقف.

٢- المدّ الواجب المتَّصل[3].

٣- المدُّ العارض للسكون[4]، ويلحق به مدُّ اللين[5].

٤- المدُّ الجائز المنفصل[6]، ويلحق به مدُّ الصلة الكبرى[7].

---

(١) وهو ما يكون في الحروف المقطعة من فواتح السور: إذا كان خالياً من الإدغـــام، مثل: "**ن**"، و"**ق**"، و"**ص**"، و"**يس**"، و"**حم**". ينظر: المصدر نفسه: ٢٩-٣٨.

(٢) وهو ما اجتمع في أوَّله همزتان وإدغام فتخفَّف الثانية وتمدُّ كاللازم، وسمي فـــرق، لأنَّه يفرَّق به بين الخبر والاستفهام، ولولا المدُّ لتـــوهِّم أنَّ الكـــلام خـــبر نحـــو "**ءَالذَّكَرَيْنِ**" و"**ءَاللهُ** ". ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣٤.

(٣) هو أن يجتمع حرف المدِّ وسببه في كلمة واحدة، أي: اتصلت الهمزة فيه بحرف المدِّ نحو "**السَّمَاءَ**"، و"**السُّوْء**"، و"**سِيْءَ**" وسمِّي متصلاً لذلك، وأما تسميته واجباً فلأنَّ القراء أجمعوا على وجوب مده. ينظر: قواعد التجويد على رواية حفـــص عـــن عاصم بن أبي النجود: ٩٧.

(٤) وهو ما يعرض بعد حرف المدِّ من السكون بسبب الوقـــف نحـــو "**الكتـــاب**"، و"**الوجوه**"، و"**السنين**". ينظر: المصدر نفسه: ٩٩.

(٥) سبق القول بأنَّ "**الواو**" و"**الياء**" إذا سكنتا وانفتح ما قبلهما كانتا لينـــتين، فـــإن وصلت امتنع فيهما المدُّ، وإن وقفت فحكمهما حينئذ حكم العارض للـــسكون، مثاله: "**خَوْف**"، و"**البْيت**". ينظر: المصدر نفسه: ١٠٠.

(٦) وهو ما انفصل فيه حرف المدِّ عن سببه فكان كل منهما في كلمة نحو: "**مَا أَنزل**"، و" **قُوْا أنْفُسكُم**"، و"**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**"، وسمي منفصلاً لانفصال الهمزة فيـــه عن حرف المد، وسمِّي جائزاً لجواز قصره ومده. ينظر: المصدر نفسه: ٩٧.

(٧) هو إشباع حركة هاء الضمير التي يكنى بها عن المفرد الغائب المذكر إذا وقعت بين متحرِّكين، وكان ما بعدها همزة نحو "عندهُ إلا" و"علمهِ إلا". ينظـــر: المـــصدر نفسه: ١٠٠.

٥- مدُّ البدل[١].

٦- المدُّ الطبيعيُّ[٢]، وما يلحق به، وهو مدُّ الصلة الصغرى أو القصيرة[٣]، ومدُّ العوض[٤]، ومدُّ التمكين[٥].

المطلب الثاني: أسباب المدِّ:

ينقسم المدُّ إلى قسمين: "**أصليٌّ**"، و"**فرعيٌّ**"، فأمَّا الأصليُّ فهو المدُّ الطبيعيُّ الذي لا تقوم ذات الحرف إلا به، وهذا لا يرتبط بسبب، وإنَّما يمثِّل النطق الطبيعيَّ للصائت، ويسمَّى طبيعيّاً؛ لأنَّه من طبيعة الحرف فلا يمكن أن

---

(١) هو ما كان فيه حرف المد بدل عن الهمزة الساكنة التي أبدلت "**ألفاً**"، أو "**واواً**"، أو "**ياء**" نحو "**آدم**"، و"**أُوتوا**"، و"**إِيمان**"، إذ أصلها: "**أَأْدم**"، و"**أُؤْتوا**"، و"**إئمانً**". ينظر: المصدر نفسه: ٩٨.

(٢) المدُّ الطبيعيُّ هو الذي لا تقوم ذات الحرف إلا به، وهو ما كان حرف مدٍّ غير مرتبط بهمز، ولا سكون، ولا تمكين. ينظر: المصدر نفسه: ٩٦.

(٣) هو إشباع حركة هاء الضمير التي يكنى بها عن المفرد الغائب المذكر إذا وقعت بين متحرِّكين، ولم يكن ما بعدها همزة، نحو "**لَهُ مَا**"، و"**بِهِ عَلِيْماً**". ينظر: المصدر نفسه: ١٠٠.

(٤) وهو ما يكون المدُّ فيه عوضا عن تنوين الفتح، نحو "عليماً"، و"ماءً"، أو عوضاً عن "النون" في كلمات مخصوصة، نحو كلمتي "**لَيَكُوناً**"، و"**لَنَسْفَعاً**"، ويكون في حالة الوقف خاصَّة، أي: إنَّ التنوين تقرأ ألفا، وسمِّي عوضا؛ لأنَّه عوِّض عن التنوين بالألف. ينظر: المصدر نفسه: ١٢٦.

(٥) وهو ما اجتمعت فيه ياءان الأولى مشدَّدة والأخرى متحرِّكة نحو "**النبيِّيْن**"، و"**وحيِّيْتم**"، أو اجتمع فيه حرفا مدٍّ الأوَّل ساكن والآخر متحرِّك نحو "**اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ**"، و"**الذِيْ يُوَسْوِسُ**"، وسمِّي تمكينا لتمكُّن حرف المدِّ فيه من اظهار مدِّه. ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣١.

تقوم ذاته إلا به، ولأنَّ صاحب الطبع السليم لا ينقصه عن حدِّه، ولا يزيد عليه، ويسمى أيضاً بالمد الأصلي، وبمد الصيغة، وهو لا يكون مرتبطا بهمز، ولا سكون[1]، فيما يتعلّق بالمدِّ الفرعيِّ أنَّه ظاهرة من ظواهر الزيادة لأحرف الكلمة العربيَّة والتي تستدعي زيادة في المعنى حيناً، وزيادة في النغم والجرس حينا، وما قد يضطرُّ إليه اضطراراً حيناً، ولم يكن ظاهرة صوتيَّة مفرغة من أيِّ غرض، أو فائدة، وفيما يأتي توضيح لهذه الأسباب:

❖ أسباب لفظيَّة:

١- **الإبدال:** ويكون في إبدال الهمزة بصائت من جنس الصائت القصير -الحركة- الذي يسبقها، ويكون هذا في حالات عدَّة هي:

أ - **الوقف**، نحو قول بعض العرب: "**هو الوثو**" بدل "**الوثؤ**" فيجعل الهمزة "**واواً**" حرصاً على البيان. ويقول من "**الوثي**" بدل "**الوثيء**" فيجعلها ياءً، و"**رأيت الوثا" بدل "الوثْأ**" يسكن الثاء في الرفع والجر؛ وهو في النصب مثل القفَا[2] فرأينا كيف حصل عندنا المدِّ من إبدال الهمزة بصائت من جنس الحركة التي قبلها.

ب- **التخفيف:** ويكون في الهمزة الساكنة سكونا أصليّاً فإنَّ بعض العرب يقلبها من جنس الصائت القصير -الحركة- الذي قبلها؛ نحو "**راس**" تخفيف "**رأس**" و"**جونة**" تخفيف "**جؤنة**" و"**ذيب**" تخفيف "**ذئب**"، ولا تشمَّ؛ لأنَّها ألف كألف مثنى، فإنْ كان ما قبلها مضموماً لزمها الواو، نحو "**أكمُو**"

---

(١) ينظر: الوجيز في علم التجويد: ٣١، قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم ابن أبي النجود: ٩٦.

(٢) ينظر: الكتاب: ١٧٨/٤.

تخفيف "**أكْمُؤ**" وإنْ كان مكسوراً لزمها الياء نحو "**أهنِي**"، تخفيف "**أهنِئ**" وتقديرها "**أهنع**"، فإنَّما هذا بمنـــزلة جونةٍ وذيبٍ، ولا إشمام في هذه الواو؛ لأنَّها كواو "**يغزو**"، لكنْ إنْ كانت الهمزة مسبوقةً بساكنٌ فخففت فالحذف لازم، ويلزم الذي ألقيت عليه الحركة ما يلزم سائر الحروف غير المعتلة من الإشمام؛ وإجراء الجزم؛ وروم الحركة؛ والتضعيف، نحو قولنا: "**هذا الوث**"، و"**من الوث**" و"**رأيت الوث**" و"**الخب**" و"**رأيت الخب**"؛ و"**هو الخب**" ونحو ذلك[1].

ت- **التسهيل**: وهو يشبه الذي قبله إلا أنَّه يختلف عنه أن تجتمع همزتان الأولى متحرِّكة، والثانية ساكنة، فتسهَّل الثانية بأن تقلب صائتا طويلا من جنس حركة الهمزة الأولى، كما في "آدم" فإنَّ أصلها "أَأْدَم"، وأُوتوا" فإنَّ أصلها "أُأْتُوا"، و"إِيْمَان" فإنَّ أصلها "إِإْمَان".

٢- **المجانسة للمجاورة**: ويكون هذا بإبدال الصائت القصير -الحركة- بآخر من جنس ما يجاوره، وعمدوا إلى ذلك تسهيل النطق، وخفَّة اللفظ، وقد دعاهم إيثار قرب الصوت إلى أن أَخلُّوا بالإعراب، نحو "الحمدُ لله"، نطقها بعض العرب: "الحمدِ لله" بخفض "**الدال**" للمجاورة وهو قربه من حركة ما بعده[2].

٣- **العوض**: وهو ما يكون عوضا عن صوت آخر، ويكون في صوتين هما "النون"، و"التنوين"، فقد جاء في كلمات مخصوصة، نحو كلمتي "**لَيَكُوناً**" و"**لَنَسْفَعاً**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٤/١٧٨-١٦٩.

(٢) ينظر: الخصائص: ٢/١٤٥.

فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[1]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾[2]، و"**إذاً**" أينما وردت بهذا الرسم، أمَّا إن رسمت بالنون، فلا تبدَّل ألفا بأيِّ حال، كلها تقرأ بالنون وصلاً وبالألف وقفاً[3].

وأمَّا التنوين فيكون في الوقف على تنوين النصب خاصَّة ما لم يكن على التاء المربوطة -المدوَّرة- فإنَّها يوقف عليها بالهاء، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾[5]، ففي حالة الوقف على "**فِراشاً**"، أو "**بِناءً**"، أو "**مَاءً**"، أو "**رِزْقًا**"، أو "**أَنْداداً**"، **أو** "**صحفا**" فإنَّه يوقف عليها بالألف، وكلمة " مطهَّرة " لم تمدَّ على الرغم من أنَّ تنوينها نصبا؛ لأنَّها تاء مربوطة -مدوَّرة- فتنطق في الوقف "**هاء**".

٤- بيان الحرف، بعض الحروف يكون خافتاً، أو ضعيفاً، أو خافياً، فإذا جاء بعد الصوائت فإنَّه سيؤثِّر فيها، ويتأثَّر بها، فيحتاج المتكلِّم إلى المدِّ ليبيِّن الحرف الصائت، أو الذي بعده ويكون ذلك في حالات:

---

(١) سورة يوسف عليه السلام: ٣٢.

(٢) سورة العلق: ١٥.

(٣) ينظر: قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود: ١٢٦.

(٤) سورة البقرة: ٢٢.

(٥) سورة البيِّنة: ٢.

أ - السكون، سواء كان أصليّاً، أم عارضاً، فإذا لحق بالصائت -حرف المدِّ- سكون احتجنا إلى مدِّ ذلك الصائت ليُعطَى وضوحا في النطق، وبيانا في السمع؛ لأنَّ السكون يقتضي انقطاع تامٌّ للصوت، فيحتاج معه إلى اعطاء مدَّة أطول للصائت؛ ليتمكَّن من حيِّزه في الكلام، ولو لم يؤت بالمدِّ قبل السكون، لنقص مقدار الصائت عن حدِّه الطبيعيِّ ممَّا يحدث خللا في البناء الصوتيِّ للكلام، كما أنَّ في المدِّ تخلُّص من التقاء الساكنين، ولا يكون السكون سبباً للمدّ إلا إذا كان بعد حرف المدّ بخلاف الهمزة فإنَّها تكون سببا للمدِّ سواء كانت سابقة كما في مدِّ البدل، أو مسبوقة كما في المدود الأخرى المتعلِّقة به.

ب- الهمزة، إذا لحقت الهمزة بحرف المدِّ، فإنَّه يكون بحاجة إلى أن يمدَّ ليتَّضح حرف المدِّ في النطق، ويتبيَّن للسامع نحو "السماء"، و"يشاء"، و"سوء"، و"جيء"... إلخ؛ لأنَّ «الهمزة حرف جلد بعيد المخرج صعب على اللافظ به، بخلاف سائر الحروف»[1]، فيحتاج معه إلى إطالة الصوت بالصائت، أي: الإتيان بالمدِّ، ولو لم يؤت بالمدِّ قبل الهمزة، لنقص مقدار الصائت عن حدِّه الطبيعيِّ ممَّا يحدث خللا في البناء الصوتيِّ للكلام، وذلك لصعوبة مخرج الهمزة، فهي تحتاج للنطق بها انقطاع تامٌّ للنفس، فتكون كالوقفة اليسيرة التي معها يحتاج إلى اعطاء مدَّة أطول للصائت؛ ليتمكَّن من حيِّزه في الكلام، ولذلك كانت أكثر المدود مرتبطة بمجيء الهمزة بعد حرف المدِّ -الصائت-، لما في مخرجه من الصعوبة.

---

(١) الكشْف عن وجوه القراءات السَّبع وعِلَلها وحججها: ٧٢/١، وينظر: شرح المفصل: ١٠٧/٩.

ت- الوقف على الصائت -حرف المدِّ-: عند الوقف على الصائت تضعف قوَّة الصوت، فيحتاج إلى بيانه فيه بالهاء نحو: "**واغلاماه**" و"**وازيداه**" و"**واغلامهوه**" و"**واغلامهيه**"؛ فيكون المدُّ كاملاً؛ لأنَّ المتكلِّم لمّا أردت تمكين الصوت وتوفيته ليمتدَّ ويقوى في السمع، والوقف يضعف الحرف ألحق الهاء ليقع الحرف قبلها حشوا فيبين ولا يخفى[1].

ج- هاء الضمير الغائب، تشبع حركته حتَّى تجعل صائتا طويلا، وذلك في حالة ضمِّه وكسره إنْ كان بين متحرِّكين نحو "بِهِ عَلِيْما"، "**بِهِ أُوْلَئِكَ**"، و"**لَهُ مَا**"، و"**عِنْدَهُ إِلا**" وهذا هو مدُّ الصلة، فلو لم يمدَّ لما عرفت هاء الضمير، واختلطت بغيرها من الكلمات، فمثلاً لو لم تمدَّ "**لَهُ مَا**" لنطقت هكذا "لهما" وأوقعت لبسا، كما أنَّ الهاء لم تنطق كاملة في حالة عدم المدِّ؛ لأنّ وفعلوا هذا بالهاء لأنَّ الهاء يمتاز بالضعف، فهو ضعيف جدّاً[2].

ح- اجتماع ثلاثة صوائت من جنس واحد، وهو أن يكون الأوَّل مشدَّداً وما بعده ساكنا، فحينها يحتاج إلى أن يمدَّ الساكن، ليأخذ مكانه من البيان الصوتي، نحو "**النبيِّيْن**"، و"**حُيِّيْتُم**"، ويسمَّى هذا المدُّ مدُّ التمكين، لتمكُّن الصائت الساكن من اظهار مدِّه، ولو لم يمدَّ لاختفى من الكلام، وصار كأنَّه حركة لما قبله[3].

خ- اجتماع صائتين من جنس واحد يكون الأوَّل ساكناً، والآخر متحرِّكاً، نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[4]،

---

(١) ينظر: الخصائص: ٢/٣٢٨.

(٢) ينظر: الكتب: ٤/١٧٩-١٨١.

(٣) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣١.

(٤) سورة آل عمران: ٢٠٠.

ومثال الياء قوله تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾[1]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾[2][3]، فالواو في كلٍّ من "**اصْبِرُواْ**"، "**رَابِطُواْ**"، "**اتَّقُواْ**" ساكنة، وقد لحقت بها واو متحرِّكة، والياء في "**الذي**"، في الآيتين ساكنة، وقد لحقت بها ياء متحرِّكة، فيُحتاج فيها إلى المدِّ لتتمكَّن من اظهار مدِّها، ولو لم تمدّْ لأدغمت فيما بعدها ادغام مثلين، وهو أحد نوعي مدِّ التمكين، وإنَّما يجوز الإدغام إذا كان الحرف لينا، أي: واو، أو ياء ساكن مفتوح ما قبله[4].

٥- **بيان الحركة**: ويكون ذلك في حالة "الوقف"، إذ تنقل حركة الساكن لأجل الوقف إلى الساكن الذي قبله لبيان حركة ما سكِّن للوقف، ويكون هذا فيما لحقه هاء الضمير، فتنقل حركة هاء الضمير إلى ما قبله ليكون أبين لها نحو: "ضربْته"، و"اضربه"، و"قده"، و"منه"، و"عنه" فورد عن بعض بني تميم من بني عديٍّ يقولون: قد ضربته وأخذته، كسروا حيث أرادوا أن يحركوها لبيان الذي بعدها لا لإعراب يحدثه شيءٌ قبلها، كما حركوا بالكسر، إذا وقع بعدها ساكنٌ يسكن في الوصل، فإذا وصلت أسكنت جميع هذا؛ لأنَّك تحرك الهاء فتبين وتتبعها واواً؛ كما أنَّك تسكن في الهمزة إذا وصلت فقلت: هذا وثءٌ كما ترى؛ لأنَّها تبين. وكذلك قد ضربته فلانة؛ وعنه أخذت؛ فتسكن كما تسكن إذا قلت: عنها أخذت. وفعلوا هذا بالهاء لأنَّها في الخفاء نحو الهمزة[5].

---

(١) سورة الماعون: ١.

(٢) سورة الناس: ٥.

(٣) سورة آل عمران: ٢٠٠.

(٤) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣١.

(٥) ينظر: الكتب: ٤/١٧٩-١٨١.

٦- **الشبه**، وهو ما يكون من تشابه بناء بعض الكلمات، بهيئة بعض الممدود فيلحق بها للشبه، وهو في الحقيقة ليس منها، كما في "**نَبِّئُونِي**" فإنَّ بنائها النحوي اقتضى مجيء الواو بعد الهمزة فشابهت صورة مدِّ البدل، فألحقت به، وكذلك "**إِسْرَائِيْل**" فإنَّ بنائها الصوتيّ اقتضى مجيء الياء بعد الهمزة فشابهت صورة مدِّ البدل، فألحقت به، وما ألحق بمدِّ الصلة "**هَذِهِ سَبِيْلِي**"، و"**هَذِهِ بِضَاعَتُنَا**" فالهاء في "**هذه**" ليست هاء ضمير، وإنّما شابهتها من ناحيتي "**الإضمار**"، و"**الزيادة**" فأعطيت حكمه من المدِّ[1].

❖ **أسباب دلاليَّة:**

١- **التعظيم**: يريد المتكلِّم أحيانا إلى بيان أهمِّيَّة كلمة، أو اسم فيحتاج إلى المدِّ؛ ليوحي بذلك من خلاله؛ لأنَّ المدَّ يوحي بالتفخيم أو إثارة الانتباه للكلمة الممدودة لدى القارئ والمستمع.

٢- **التفريق بين الخبر والاستفهام**، ويكون في اجتماع همزة الاستفهام، وهمزة الوصل، فيحتاج حينها أن تقلب همزة الوصل صائتاً، وتمدَّه مدّاً طويلاً للدلالة على أنَّ الكلام استفهام وليس خبر، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾[2]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[3]، وقوله تبارك وتعالى وتقدَّس: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، ففي هذه الكلمات "**ءَالذَّكَرَيْنِ**"، "**ءَالله**" في الآيتين الأخريين، لو لم يمدَّ لما علم أنّه استفهام، ولظنَّ من يسمع أنَّ الكلام خبراً.

---

(١) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣١، ٣٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٤٣.

(٣) سورة يونس عليه السلام: ٥٩.

(٤) سورة النمل: ٥٩.

٣- **التذكُّر**: إذا نسي المتكلِّم شيئا، وتذكَّره في أثناء كلامه و لم يرد أن يقطع كلامه فيمدُّ آخر الكلمة بإشباع حركتها فيقول في: "**قالَ: قالا**"، بإشباع فتحة اللام، ويقول في "**يقولُ: يقولو**" بإشباع ضمَّة اللام، ويقول في "**العامِ: العامي**" بإشباع كسرة الميم، كلُّ هذا إذا وقف المتكلِّم على الكلمة ليتذكَر ما يتكلَّم به بعدها، و لم يرد أن يقطع كلامه، فيكون المدُّ علامة التذكُّر. فإذا اضطُرَّ إلى مثل هذا في الساكن كُسرَ، فيقال: "إنه قدي" في "قد"، و"ألي" في "الألف واللام"، وسُمِع من يوثق به في ذلك يقول: "هذا سيفني"، يريد: "سيفٌ"، ولكنَّه تذكر بعد كلاماً و لم يرد أن يقطع اللفظ؛ لأنَّ التنوين حرف ساكن، فيكسر كما تكسر دال قد، ثمَّ تشبع الكسر، فتقول: "قدي"(١).

٤- **الإنكار**: وهو مدٌّ يلحق آخر الكلمة في الاستفهام نحو قولك لمن يقول: "**غلبني الأميرُ**": "**الأميرُوه**" بمدِّ الهمزة، وإشباع ضمَّة الراء، ثمَّ إلحاق هاء بها، مستهزئا به، ومنكرا لتعجُّبه من أن يغلبه الأمير، وقولك لمن قال: "**قدم زيدٌ**": "**أزيدُنِيْه**" بجعل التوين نونا مكسورة، ثمَّ يشبع كسرها فتكون حرف مدٍّ، ثمَّ يلحق هاء به،، أو "**أزيدٌإنِيْه**" بإبقاء التنوين على أصله، وإلحاق "**إنْ**" به، ثمَّ كسرها، وإشباع هذا الكسر، وإلحاق هاء به، كلُّ هذا لإنكار الخبر(٢).

٥- **المبالغة**: كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا**﴾(٣)، فإنَّ هاء

(١) ينظر: الكتاب: ٤/٢١٦، وشرح أنموذج الزمخشري: ٢١٧.

(٢) ينظر: شرح أنموذج الزمخشري: ٢١٦-٢١٧.

(٣) سورة الفرقان: ٦٩.

الضمير في "**فيه**" حقُّها الكسر فقط، ولكنَّها مُدَّت مدَّ الصلة للدلالة على المبالغة في العذاب، والإهانة(١).

٦- **التعجُّب**: نحو قول المتعجِّب: "**سبحان الله**" يمدُّ ألف "**سبحان**"، وألف الجلالة "**الله**".

❖ أسباب جماليَّة:

١- **إضعاف الحركة** لتقرب بذلك من السكون نحو حيِي وأُحْيِيَ وأُعيَ فهو -وإن كان مُخْفًى- بوزنه محرَّكا وشاهد ذاك قبول وزن الشعر له قبولَه للمتحرّك البتة، وذلك نحو قول كثيِّر عزَّة(٢): الطويل

أَإِن زُمَّ أَجْمالٌ وَفارَقَ جيْــرَةٌ وَصاحَ غُرابُ الْبَيْنِ أَنْتَ حَزِيْنُ

فهذا بزنته محققًا في قولك: أأن زّم أجمال(٣).

٢- **الترنُّم**: وذلك أنَّ العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا، وقد كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك، وقد جاء في القرآن الكريم على أسهل موقف وأعذب مقطع(٤)، فالنصب نحو قول امرئ القيس(٥): الطويل

جَزَعتُ وَلَم أَجزَع مِنَ البَينِ مَجزَعاً وَعَزَّيتُ قَلباً بِالكَواعِبِ مولَعــا

---

(١) ينظر: التيسير الوافي في التجويد الكافي: ٣٠.

(٢) ديوانه: ١٧٠.

(٣) ينظر: الخصائص: ٢/١٤٤-١٤٥.

(٤) ينظر: الكتاب: ٤/٢٠٤، والإتقان في علوم القرآن: ٣/٣١٤.

(٥) ديوانه: ٢٤٠.

والرفع نحو قول الأعشى[1]: الطويل

هُرَيرَةَ وَدَّعْهَـــا وَإِنْ لامَ لائِـــمُ   غَداةَ غَدٍ أَمْ أَنتَ لِلبَينِ واجِـــمُ

والجرِّ نحو قول امرئ القيس[2]: الطويل

قفا نبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنـــزلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُوْلِ فَحَوْمَلِ

وما ينون فيه؛ وما لا ينون فيه قول جرير[3]: الوافر

أَقِلّي اللَـــومَ عـــاذِلَ وَالعِتابـــا   وَقولي إِن أَصَبتُ لَقَد أَصـــابا

وإنَّما ألحقوا هذه المدة في حروف الرويِّ؛ لأنَّ الشعر وضع للغناء والترنُّم، فأحلقوا كلَّ حرف الذي حركته منه[4].

والعلَّة في إلحاق النون بالصوائت في الترنُّم أنَّها صوت أغنُّ أي: فيه غنَّة، والغنَّة مدَّة في الصوت، فهو يشارك الصوائت في أهمِّ صفاقما، فألحق بها في هذا وفي أشياء أخرى.

٣- **التوسُّع في القوافي**: يقع الساكن والمجزوم في القوافي، فاستساغه العرب ولو لم يفعلوا ذلك لضاق عليهم، ولكنَّهم توسعوا بذلك، فإذا وقع واحدٌ منهما في القافية حرِّك، وليس إلحاقهم إياه الحركة بأشدَّ من إلحاق حرف المدِّ ما ليس هو فيه، ولا يلزمه في الكلام. ولو لم يقفوا إلا بكل حرف فيه حرف مدٍّ لضاق عليهم، ولكنهم توسعوا بذلك، فإذا حركوا واحداً منهما صار بمنـــزلة المتحرِّك أصلا، فأشبعوا هذه الحركة فصارت حرف

(١) ديوانه: ٧٧.

(٢) ديوانه: ٨.

(٣) ديوانه: ٥٨.

(٤) ينظر: الكتاب: ٤/٢٠٦.

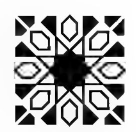
مدٍّ، واختصُّوا الساكن والمجزوم في القوافي المجرورة فقط حيث احتاجوا إلى حركتها، كما أنهم إذا اضطروا إلى تحريكها في التقاء الساكنين كسروا، فكذلك جعلوها في المجرورة حيث احتاجوا إليها، كما أن أصلها في التقاء الساكنين الكسر، نحو: انزل اليوم[1]، كما قال امرؤ القيس[2]: الطويل

تَقولُ وَقَد مالَ الغَبيطُ بِنا مَعــاً ... عَقَرتَ بَعيري يا امرَأَ القَيسِ فَانزُلِ

وقال طرفة[3]: الطويل

متى تَأْتِنِي أَصْبَحْكَ كَأْساً رَوِيّةً ... وإنْ كُنْتَ عنها ذَا غِنًى فاغْنَ وازْدَدِ

فهو مقبول في القوافي المكسورة فقط، ولو كانت في قوافٍ مرفوعة أو منصوبةٍ كان إقواء، أي: غير مقبول، ولو أتى به الشاعر كان مأخذًا عليه[4].



(١) ينظر: الكتاب: ٤/٢١٤-٢١٥.

(٢) ديوانه: ١١.

(٣) ديوانه: ٤٢.

(٤) ينظر: الكتاب: ٤/٢١٥.

المبحث الثاني

الإمالة

المطلب الأوَّل: تعريف الإمالة وحروفها وشروطها:

❖ **تعريف الإمالة:**

الإمالة: ضدُّ الفتح، وهي أن تَنحُوَ بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء، فتنطق حرف الراء بصفة بين الفتحة والكسرة(١).

وهي -الإمالة- ضرب من الادغام الأصغر، إذ هو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير ادّغام يكون هناك، فتكون الإمالة لتقريب الصوت من الصوت، وذلك نحو عالِم وكتاب وسَعَى وقَضَى واستقضى ألا تراك قربت فتحة العين من عالِم إلى كسرة اللام منه بأن نَحَوت بالفتحة نحوَ الكسرة فأَمِلْت الألف نحو الياء. وكذلك سعى وقضى: نحوت بالألف نحو الياء التي انقلبت عنها(٢).

وهي نوعان: إمالة كبرى وإمالة صغرى.

الإمالة الكبرى: عدها أن ينطق بالألف مركبة على فتحة تصرف إلى الكسر كثيراً، ويسمَّى هذا النوع البطح والإضجاع(٣).

والإمالة الصغرى: وهي أن ينطق بالألف مركَّبة على فتحة تصرف إلى الكسرة قليلاً.

---

(١) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ٥٧، وفتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد: ١٢٥.

(٢) ينظر: الخصائص: ٢/١٤١.

(٣) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ٥٧-٥٨.

والعبارة المشهورة في هذا بين اللفظين، أعني بين الفتح الذي حددناه، وبين الإمالة الكبرى[1].

❖ **حروف الإمالة:**

حروف الإمالة ثلاثة وهي: الألف والراء وهاء التأنيث.

سميت بذلك، لأنَّ الإمالة في كلام العرب لا تكون إلا فيها، لكنَّ الألف وهاء التأنيث لا يتمكن من إمالتهما إلا بإمالة الحرف الذي قبلهما.

والهاء لا تمال إلا في الوقف، والراء والألف في الوقف والوصل، فالألف وهاء التأنيث يمالان ويمال ما قبلهما من أجلهما، والراء يمال ما قبلها من أجلها وتمال من أجل غيرها[2].

وأمَّا الترقيق: فهو عبارة عن ضد التغليظ، وهو نحول يدخل على جسم الحرف فلا يملأ صداه الفم ولا يغلقه، وهو نوعان: ترقيق مفتوح، وترقيق غير مفتوح، وهو الإمالة على نوعيها، فكلُّ فتح ترقيق، وليس كلُّ ترقيق فتحاً، وكلُّ إمالة ترقيق، وليس كلُّ ترقيق إمالة[3].

قال أبو عمرو: والترقيق هو في الحرف دون الحركة، إذا كان صيغته. والإمالة في الحركة دون الحرف إذا كانت لعلةٍ أوجبتها، وهي تخفيفٌ كالإدغام سواء[4].

الحروف المشوبة:

المشوبة ويقال المخالَـِطة -بكسر اللام وفتحها-: وهي الحروف التي

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٧-٥٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٩٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٨.

(٤) ينظر: التحديد في الإتقان والتجويد: ١٦٣.

اتَّسعت فيها العرب فزادها على التسعة والعشرين المستعملة، وهي ستة:

١- النون الخفيفة، ويقال لها الخفيَّة، وهي تخرج من الخياشيم[(١)]، وهي ما تكون خالية من الغنَّة الطويلة، والتشديد.

٢- أَلفُ الإمالة: هِيَ الَّتِي تَجِدُهَا بَيْنَ الأَلف وَالْيَاءِ نَحْوُ قَوْلِكَ فِي عَالَمٍ وَخَاتَمٍ عَالَمٌ وَخَاتَمٌ. ومالَ بِنَا الطريقَ: قَصَدها. ومَايَلَنا المَلك فمَايَلْناه أَي أَغار عَلَيْنَا فأَغَرْنا عليه[(٢)].

٣- الألف المفخمة، التَّفْخيمُ فِي الْحُرُوفِ ضِدُّ الإمالة. وَأَلِفُ التَّفْخِيمِ: هِيَ الَّتِي تَجِدُهَا بَيْنَ الأَلف وَالْوَاوِ كَقَوْلِكَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ وقامَ زَيْدٌ، وَعَلَى هَذَا كَتَبُوا "الصَّلَوةَ" وَ"الزَّكَوةَ" وَ"الْحَيَوةَ"، كُلُّ ذَلِكَ بِالْوَاوِ لأَنَّ الأَلف مَالَتْ نَحْوَ الْوَاوِ، وَهَذَا كَمَا كَتَبُوا إِحْدَيْهِمَا وَسِوَيْهِنَّ بِالْيَاءِ لِمَكَانِ إِمَالَةِ الْفَتْحَةِ قَبْلَ الأَلف إِلَى الْكَسْرَةِ[(٣)]، فالنطق بالألف يتبع الأصل الذي جاءت منه كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[(٤)]؛ قَالَ الأَخفش: لَمَّا لَمْ تَجُزْ فِيهِ الإِمالةُ عُرِفَ أَنه مِنَ الْوَاوِ لأَنَّ الإِمالة مِنَ الْيَاءِ[(٥)].

٤- صاد بين بين، وهي الصاد التي تكون بين الصاد والزاي[(٦)]، كما في قراءة

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤٣٤/١ وسرُّ صناعة الإعراب/٤٦/١.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة (ميل): ٦٣٨/١١، والتمهيد في علم التجويد: ٩٤.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادَّة (فخم): ٤٥٠/١٢.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٥) ينظر: لسان العرب، (شفي): ٤٣٦/١٤.

(٦) ينظر: الكتاب: ٤٣٢/٤.

بعضهم قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾[1]، فنطق صاد "**يصدر**" بين الصاد والزاي[2].

٥- همزة بين بين: وهي الهمزة التي تسهَّل في النطق فتكون بين الهمزة والألف، وقد قرأ بها حفص في موضع واحد من القرآن الكريم، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[3]، فكلمة "**أا۬عجمي**" قرأ حفص فيها بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، أي: بين الهمزة والألف وجهاً واحداً من جميع طرقه، وعلامة هذا التسهيل في المصحف الشريف: وضع نقطة كبيرة في الهمزة الثانية، كما قرره علماء الضبط. أمَّا كيفية الأداء فيه فمتوقفة على المشافهة والسماع من أفواه الشيوخ المتقنين الآخذين ذلك عن أمثالهم فهم أرباب ذلك العارفون لما هنالك[4].

٦- الياء المشوبة: وهي الياء التي تكون قريبا من الواو، وعُبِّر عنها بأنَّها أشربت روائح الواو، فتكون بين الواو الخالصة، والياء الخالصة.

٧- الواو المشوبة: ذكر ابن جنِّيٍّ أنَّه كان يجب إذ ذكروا فروع الحروف نحو ألف الإمالة وألف التفخيم وهمزة بين بين أن يذكروا أيضاً الياء في نحو "قيل" و"بيع" والواو في نحو "مذعور" و"ابن بور"[5].

---

(١) سورة القصص: ٢٣.

(٢) ينظر: الكتاب: ٤/١٩٦.

(٣) سورة فصِّلت: ٤٤.

(٤) ينظر: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري: ٢/ ٥٧٩، وفتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد: ١٢٦، والوجيز في علم التجويد: ٦٠.

(٥) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٦.

٨- الشين المجهورة: حرف لم يستعمل في القراءة، وهو بين الجيم والشين، لغة لبعض العرب، قال ابن دريد: يقولون في غلامك: غلامش، فهي مشربة بغيرها، وهي مخالطة في اللفظ لغيرها [١].

❖ إمالة الصوائت الطويلة:

١- الألف نحو الياء:

ويكون بنطق الألف بَيْنَ صوتي الأَلف وَالْيَاءِ نَحْوُ قَوْلكَ فِي عَالَمٍ وَخَاتَمٍ عَالَمٌ وَخاتَمٌ. ومالَ بِنَا الطريقَ: قَصَدها. ومَايَلَنا المَلك فمَايَلْناه أَي أَغار عَلَيْنا فأَغَرْنا عليه[٢].

وتمتنع الإمالة هنا مع الأصوات المستعلية، وهي سبعة يجمعها قولك: "ضغط خص قظ"، الخاء والغين والقاف والصاد والضاد والطاء والظاء، سميت مستعلية لأنَّ اللسان يعلو بها إلى جهة الحنك[٣]، فامتنعت الإمالة؛ لأنَّها استفال والاستفال لا ينسجم مع الاستعلاء.

ولم يمل حفص غير وأما "**مجريها**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[٤]، فقرأ حفص فيها بالإمالة دون غيرها من الكلمات ذوات الراء بإمالة الألف بعد الراء إمالة كبرى من جميع الطرق، وتقرأ الراء فيها بالترقيق، لإمالة الألف بعدها -وذلك براوية حفص- لأنَّ الإمالة كسر، والكسر يناسبه الترقيق، وإنَّ كيفيَّة النطق بالراء ترقيقاً أو تفخيماً لا تُعرف إلا

---

(١) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ٩٤-٩٥.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة (ميل): ٦٣٨/١١، والتمهيد في علم التجويد: ٩٤.

(٣) ينظر: التحديد في الإتقان والتجويد: ١٠٨-١٠٩.

(٤) سورة هود عليه السلام: ٤١.

بالتلقي من أهل الأداء، فالحق بهم وفّقك الله[1].

٢- إمالة الواو نحو الياء:

ووجهه أنَّ الصائت القصير -الضمَّة- الذي قبله ليس ضمَّة محضة، ولا كسرة مرسلة، فأجري الواو بعدها مجراها، فكان مشوبا بروائح الياء وهذا مذهب سيبويه وهو الصواب؛ لأنَّ هذه الحروف تتبع الحركات قبلها، فكما أنَّ الحركة مشوبة غير مخلصة فالحرف اللاحق بها أيضاً في حكمه. وأمّا أبو الحسن فكان يقول مررت بمذعور وهذا ابن بور فيشمُّ الضمَّة قبل الواو رائحة الكسرة ويخلص الواو واوا محضة البتة وهذا تكلُّف فيه شدَّة في النطق وهو مع ذلك ضعيف في القياس فهذا ونحوه مما لا بد في أدائه وتصحيحه للسمع من مشافهة توضحه وتكشف عن خاص سرِّه.

٣- إمالة الياء نحو الواو:

نحو "**قيل**" و"**غيض**" و"**سيق**" فالياء فيهنَّ مشوبة بروائح الواو، كما أنَّ الصائت القصير -الكسرة- قبلها مشوبة بالضمَّة[2]، وقد تنبَّه إلى هذا والذي قبله قدامى اللغويِّين، وإن لم يفردوا له نوعا فقال ابن جنِّيٍّ وقد كان يجب على أصحابنا إذ ذكروا فروع الحروف نحو ألف الإمالة وألف التفخيم وهمزة بين بين أن يذكروا أيضاً الياء في نحو قيل وبيع والواو في نحو مذعور وابن بور[3].

---

(١) ينظر: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري: ١/١٢٨، ٢/٥٧٨، ومعالم التجويد: ١٠٨-١٠٩، والوجيز في علم التجويد: ٦٠.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥١-٥٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/٥٦.

❖ إمالة الصوائت القصيرة:

إنَّ الصوائت القصيرة بينها من المشابهة والتقارب كما بين الصوائت الطويلة وراء فقد لذلك نجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة، أو الضمَّة، كما نجد الكسرة أيضاً مشوبة بشيء من الضمَّة، والضمَّة مشوبة بطرف من الكسرة[1]، وهذا كلُّه يعود في الأصل إلى المشابهة بين هذه الصوائت والتقارب، وأطلق عليه بعضُ النَّحْوِيِّينَ: "الشَّوْبَ فِي الحركات"[2].

والشَّوْبُ: هو الخَلْطُ، وشُبْتُه أَشُوبُه: خَلَطْتُه، فَهُوَ مَشُوبٌ[3]، وسنوضِّح ذلك إنشاء الله تعالى فيما يأتي:

١- الفتحة المشوبة بالكسرة:

الفتحة المشوبة بالكسرة: هي الفتحة التي قبلها الإمالة نحو فتحة "**عَين**" و"**عابد**" و"**عارف**"، وذلك أنَّ الإمالة إنَّما هي: أنْ تنحو بالفتحة نحو الكسرة فتميل الألف التي بعدها نحو الياء لضرب من تجانس الصوت، فكما أنَّ الحركة ليست فتحة محضة فكذلك الألف التي بعدها ليست ألفا محضة وهذا هو القياس؛ لأنَّ الألف تابعة للفتحة، فكما أنَّ الفتحة مشوبة فكذلك الألف اللاحقة لها وقد أمالوا أيضاً هذه الفتحة وإن لم تكن بعدها ألف فقالوا: "**من عمرو**" و"**رأيت خبط رياح**" وقرأ بعضهم "**فإنهم لا يكذبونك**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[4]. و"**راجعون**" في قوله جلَّ شأنه:

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/٥٢.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة (شوب): ١/٥١٠-٥١٢.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادَّة (شوب): ١/٥١٠-٥١٢.

(٤) سورة الأنعام: ٣٣.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]، و"**رأى**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2][3].

٢- الفتحة المشوبة بالضمَّة:

وهي التي تكون قبل ألف التفخيم، كما في "**الصلاة**" و"**الزكاة**" و"**دعا**" و"**غزا**" و"**قام**" و"**صاغ**" وكما أن الحركة أيضاً هنا قبل الألف ليست فتحة محضة بل هي مشوبة بشيء من الضمة فكذلك الألف التي بعدها ليست ألفاً محضة لأنها تابعة لحركة هذه صفتها فجرى عليها حكمها[4].

والوجه في إمالة الفتحة نحو الكسرة والضمَّة هو أنَّ الفتحة أوَّل الحركات وأدخلها في الحلق، والكسرة بعدها، والضمَّة بعد الكسرة، فإذا بدأت بالفتحة وتصعَّدت تطلب صدر الفم والشفتين اجتازت في مرورها بمخرج الياء والواو فجاز أن تشمَّها شيئاً من الكسرة، أو الضمَّة لتطرقها إياهما ولو تكلفت أنْ تشمَّ الكسرة، أو الضمَّة رائحة من الفتحة لاحتجت إلى الرجوع إلى أوَّل الحلق فكان في ذلك انتقاض عادة الصوت بتراجعه إلى ورائه وتركه التقدُّم إلى صدر الفم والنفوذ بين الشفتين، فلمَّا كان في إشمام الكسرة، أو الضمَّة رائحة الفتحة هذا الانقلاب والنقض ترك ذلك فلم يتكلف البتة[5].

---

(١) سورة البقرة: ١٥٦.

(٢) سورة الأنعام: ٧٧.

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥١-٥٢، ولسان العرب، مادَّة (شوب): ١/٥١٠-٥١٢.

(٤) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٢.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١/٥٣-٥٤.

٣- الكسرة المشوبة بالضمَّة:

الكسرة المشوبة بالضمة فنحو "**قيل**" و"**غيض**" و"**سيق**" فإنَّ الصائت القصير -الكسرة- في هذه الكلمات وما كان على شاكلتها مشوبة بالضمَّة، وكما أنَّها مشوبة بالضمَّة فالياء بعدها مشوبة بروائح الواو كما تقدم إمالة الياء نحو الواو[1].

٣- الضمة المشوبة بالكسرة:

الضمَّة المشوبة بالكسرة فنحو قولك في الإمالة "مررت بمذعور" و"هذا ابن بور" نحوت بضمَّة العين والباء نحو كسرة الراء فأشممتها شيئاً من الكسرة، ووجهه هو ما بينهما من القرب والتناسب ما ليس بينهما وبين الفتحة، فجاز أنْ يتكلَّف نحو ذلك بين الضمَّة والكسرة لما بينهما من التجانس، إلا أنَّه مع ذلك قليل مستكره ألا ترى إلى كثرة "قيل" و"بيع" و"غيض" وقلة نحو: "مذعور" و"ابن بور" ولهذا منع بعضهم إعلال الواو في "مذعور" وتركها واواً محضة؛ لأنَّ له أن يقول: إنَّ الحركة التي قبل الواو لم تتمكَّن في الإعلال والإشمام تمكُّن الفتحة في الإشمام نحو: "عالم" و"قام"، ولا تمكن الكسرة في: "قيل" و"بيع" فلما كان الإشمام في "مذعور" ونحوه خلساً خفياً لم يقو على إعلال الواو بعده كما أعلت الألف في نحو عالم وقام والكسرة في نحو قيل وغيض فلذلك لم تعتل عنده الواو في مذعور وابن بور وأخلصها واواً محضة.

ووجه آخر هو أنَّ الضمَّة وإنْ نحي بها نحو الكسرة فلقربها منها وبعدت الفتحة منها، فلم يجز فيها ما جاز في الكسرة القريبة، فلمَّا بطل ذلك في الضمَّة حملت الكسرة عليها؛ لأنَّها أختها وداخلة في أكثر أحكامها ويشهد لهذا القول

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/٥١-٥٣.

أهم أدغموا النون في الميم لاشتراكهما في الغنَّة والهوي في الفم ثمَّ إنَّهم حملوا الواو في هذا على الميم فأدغموا فيها النون؛ لأنَّ الواو ضارعت الميم بأنَّهما من الشفة ثمَّ إنَّهم أيضاً حملوا الياء على الواو في هذا؛ لأنَّها ضارعتها في المدِّ وإن لم تكن معها من الشفة فأجازوا إدغام النون في الميم وفي الياء، فمن ادغامها في الميم **"وَإنْ مِنْ"** في قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[1]، ومن ادغامها في الياء **"مَنْ يَقُولُ"** في قوله جلَّ وعلا: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[2]، فكما جاز حمل الواو على الميم، ثمَّ حمل الياء على الواو فيما ذكرنا كذلك أيضاً جاز أن تحمل الكسرة على الضمة في امتناع إشمامها شيئاً من الفتحة [3].

❖ **شروط الإمالة:**

١- أن لا يكون الألف الممال أصليّاً، فالإمالة تكون في المنقلب عن واو أو عن ياء[4]، ويقال لِلرَّجُلِ الْكَثِيرِ الحجِّ: إنه لَحَجَّاجٌ، بِفَتْحِ الْجِيمِ، مِنْ غَيْرِ إمالة، وَكُلُّ نَعْتٍ عَلَى فَعَّال فَهُوَ غَيْرُ مُمَالِ الأَلف، فإذا صيَّروه اسْماً خَاصّاً تَحَوَّلَ عَنْ حالِ النَّعْت، وَدَخَلَتْهُ الإِمالَةُ، كَاسْمِ الحَجَّاجِ والعَجَّاجِ، لكنَّ أماله بَعْضُ أَهل الإمالة فِي جَميعِ وُجُوهِ الإعراب عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ النَّاسُ فِي الجرِّ خَاصَّةً، وأَلف الْحَجَّاجِ زَائِدَةٌ غَيْرُ مُنْقَلِبَةٍ، وَلا يُجَاوِرُهَا مَعَ ذَلِكَ مَا يُوجِبُ الإِمالة،

---

(١) سورة الحجر: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ٨.

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٣-٥٥.

(٤) ينظر: لسان العرب، مادَّة (بلا): ١٤/٨٨، ومادَّة (إلا) ١٥/٤٣١.

وَكَذَلِكَ النَّاسُ؛ لأَنَّ الأَصل إِنَّما هُوَ الأُناس فَحَذَفُوا الْهَمْزَةَ، وَجَعَلُوا اللامَ خَلَفاً مِنْهَا كَما هو الحال في اسم الجلال "الله" إلا أَنَّهم قَدْ قَالُوا الأُناس، وَقَالُوا مَرَرْتُ بِنَاسٍ فأَمالوا فِي الْجَرِّ خَاصَّةً، تَشْبِيهاً للأَلف بأَلف فاعِلٍ؛ لأَنَّها ثَانِيَةٌ مِثْلُهَا، وَهُوَ نَادِرٌ؛ لأَنَّ الأَلف لَيْسَتْ مُنْقَلِبَةً؛ فأَما فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ فَلا يُمِيلُهُ أَحد[1].

٢- أن تكون الكلمة التي تدخلها الإمالة اسما، فلا تدخل الإمالة الحروف ولا الأفعال، واستثني من ذلك كلمة "بَلَى"؛ لأنَّ أصل ألفها الْيَاءِ. وَقَالَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ: إِنَّمَا جَازَتِ الإمالة فِي بَلَى؛ لأَنها شَابَهَتْ الأَسماء من حيث تَمَامِ الْكَلامِ وَاسْتِقْلالِه بِهَا وَغَنَائِهَا عَمَّا بَعْدَهَا الْمُسْتَقْبَلَةَ بأَنفسها، فَمِنْ حَيْثُ جَازَتْ إِمَالَةُ الأَسماء جَازَتْ أَيضاً إِمَالَةُ بَلَى، أَلا تَرَى أَنك تَقُولُ فِي جَوَابِ مَنْ قَالَ أَلم تَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا: بَلَى، فَلا تَحْتَاجُ لِكَوْنِهَا جَوَاباً مُسْتَقِلاً إِلَى شَيْءٍ بَعْدَهَا، فَلَمَّا قَامَتْ بِنَفْسِهَا وَقَوِيَتْ لَحِقَتْ فِي الْقُوَّة بالأَسماء فِي جَوَازِ إِمَالَتِهَا كَمَا أُميل أَنَّى وَمَتَى[2]، ووجه آخر هو أَنَّ يَاءً زِيدَتْ فِي بَلْ، قَالَ: وَهَذَا كُلُّهُ قَوْلُ حُذَّاقِ النَّحْوِيِّينَ[3].

المطلب الثاني: الروم والإشمام والتضعيف والاختلاس:

من المعلوم أنَّ العرب لا تبدأ كلامها بساكن، ولا تقف على متحرِّك، فإن وقفت سكَّنت الحرف الذي تقف عليه، بمعنى أنَّها تحذف الصائت القصير، وما ينتج عنه من التنوين من آخر الكلم في الوقف، فأيُّ كلمة يوقف

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة (حجج): ٢/٢٢٧-٢٣٠.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة (بلا): ١٤/٨٨.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادَّة (إلا): ١٥/٤٣١.

عليها يحذف من آخرها الصائت القصير، أو التنوين، لكنَّهم مع ذلك أولوا هذا الصائت عناية كبيرة، فلم يهملوه، بل أعطوه وجوه تبيِّن وجوده، وتشير إلى نوعه، فكان الروم والإشمام، والتضعيف، حتَّى بلغ من عنايتهم بالصوائت القصيرة أنَّهم قنعوا من الحركة بأنْ يومئوا إليها بالآلة التي من عادها أن تستعمل في النطق بها من غير أن يخرجوا إلى حسّ السمع شيئاً من الحركة مشبَعة ولا مختلَسة، وذلك بإعمال الشفتين في الإشمام في المرفوع بغير صوت يسمع هناك لم يبق وراء ذلك شئ يستدلّ به على عنايتهم بهذا الأمر ألا ترى إلى مصارفتهم أنفسهم في الحركة على قلتها ولطفها حتى يخرجوها تارة مختلسة غير مشبعة وتاترة أخرى مُشَمّة للعين لا للأذن[1]، وهذا كلُّه مرتبط بأهمِّيَّة الصوائت القصيرة، ومنـــزلتها في الكلام، حتَّى في حال الاضطرار إلى حذفها، فكان عندهم الروم، والإشمام، والتضعيف، والاختلاس، وسنتناول هذه الأنواع فيما يأتي:

- **أوَّلاً: الروم**

الروم: هو الإتيان ببعض الحركة حتى يذهب معظم صوتها، فيسمع لها صوت خفي، يسمعه القريب المصغي دون البعيد، ويدركه الأعمى بحاسة سمعه دون الأصمِّ؛ لأنَّها غير تامَّة، ويكون في المرفوع، والمضموم، والمجرور، والمكسور[2].

والروم يكاد يجعل الحرف متحركا ألا تراك تفصل به بين المذكر والمؤنث في قولك في الوقف: "**أنتَ**" و"**أنتِ**". فلولا أن هناك صوتا لما وجدت فصلاً[3].

---

(١) ينظر: الخصائص: ٧٣/١.

(٢) ينظر: الوجيز في علم التجويد: ٣١، ٣٨، والتمهيد في علم التجويد: ٥٨.

(٣) ينظر: الخصائص: ٣٢٨/٢.

– **ثانياً: الإشمام**[1]:

الإشمام: هو ضمُّ الشفتين بعيد سكون الحرف كهيئتهما عند النطق بالضمة من غير صوت، وهو إشارة إلى الضم، ومن ثَم فلا يدركه إلا البصير، فالأصم دون الأعمى ويكون في المرفوع والمضموم فقط. في باب الوقف على أواخر الكلم[2]، وحركة الإشمام لضعفها غير معتد بها[3].

وهناك أنواع أخرى للإشمام غير إشمام الوقف منها نوع ورد في لفظ "**تأمنا**" في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[4]، فأصل الكلمة "**تأمننا**" بنونين، أدغمت الأولى في الثانية للجميع، ويجوز فيها وجهان:

١- **الإشمام:** وهو عين الإشمام المتقدم في الوقف، إلا أنه هنا مقارن لسكون الحرف المدغم، وفي الوقف بعيد السكون والإشمام هنا للإشارة إلى حركة الفعل، وهي الضمة، فالإدغام مع الإشمام صريح.

٢- **الروم:** فيمتنع معه الإدغام الصحيح؛ لأنَّ الحركة لا تسكَّن رأسا، بل يضعف صوتها، وبعضهم يعبِّر عن الروم بالإخفاء[5].

---

(١) يطلق الإشمام أيضاً على الحروف الصامتة ويراد به خلط حرف بحرف في نحو "**الصراط**" و"**أصدق**". ينظر: التمهيد في علم التجويد ٥٨-٥٩.

(٢) ينظر: الخصائص: ٢/٣٢٨، والوجيز في علم التجويد: ٣١، والتمهيد في علم التجويد: ٥٨.

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٦.

(٤) سورة يوسف عليه السلام: ١١.

(٥) ينظر: الخصائص: ٢/٣٢٩.

ما يجوز فيه الروم والإشمام، أو الروم، أو التضعيف، وما لا يجوز:

ينقسم الموقوف عليه إلى ثلاثة أقسام:

١- ما يوقف عليه بالأنواع الثلاثة المتقدمة، وهي: السكون، والروم، والإشمام، وهو ما كان متحركا بالرفع أو الضمِّ مثل "**نَسْتَعِينُ**" من قوله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

٢- يجوز الروم والإشمام فيما كان الحرف الذي قبل آخر الكلمة ساكناً، نحو "عمرو" و"زيد" وأشباه ذلك، فيشمّ، أو يرام، أو يسكّن[2]، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[3]، فكلمة "بعد" يجوز فيها الوجوه الثلاثة: الروم، والإشمام، والسكون.

٣- ما يوقف عليه بالسكون والروم فقط ولا يجوز فيه الإشمام، وهو ما كان في موضع نصب أو جرٍّ، نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[4]، و"هَؤُلاءِ" من قوله عزَّ من قائل: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾[5]، ففي هاتين وأمثالهما تروم فيه الحركة نحو قولك: "رأيت الحارث" و"مررت بخالد"، وأمّأ إجراؤه كإجراء المجزوم فهو الأكثر في كلام العرب، وتضاعف، وتفعل فيه ما تفعل بالمجزوم على كل حال، وهو أكثر في كلامهم، نحو قولك: "**مررت بخالدّ**"، و"**رأيت الحارث**"، وأمَّا

---

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢) ينظر: الكتاب: ١٧١/٤.

(٣) سورة الروم: ٤.

(٤) سورة الفاتحة: ١، ٣.

(٥) سورة البقرة: ٣١.

الإشمام فليس إليه سبيل، وإنَّما كان ذا في الرفع لأنَّ الضمَّة من الواو، فأنت تقدر أن تضع لسانك في أيِّ موضع من الحروف شئت ثمَّ تضمُّ شفتيك، لأنَّ ضمَّك شفتيك كتحريكك بعض جسدك، وإشمامك في الرفع للرؤية وليس بصوتٍ للأذن. ألا ترى أنَّك لو قلت هذا معن فأشممت كانت عند الأعمى بمنــزلتها إذا لم تشمم، فأنت قد تقدر على أن تضع لسانك موضع الحرف قبل تزجية الصوت ثمَّ تضمُّ شفتيك، ولا تقدر على أنْ تفعل ذلك ثمَّ تحرك موضع الألف والياء، وكما أنَّ الإشمام وإجراء الساكن في الرفع أكثر؛ لأنَّهم لا يسكِّنون إلا عند ساكنٍ، فلا يريدون أنْ يحدثوا فيه شيئاً سوى ما يكون في الساكن، فالنصب والجرُّ لا يوافقان الرفع في الإشمام. وهو قول العرب ويونس والخليل(1).

٤- ما يوقف عليه بالسكون فقط ولا يجوز فيه الروم والإشمام، وذلك في المواضع الآتية(2):

أ- المنصوب والمفتوح نحو: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(3)، و﴿لَا رَيْبَ﴾(4)، فلا يجوز الروم فيهما لخفَّة الفتحة وسرعتها في النطق، فلا تكاد تخرج إلا كاملة، ولا الإشمام؛ لأنَّه إشارة إلى الضمِّ.

ب- هاء التأنيث الموقوف عليها بالهاء مثل: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾(5)، إذ المراد من الروم والإشمام بيان حركة الموقوف عليه حالة الوصل، ولم يكن على الهاء

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤/١٧١-١٧٢.

(٢) ينظر في هذه المواضع: الوجيز في علم التجويد: ٣٩.

(٣) سورة الفاتحة: ٦.

(٤) سورة البقرة: ٢.

(٥) سورة البقرة: ٣٥.

حركة حالة الوصل؛ لأنها مبدلة من التاء، والتاء معدومة في الوقف.

ت- ما كان ساكناً في الوصل مثل: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾[1]، ومنه ميم الجمع، فلا يجوز فيه الروم والإشمام؛ لأنهما إنما يكونان في المتحرك دون الساكن.

ث- ما كان متحركاً في الوصل بحركة عارضة مثل: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[2]، و﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ﴾[3]؛ لأنَّ الحركة عرضت للراء، والواو للتخلص من التقاء الساكنين.

ومثل ذلك ميم الجمع نحو: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[4]، فلا يجوز فيه الروم والإشمام لعروض الحركة، فلا يعتد بها؛ لأنها تزول في الوقف لذهاب المقتضي وهو اجتماع الساكنين، فلا وجه للروم، والإشمام.

وأمَّا هاء الضمير: فقد اختلف فيها وقفاً:

أ- فذهب بعضهم إلى جواز الروم والإشمام فيها مطلقاً.

ب- وذهب بعضهم إلى المنع مطلقاً.

ت- والمختار منعهما فيها إذا كان قبلها ضم، أو واو ساكنة، أو كسر، أو ياء ساكنة مثل: ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾[5]، و﴿عَقَلُوهُ﴾[6]، و"**بِهِ**"، و"**فِيهِ**" أين ما وردتا.

---

(١) سورة الضحى: ١٠.

(٢) سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٤٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٥) سورة فاطر: ١٠.

(٦) سورة البقرة: ٧٥.

وجوازهما إذا لم يكن قبلها ذلك، بأن انفتح ما قبل الهاء، أو وقع قبلها ألف، أو ساكن صحيح مثل: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾[1]، و﴿وَهَدَىٰهُ﴾[2]، و"**عَنْهُ**".

٥- ويمتنع التضعيف إنْ كان الحرف الذي قبل آخر الكلمة ساكناً، نحو عمرٍو وزيدٍ وأشباه ذلك، لأنَّ الذي قبله ساكن فيمتنع تسكين ما بعده ساكناً، وقد يسكن ما بعد ما هو بمنــزلة لام خالد وراء فرج، فلما كان مثل ذلك يسكن ما بعده ضاعفوه وبالغوا، لئلا يكون بمنــزلة ما يلزمه السكون، ولم يفعلوا ذلك بعمرٍو وزيدٍ وأمثالهما، لأنَّهم قد علموا أنّه لا تسكن أواخر هذا الضرب من كلامهم، وما قبل الأواخر ساكن أيضاً[3]، فامتنع لئلّا يجتمع ساكنان، فإنَّه مستكره ومستثقل في العربيَّة، على خلاف الروم والإشمام فإنَّ فيه ابقاء للحركة لذلك جاز فيهما.

- **ثالثاً: الاختلاس:**

الاختلاس: هو عبارة عن الإسراع بالحركة، إسراعاً يحكم السامع بسببه أنَّ الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن[4].

❖ فائدة الروم والإشمام والتضعيف:

وفائدة الإشمام الإجراء على القاعدة، وذلك للتفريق بين ما يلزمه التحريك في الوصل وبين ما يلزمه الإسكان على كل حال، وذلك نحو قولنا: مخلد، وخالد، وهو يجعل "هذا خالد"، و"هو يجعل"[5].

---

(١) سورة الفجر: ١٥.

(٢) سورة النحل: ١٢١.

(٣) ينظر: الكتاب: ٤/١٧١.

(٤) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ٥٩.

(٥) ينظر: الكتاب: ٤/١٦٨-١٦٩.

ووجه عدم الإشمام طلب الخفة، ولأنَّه لا يوقف في العربيَّة أبداً إلا عند حرف ساكن، فلمَّا سكن في الوقف جُعِل بمنـــزلة ما يُسكَّن على كل حال؛ لأنَّه وافقه في هذا الموضع، وذلك نحو قولنا: "مخلدْ"، و"خالدْ"، و"هو يجعلْ"[(١)].

وفائدة الروم فتكمن في الحرص على أنْ تُخرَج من حال ما لزمه إسكانٌ على كلِّ حال، وأنْ يُعلَم أنَّ حالها ليس كحال ما سُكِّن على كلِّ حال. وبهذا يلتقي مع الإشمام؛ إلا أنَّه -الروم- أشدُّ توكيداً، نحو قولنا: "هذا عمر"، و"الفاروق عمر"؛ كأنَّ الناطق يريد رفع لسانه[(٢)].

وفي حالة التضعيف يكون التوكيد أشدَّ من الاثنين؛ فيجيء بحرف لا يكون الذي بعده إلا متحركاً لأنَّه لا يلتقي ساكنان. فهو أشدُّ مبالغةً وأجمع؛ لأنَّه لو لم تشمَّ كنت قد أعلمت أنها متحركة في غير الوقف، وذلك نحو قولنا: "هذا خالدّ"، و"هو يجعلّ"، و"هذه فرسّ"[(٣)].

وأما الإرسال فهو عبارة عن تحريك ياء الإضافة بحركة الألف، ويعبر عنه أيضاً بالفتح[(٤)].

فالفائدة من أصناف هذا الباب هي لبيان الحركة الأصلية التي ثبتت في الوصل للحرف الموقوف عليه[(٥)]، لذلك قال سيبويه: «وحدثني من أثق به أنَّه سمع عربياً يقول: أعطني أبيضه، يريد: أبيض، وألحق الهاء كما ألحقها في: هنه وهو يريد: هن»[(٦)].

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٤/١٦٨-١٦٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤/١٦٨-١٦٩.

(٣) ينظر: الكتاب: ٤/١٦٨-١٦٩.

(٤) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ٥٧-٥٨.

(٥) ينظر: الوجيز في علم التجويد: ٣١.

(٦) الكتاب: ٤/١٧٢.

المبحث الثالث

التغيُّرات الصوتيَّة

المطلب الأوَّل: الزيادة والقلب والإبدال وأصالتهما في العربيَّة:

❖ **الزيادة:**

من مظاهره: إشباع الصائت القصير -الحركة- ليكون صائتاً طويلاً من جنسه، فما هو في حقيقته إلا حرفٌ صغير، وكانوا يسمُّونها بأسماء الحروف التي هي منها، فقد أطلقوا على الضَّمَّة الواو الصَّغيرة، وعلى الكسرة الياء الصغيرة، وعلى الفتحة الألف الصَّغيرة، وأكَّدوا ذلك بقولهم: إنَّه متى أشبعت ومطلت الحركة أنشأت بعدها حرفاً من جنسِها، وقد أنشدوا على ذلك قول الفرزدق (1): الكامل

تَنْفِي يَدَاهَا الحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيَ الدَّرَاهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ

قالوا: يُريد دراهم وصيارف، فأشبع الكسرة على كلٍّ من الهاء والرَّاء، فنشأت ياء خالصة.

وكذلك قول إبراهيم بن هرمة (2): الوافر

وَأَنْتَ مِنَ الغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحِ

قالوا: يريد بمنتزح، وهو مفتعل من النَّزح، فأشبع الفتحة فصارت ألفاً خالصاً.

---

(1) الكتاب: ٢٨/١، والمقتضب ٢/ ٢٥٨، والكامل في اللغة والأدب: ٢٠٢/١، والخصائص ٢/ ٣١٧، وشرح ديوان الحماسة: ١٠٣٢/١، شرح المفصَّل: ٦/ ١٠٦. وغيرها من مصادر اللغة والأدب. والبيت ليس في ديوان الشاعر.

(2) شعره: ٩٢.

ومثله قول إبراهيم بن هرمة أيضاً[1]: البسيط

وَأَنَّنِي حَيْثُ مَا يُشْرِ الهَوَى بَصَرِي   مِنْ حَيْثُ مَا سَلَكُوا أَدْنُو فَـــأَنْظُورُ

يريد: فأنظُر، فأشبع الضَّمَّة الَّتي على الظَّاء، فنشأت واو خالصة، وقد علَّق ابن جنّي على ما أوْرَدْناه من شواهد بقوله: "فإذا ثبت أنَّ هذه الحركات أبعاض للحروف ومن جنسها، وكانت متى أشبعت ومطلت تمَّت ووفت جرت مجرى الحروف"[2].

ومنه مَدُّ حركة الحرف قبل الأخير في بعض صيغ منتهى الجموع نحو "**مَساجِد**" و"**مَنابِر**"، فيقولون فيهما "**مَساجيد**" و"**منابير**"، شبّهوهما بما جُمع على غير واحدِه في الكلام[3].

❖ القلب:

القلْب: هو تغْيير الشَّيء على غير الصورة التي كان عليها[4]، وهو يختص بالصوائت، فورد وقوعه في كلامِ العرَب وله أثر في لهجاتها، إذ قد تُؤثِر بعض القبائل الخِفَّة، وتؤثِر بعض القبائل الأخرى الثقل، وفقاً لطبيعة كلِّ قبيلة، يلاحظ ذلك في القراءات القرآنية، فهو محصورٌ بين الفتح والكسر نحو: الحَج والحِج، وبين الفتْح والضم نحو: وَقودها ووُقودها، وبين الكسر والضم نحو: قِثّائِها وقُثّائها[5]، وقد تتبادل الصوائت الثلاثة فيما بينها، بين الفتح

---

(١) شعره: ٢٣٩.

(٢) الخصائص: ٣١٥/٢ وما بعدها.

(٣) ينظر: الكتاب: ٢٨/١.

(٤) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٣، وما بعدها.

(٥) القراءات الشاذة دراسة صوتية ودلالية: ٤٠٧/٢.

والضم والكسر؛ نحو: فَم وفُم وفِم[1]، والتبادل بين هذه الأصوات يخضع لقانون انسجامِ أصوات المدّ، ويحصُل حتى بين الصوائت الطويلة، وهذه الأمثلة توضِّح ذلك:

أ- يقال: قيت فلان اللبن؛ يعني: قوته، فلمَّا كسرت القاف صارتِ الواو ياءً.

ب- يُقال: هو الشِّمراخ والشُّمروخ، والعُثكال والعُثكول، وقالوا: طِنبار وطُنبور.

ت- شحيح البغل والغراب، وشُحاح، نَهيق ونُهاق، سَحيل وسُحال، مَليح ومُلاح[2].

وهذا التعامُل بين الصوائت الطويلة يكون في الإعلال، تظهَر الأصوات التي تتعامَل مع بعضها البعض بكثْرة، فإنَّ تعامل الألف والياء أكثرُ منه بين الألف والواو؛ وذلك لأنَّ الياء أقربُ إلى الألِف من الواو، وتعامل الياء مع الواو أكثرُ مِن تعامل الواو مع الألِف؛ يقول سيبويه: «وذلك لأنَّ الياء والواو بمنـــزلة التي تدانتْ مخارجها لكثرةِ استعمالهم إيَّاهما وممرِّهما على ألسنتِهم، فلمَّا كانت الواو ليس بينها وبين الياء حاجزٌ بعد الياء ولا قَبْلَها، كان العمل مِن وجه واحد، ورفع اللِّسان مِن موضع واحد، أخفّ عليهم، وكانتِ الياء الغالبةَ في القلْب لا الواو؛ لأنَّها أخفُّ عليهم؛ لشبهها بالألف، وذلك قولك في "فَيعَل": "سَيِّد" و"صَيِّب"، وإنَّما أصلهما "سَيْوِد" و"صَيْوِب"»[3]، ويكون

(١) في الأصوات اللغوية-دراسة في أصوات المد العربية: ٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٩.

(٣) الكتاب: ٤/٣٦٥.

الترتيب مِن حيث الدوران بخِفَّة الألِف، ثم الياء، وتليهما الواو.

ومن هذا القبيل ما أثاره ابن جني في الألف المفخمة بقوله: «وأمَّا ألف التفخيم فهي التي تجدها ما بين الألف والواو ونحو قولهم سلامٌ عليك، وقام زيدٌ، وعلى هذا كتبوا "الصلُوة"، و"الزَّكُوة"، و"الحيُوة" بالواو؛ ولأنَّ الألف مالت نحو الواو»[(١)]، لكنَّه مع ذلك لم يشر إلى مخرجه والذي يحدث بأن تستدير الشفتان قليلاً مع اتساع في الفم نتيجة لحركة الفك الأسفل، ثم يرتفع مؤخر اللسان قليلاً، فيصير الفم في مجموعة حجرة رنين صالحة لإنتاج تلك القيمة الصوتية المعروفة بالتفخيم[(٢)]، فالمناسبة تتطَّلب جواز قلْب بعض إلى بعض من غير إخْلال بالكلِمة، من قِبَل أنَّ المقارب للحرف يقوم مقام نفس الحرف، فكأنَّه قد ذكر بذكره نفس الحرف، وليس كذلك المتباعد منه، فلهذه العِلَّة من اجتماع الأسباب الثَّلاثة كانت أحقَّ بالإبدال من غيرها"[(٣)].

فجميع الحروف صحيح إلا الألف والياء والواو اللواتي هن حروف المدِّ والاستطالة إلا الألف أشدَّ امتدادا وأوسع مخرجا وهو الحرف الهاوي[(٤)]، فالصوامت كلها صحيحة، لا تقبل الإعلال إلا أصوات المدِّ.

❖ الإبدال:

الإبدال في اللغة مأخوذ من البدل: وهو وضْعُ الشيءِ في مكان غيره على تقدير إزالة الأوَّل.

---

(١) ينظر الخصائص: ٣/١٢٠-١٢١.

(٢) ينظر: أبحاث في أصوات العربية.

(٣) المخصَّص: ١٣ /٢٦٧ وما بعدها.

(٤) ينظر: الأصوات اللغوية: ٨٩-٩٠.

الإبدال في الاصطلاح: هو جعْل حرْفٍ خلفاً لحرف أو أكثر أو حركة[1]، وهذه حُدُود -كما يُقال- عامَّة لما يجري في النَّحو وغيره[2]، وهو مشترك بين الصوائت والصوامت، فهو أعمّ من القلب والحذف، وقال بعضهم: بدلٌ هو إقامة حرف مقام حرف غيره؛ نحو تاء تخمة وتكأة، وبدلٌ هو قلب الحرف نفسه إلى لفظ غيره على معنى إحالته إليه، وهذا إنَّما يكون في الصوائت، ومن الصوامت في الهمزة أيضاً لمقارنتها إيَّاها وكثرة تغيُّرها، وذلك نحو: "قَامَ"؛ فالألف واو في الأصل، و"مَوْسِر" أصله ياء، و"راس" أصله بالهمزة فاستحالتْ ألفاً[3]، وكلّ قلْب بدل وليس كلّ بدل قلباً، ويرى بعضُهم أنَّ الفرق بين البدل والقلب في الأصوات: أنَّ القلْب يَجري في الصوائت، ومناسبة بعضِها بعضا، وشدَّة تقارُبها؛ فكأنَّ الحرف نفسه انقلب من صورة إلى صورة؛ إذا قلت: "قَامَ"، والأصل "قَوَمَ"، فكأنَّما لم يُؤْت بغيره بدلاً منه، ولم يخرج عنه، فهذا في الصوائت، فأمَّا في الصوامت فيجْري على البدل لتباعُد ما بين الحرفَيْن؛ فلم يَجبْ أن يجريَ مَجرى ما يتقارب التَّقارُب الشَّديد، بل وجب فيما تقارب أن يقدر أنَّه لَم يخرج من التَّغْيير عنْه؛ فلذلك أُجْري على طريقة القلب، فأمَّا ما تباعد فيقْتضي الخروج عنه التغيير[4]، والإبدال على أربعة أنواع:

١- ما أبْدل إبدالاً شائعاً للإدْغام، وهو جَميع حروف المعجم إلاَّ الألف[5].

---

(١) ينظر: معجم المصْطلحات النَّحويَّة والصَّرفيَّة: ١٦٣.

(٢) ينظر: المخصَّص: ٢٦٧/٣١.

(٣) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٣ وما بعدها.

(٤) المخصص: ٣١ /١٦٧.

(٥) ينظر: شرح التصريح: ٢ /٦٨٩.

٢- ما يبدل إبدالا نادراً، وهو ستة أحرف، وهي "الحاء والخاء والعين المهملة والقاف، والضاد، والذال" المعجمتان كقولهم في "وكنة" وهي بيت القطا في الجبل: "وقنة"، وفي أغن: أخن، وفي ربع: ربح، وفي خطر: عطر، وفي جلد: جضد، وفي تلعثم: "تلعذم"(١).

٣- ما يبدل "إبدالاً شائعاً لغير إدغام"، وهو قسمان:

أ- ما هو غير ضروري في التصريف، وهو اثنان وعشرون حرفاً يجمعها هجاء قولك: لجد صرف شكس آمن طي ثوب عزته(٢).

ب- ما هو ضروري في التصريف، وهو "تسعة: يجمعها" هجاء قولك: "هدأت موطيا" وهي لهاء، والدال المهملة، والهمزة، والتاء المثناة من فوق، والميم، والواو، والطاء المهملة، والياء المثناة تحت، والألف "وخرج بقولنا: شائعاً"، ما أبدل نادراً "نحو قولهم في: أصيلان، تصغير: أصيل، على غير قياس"، وقال ابن السيد، كأنه تصغير "أصلان"، وهو عكس قياس المصغر، لأن حكم الجمع إذا صغر أن يصغر على لفظ واحده، وهذا جاء مصغراً على لفظ جمعه(٣).

واللغويون قد قصروا عنايتهم على هذا النوع من الإبدال، وعدُّوه من سنن العرب؛ إذ يبدلون الأصوات -الحروف- ويقيمون بعضها مقام بعض نحو: غَذّ وغَذَا، ومَطَطْتُ ومَطَوْتُهُ"(٤)... إلخ؛ إذ أبْدلَ -في رأيهم- أحد

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢ /٦٨٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢ /٦٨٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢ /٦٨٩-٦٩٠.

(٤) ينظر: الإبدال اللغوي: ١ /٣٩٦، ٢/٢٩٢.

الصَّوتين المتماثلين المتجاورَين المدغمين فيما ذكر من الأمثِلة إلى صوت صائت طويل، وسيأتي مزيدُ إيضاح لها فيما بعد.

ذكر علماء العربية أنَّ إبدال الحروف الساكنة الصحيحة -الصوامت- حروفَ علة ولين- صوائت- يعود- في أساسه- إلى ما يأتي:

١- اجتماع الأمثال: وهو ظاهرة مستثقلة ومكروه في ذائقة السمع العربيّ[١]، وما ذلك إلاَّ لأنَّ اجتماع الأمثال يثقل على جهاز النطق، ومستكره في الأسماع، وأنَّ اختلاف الحروف أخفّ عليهم من أن يكون من موضع واحد، ألا ترى أنَّهم لم يجيئوا بشيء من الثلاثة على مثال الخمسة نحو ضَرَبَّبٍ، ولم يجئ فَعَلَّلٌ ولا فَعُلَّلٌ إلا قليلاً، ولم يبنوهن على فُعَالِلٍ كراهية؛ وذلك لأنَّه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثمَّ يعودوا له، فلمَّا صار ذلك تعباً عليهم أن يداركوا في موضع واحد، ولا تكون مهلة كرهوه وأدغموا؛ لتكونَ رفعة واحدة، وكان أخفَّ على ألسنتهم مما من اجتماعهما[٢].

٢- الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه مع اختلافه عنه ببعض الصفات، وهو ما يسمَّ التقارب، مثل "**قدت**" حيث تدغم "**الدال**" في "**التاء**"؛ لأنَّهما متقاربان، لاشتراكهما في المخرج، فكان بمنزلة "**تاء**" أدخلت على "**تاء**"، وكذلك "**الميم**" تكون بدلاً من "**النون**" كما في "**عنبرٍ**" و"**شنباء**" ونحوهما، إذا سكنت وبعدها "**باءٌ**". وقد أبدلت من "**الواو**" في "**فم**" وذلك قليل، كما أنَّ بدل "**الهمزة**" من "**الهاء**" بعد

(١) الأشباه والنظائر: ١/١٨.

(٢) ينظر: الكتاب: ٢/٣٩٨-٤٠١.

الألف في ماءٍ ونحوه قليل، وأبدلوا "**الميم**" منها إذ كانت من حروف الزيادة، كما أبدلوا "**التاء**" من "**الواو**" وأبدلوا "**الهمزة**" منها، لأنَّها تشبه "**الياء**". وأبدلوا "**الجيم**" من الياء المشدَّدة في الوقف نحو "**علجٍ**" و"**عوفجٍ**"؛ يريدون: "**عليٌّ**" و"**عوفيٌّ**"(١).

٣- الحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه، ومن أمثلة هذا النوع حرف النون الذي يضارع به الألف وهو ليس من موضعه، قال ابن سيده: «ثم النون لأنَّه أشبه بحروف العلّة وما فيها من الغنة كما في حروف العلة والمد»(٢)، وقال ابن يعيش: «أبدلت الألف من النون في هذه المواضع لمضارعة النون حروف المد واللين بما فيها من الغنَّة»(٣)، وأورد السيوطي ستةَ عشر وجهاً لتشابه النون حروف المد واللين، وقد ذكر منها أنَّ فيها غنَّة، كما أنَّ في الألف وأختيها مدّاً، ومعاقبتها لهنَّ في المحل الواحد نحو جرنفش وجرافش(٤)، وقالوا عن الياء: "وإنَّما كثُر إبدال الياء -الساكنة الصحيحة- لأنَّه حرف مجهور مخْرَجه من وسط اللسان، فلمَّا توسَّط مخرجه الفم وكان منه من الخفَّة ما ليس في غيرِه كثر إبداله كثرةً ليستْ في غيره إلخ(٥).

٤- التخفيف للتضعيف، وذلك بقلب أحد الأصوات المضعفة الصامتة إلى

---

(١) ينظر: الكتاب: ١/٢٤٠.

(٢) المخصص: ١٣/٢٦٨.

(٣) شرح المفصل: ١٣/٢٠.

(٤) الأشباه والنظائر: ١/٢٩٨.

(٥) شرح المفصل: ١٠/٢١.

صائت طويل، وذلك نحو "تَغَلَّى في تَغَلَّلَ"[1]، و تَلَظَّى في تَلَظَّظَ"[2]، و"خَمَى في خَمَّ"[3]، وورد على الإجراء اللُّغوي الثَّاني شواهد كثيرة من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- ومن أشعار من يوثَق بعربيَّته ومن كلام العرب الفصحاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾[4][5]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[6]، بمعنى دسسها[7].

٥- ما شبه من المضاعف الصحيح بالمعتلّ، فحذف في موضع حذفه، فالتَّضعيف مستثْقل في النطق، وإنَّ رفع اللسان عنه مرَّة واحدة ثم العودة إليه ليس كرَفْع اللسان عنه وعن الحرف الَّذي من مخرجه، ولا فصل بينهما؛ فأبدل بعض العرب الياء من الثاني؛ لئلاَّ يلتقي حرفان من جنس واحد؛ لأنَّ الكسرة بعض الياء وأنَّ الياء تغلَّبتْ على الواو رِفعةً، فما فوقها حتَّى يصيرها ياءً، فلذلك وجب تشبيهه بالمعتلِّ فقالوا: تَسَرَّيت وتَظَنَّيت وتَقَصَّيت من القِصَّة، وأمليْت، فأبدلت الياء للكسرة، فلمَّا فرقت بين المضاعفين رجع الأصل، فقلب: دنانير وقراريط، وما خرج عمَّا ذُكِر ممَّا يرى أنَّه خالف أصل الموجود من الصِّيغ العربيَّة، وليس له

(١) لسان العرب: ١٠٠٥/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧١/٣.

(٣) المصدر نفسه: ١١١٧/١.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السَّبع وعِلَلها وحججها: ٣٠٨/١.

(٦) سورة الشمس: ١٠.

(٧) الكشف عن وجوه القراءات السَّبع وعِلَلها وحججها: ٣٠٨/١.

علاقة ظاهرة عنده، وصفه بأنه شاذ جيء به لضرورة من وزن أو خلافه[1]، كما أنَّ التاء في أَسْنَتُوا مبدلة من الياء، أرادوا حرفاً أخفَّ عليهم منها وأجْلد كما فعلوا ذلك في أتلج، وبدلها شاذّ هنا بمنـــزلتها في سِتٍّ، وكل هذا التَّضعيف فيه عربي كثير جيد [2].

٦- استثقال المثلين: فما وقع من هذا في الصيغ العربية، وذلك قولهم في تَقَضضت: تَقَضَّيتُ، وفي أَمْلَلْتُ: أَمْلَيتُ، وكذلك تَسَرَّيتُ في تَسَرَّرْتُ، والدليل على أنَّ هذا إنَّما أُبدل لاستثقال التضعيف، قولك: دينار وقيراط والأصل دِنَّارٌ وقِرّاطٌ، وذلك قولهم: أَحَسْتُ يريدون أَحْسَسْتُ، وأَحَسْنَ يريدون أَحْسَسْنَ، وكذلك تفعل في كلِّ بناء تُبنى اللام من الفعل فيه على السُّكون، ولا تصل إليْها الحركة شبهوها بـــ"أقمت"؛ لأنهم أسكنوا الأولى، فلم تكن لتثبت والآخرة ساكنة، فإذا قلت: لم أُحِسَّ لم تحذف؛ لأنَّ اللام في موضع قد تدْخله الحركة، ولم يبن على سكون لا تناله الحركة، فهم لا يكرهون تحريكها، ألا ترى أنَّ الذين يقولون: لا تَرُدَّ، يقولون: رَدَدتُّ؛ كراهيةً للتحريك في فَعَلْتُ، فلمَّا صار في موضع قد يحرِّكون فيه اللام من "رددت" أثبتوا الأولى؛ لأنَّه صار بمنـــزلة تحريك الإعراب إذا أدرك نحو "**يقولُ، ويبيعُ**"، وإذا كان في موضع يحتملون فيه التَّضعيف لكراهية التَّحريك حذفوا؛ لأنَّه لا يلتقي ساكنان، ومثل ذلك قولهم: ظِلْتُ ومِسْتُ، حذفوا وألقوا الحركة على الفاء، كما قالوا: خِفْتُ وهذا في النَّحو شاذّ، والأصل في هذا عربي كثير[3]، ومن شواهده في

(١) ينظر: الكتاب: ٤/٤٢٤، والمقتضب: ١/٢٤٦.

(٢) ينظر: الكتاب: ٤/٤٢٤.

(٣) ينظر: الكتاب: ٤/٤٢١-٤٢٢، والخصائص: ٢/٢٣١-٢٣٢.

القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[1] فأصل يتسنَّه: من مسنون، فيكون تقديره "لم يتسنن"، فقلبت النون الثانية ياءً، ثم قلبت ألفاً لتطرفها وانفتاح ما قبلها، وحذفت للجزم، ثم حلَّت محلَّها هاء الوقف[2].

❖ أصالة القلب والإبدال في العربيَّة:

اعتنى العرب بلغتهم اعتناء فاق أيَّ اعتناء، واتَّبعوا سننا في كلامهم منها تغيُّرات صوتيَّة تطرأ على بعض الأصوات حال تركيبها، ودخولها في بناء لغويٍّ، معتمدين في ذلك على الذوق المتميِّز في الكلام، ومتَّبعين السهولة في النطق، وجمال التركيب إلا أنَّ كثيرا من المحدثين يميْل إلى القول بأنَّ كثيراً من التغيُّرات الصوتيَّة في اللغة العربيَّة هو مِن آثار التطور التاريخي في اللغة مما يؤدِّي –في بعض آثاره– إلى أن ترث العربية بعضَ خصائص اللغات السامية القديمة، وتبقى فيها أثراً يمتُّ إلى اللغة الجزريَّة الأمّ، وفسَّروا على هذا الأساس معظم التغيُّرات الصوتية في اللغة العربية فيقول الأستاذ إبراهيم أنيس: «إنَّ اللام والميم والنون من الأصوات الساكنة، وهي أكثرها شيوعاً في اللغة العربية، وأنَّها قد تحوَّلت في مرحلة من مراحل اللغة العربية إلى الياء والواو، من مثل: وشر ونشر، والوقص والنَّقص، والوكز واللكز، ولا تقتصِر هذه الظَّاهرة على اللغة العربيَّة، بل الباحِث المدقِّق في كلمات اللغات السامية كالعبرية سيعثر على أمثال هذه الكلمات التي سقناها، الواو والياء كانتَا إذاً أحد الأصوات الثلاثة –اللام والنون والميم–، وقد أدَّتْ عوامل التطوُّر اللغوي إلى هذا الانقلاب، فاللام والميم والنون تكون مجموعة من الأصوات

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٢) ينظر: المخصص: ١٩٣/٤.

الساكنة، وهي أكثرها في اللغة العربية، ولا يبعد أن تكونَ هذه الحقيقة في كلِّ اللغات السامية[1].

ويرى المطلبي تعقيباً على إبدال الهاء من الياء في -هذي- أنَّ ذلك الإبدال شائعٌ عند بني تميم في الوقف المحض، وفي الحقِّ أنَّ صلة الهاء بأصوات المدِّ معروفة تاريخيّاً في اللغات السامية، ولعلَّ ذلك واضح كلّ الوضوح في اللغة العربيَّة؛ إذ إنَّ صوت الهاء فيها من أصوات الاعتلال، ويعامل في حالة تطرُّفه في طائفة من الأفعال معاملة أصوات المدِّ[2].

وواضح ما في هذا القول من الظنِّ والتوهُّم ممَّا ليس له دليل علميّ يطلعنا على أطواره منذ نشأته، حتى استوائه فيبقى هو مجرَّد رأي أخذوه عن المستشرقين، ولم يقم عليه دليل؛ إذ إنَّ اللغة الجزريَّة أو الساميَّة الأم هي بحدِّ ذاتها افتراض وضرب من التخمين، لم يوقف له على أصل، وإنَّما هو يقرب نظريَّة الإلحاد لداروين -النشوء والتطوُّر- من جانب بناء أحكام على الظنِّ المجرَّد.

وعلماء اللغة القدماء كانوا أكثر دقَّة وضبطاً في منهجهم العلميَّ عند التعامل مع هذه التغيُّرات، وقد أشاروا إلى وجودها في اللُّغة العربية في ألفاظ كثيرة لا تُحصَى[3] ممَّا يدلُّ على أصالتهما في اللغة العربيَّة، وليس اكتسابهما من لغة أخرى؛ لعدم وجود دليل علميٍّ يثبت ذلك.

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٨.

(٢) ينظر: في الأصوات اللغوية- دراسة في أصوات المدّ العربية: ٢٠٦.

(٣) ينظر: المخصص: ٢٨٨/١٣، والخصائص: ٩١/٢ وما بعدها، وشرح الشافية: ٢١٢/٣، والمصباح المنير: ٣٩٦/١، الإبدال: ٤٧/٢.

المطلب الثاني: الحذف:

يُعَدُّ الحذف اللغويّ نوعاً من تخفيف الثِّقل النطقي للفظ أو الجملة، سواء كان الحذف قياسيّاً أو سماعيّاً، ويكون بحذف بعض حروف اللفظ -مثلاً- للتقليل من عددها حتَّى يسهل النطق، أو بحذف بعض عناصر الجملة في حال طولها، وهو أيضاً- وإن تمَّ بحذف حرف أو حركة أو أكثر أو بالتخلُّص من كلمة أو أكثر، و يكون الحذف تارة في الصوائت القصيرة، وتارة في الصوائت الطويلة، وسنوضّح ذلك فيما يأتي:

❖ **حذف الحركات:**

إنَّ ظاهرة حذف الحركات ممَّا شهده البناء الصوتيّ للغة العربيَّة فكُتب النحاة العرب مليئةٌ بالكثير من الأمثلة على ذلك، فقد أجازوا التسكين في - فَعُلَ وفَعِلَ- اسماً كان أو فعلاً، كما في عَضْدُ وفَخْذُ وكَرْمَ وعَلْمَ، وقد قالوا بأنَّ الثِّقل هو لغة لأهل الحجاز، بينما التخفيف -بمعنى عدم الحركة للعين- هو لغة لبكر وأناس كثير من بني تميم(١)، وما يقال عن ذلك يُقال مثله عن الإشمام في اللغة العربية... إلخ.

ومن مظاهره: اجتزاء الصائت الطويل من آخر الكلمة والاكتفاء بصائت قصير مجانس له، فالعرب تميل إلى اجتزاء الصائت لكثرةِ استعمالهم إيَّاه، ومِن ذلك أنَّ العرب تقول: «لا أدرِ فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر»(٢)، وإنْ كان الأجود مِنَ الناحية النحْويَّة إثبات الياء. وكثيراً ما يقصرون الصوائت الطويلة.

---

(١) الكتاب: ٢/٢٥٨.

(٢) القراءات الشاذة دراسة صوتية ودلالية: ٢/٤٩٨.

❖ **حذف الحروف:**

أ- حذْف حرف أو أكثر من أوَّل الكلمة: وفي اللغة العربيَّة صور عدَّة تمثِّل هذه الظَّاهرة الصوتيَّة أصدقَ تمثيل، فمن ذلك -مثلاً- حذف التَّاء من أوَّل الفعل المضارع، وذلك إذا تليت مباشرة بتاء أخرى، ويتحقَّق هذا -عند الصرفيِّين العرب- في ثلاث صيغ هي: تَفَعَّلَ، تَفَاعَلَ، تَفَعْلَلَ، فعندما نبني فعلاً مضارعاً من هذه الصيغ -مثلاً- يصبح: -تَتَأَمَّل، تَتَصَارَعُ، تَتَدَحْرَجُ... إلخ، إلا أنَّ الاستعمال جرى بحذف إحدى التاءين -جوازاً- كراهةَ اجتماع المثلين زائدين؛ وذلك طلباً للخفَّة، فيصبح: تأمَّلُ، تَصَارعُ، تدحرجُ.

ب- الياء والواو اللتين هما علامة المضمر: إذ حذفوهما تشبيها لها بياء يقضي، وهي لهجة ناسٌ كثير من قيس وأسد. ولم تكثر واحدةٌ منها في الحذف ككثرة ياء يقضي؛ لأنَّهما تجيئان لمعنى الأسماء، وليستا حرفين بنيا على ما قبلهما، فهما بمنـــزلة هاء الضمير نحو "**غلامه**" و"**كتابه**" ومن أثلة هذا الحذف تميم بن أُبَيٍّ بن مقبل(1): البسيط

لا يُبْعِدُ اللهُ أصْحَاباً تَــرَكْتُهُمُ   لم أدْرِ بعد غَداةِ البَيْنِ ما صنع

يريد: ما صنعوا(2).

وقال ابن مقبل أيضاً(3): البسيط

---

(1) دوانه: ١٣٤. وفي الديوان لم يحذف الواو، والقصيدة مطلقة -عينيَّة مــضمومة- فلا يحتاج إلى حذفه، ولعلَّ ما ذكره سيبويه رواية عن بعض العرب.

(2) الكتاب: ٤/٢١١-٢١٢.

(3) دوانه: ١٣٦. وفي الديوان لم يحذف الواو، والقصيدة مطلقة -عينيَّة مــضمومة- فلا يحتاج إلى حذفه، ولعلَّ ما ذكره سيبويه رواية عن بعض العرب.

لو ساوَفَتْنا بسوفٍ مِن تَحِيَّتِهَا   سَوْفَ العَيُوفِ لَراحَ الركْبُ قد قَنِعْ

يريد: قنعوا[1].

ومنه كلمة "ءاتَن" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٌ﴾[2]، فهذه الكلمة تقرأ عند حفص كما يأتي:

١- حال الوصل: تقرأ في الوصل بإثبات الياء مفتوحةً.

٢- حال الوقف: تقرأ في الوقف بأحد وجهين:

الأوَّل: حذف الياء.

الآخر: إثبات الياء ساكنةً [3].

وكذلك قولَه تعالى سبحانه وتعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾[4]، أي: كالذين خاضوا.

ت- حذف عين الميزان الصرفي -فَعَلَ- في الفعل المضعَّف عند إسناده إلى تاء الفاعل؛ لاستثقال اجتماع المثلين، كما في ظَلِلَ ومَسِسَ و حَسِسَ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، ومذاهب الصَّرفيين العرب في ذلك وأمثاله: الإتمام نحو ظَلِلْتُ، أو جواز حذف العين بدون نقْل حركتها نحو: ظَلْت ومَسْتُ، وجواز حذف العين مع نقْلِ حركتها إلى الفاء نحو: ظِلْتُ ومِسْتُ وحِسْتُ... إلخ[5].

---

(١) المصدر نفسه: ٤/٢١٢.

(٢) سورة النمل: ٣٦.

(٣) ينظر: فتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد: ١٢٥.

(٤) سورة التوبة: ٦٩.

(٥) شرح ابن عقيل: ٤ /٢٤٦ وما بعدها.

ث- الحذْف الَّذي تقتضيه بنية اللفظ، وهو وإن كان شائعاً استعماله في -الصوائت-، فقد يستعمل أيضاً مع الصَّوامت -الحروف السَّاكنة الصَّحيحة-، نحو: حذف فاء الميزان الصَّرفي -فَعَلَ- من كلِّ فعل مضارع مثال، كما في "**وهب**" و"**وصل**" و"**وعد**"، فإنَّها تصبح: "**يهب**"، و"**يصل**"، و"**يعد**"، والأصل: "**يوْهَبُ**"، و"**يوْصَلُ**"، و"يوْعَدُ"[1]، والسبب في هذا الحذف هو كراهة توسُّط الواو بين ياء وكسرة[2].

ومن هذا القبيل: حذف الهمزة الزَّائدة من الفِعل الماضي عندما نبني منه الفعل المضارع وما تفرَّع عنه، نحو: "أكرم يكرم"، و"أضاف يضيف" والأصل: "**يؤَكْرِمُ**" و"**يؤْضِيفُ**" إلخ.

ومنه أيضاً: حذف بعض حروف الكلمة عند اتِّصال الضَّمائر بالأفعال، وذلك نحو: مضى ومشى وقضى وسعى، حيثُ تصبح: مضَوا وتَمشين وسعَتْ وقضَوا... إلخ.

وكذلك ما زاد على الرباعيِّ وَلَمْ يَكُنِ الرَّابِعُ مِنْ حُرُوفِ الْمَدِّ وَاللِّينِ فإنَّه يدخله الحذف في الجمع والتصغير نحو "**عندليب**" تجمع على "**عنادِل**"، وتصغَّر على "**عنيدِل**"، و"**عنكبوت**" تجمع على "**عناكب، وعناكيب**"، وتصغَّر على "**عنيكب**" فهذه الكلمات وأمثاله مَحْذُوفٌ منْها، وهو حذف مضطرد؛ لأَنَّ كُلَّ اسْمٍ جَاوَزَ أَربعة أَحرف وَلَمْ يَكُنِ الرَّابِعُ مِنْ حُرُوف الْمَدِّ وَاللِّينِ، فإنه يُرَدُّ إلى الرُّباعي، ثُمَّ يُبْنَى مِنْهُ الْجَمْعُ وَالتَّصْغيرُ، فإِن كَانَ الْحَرْفُ الرَّابِعُ مِنْ حُرُوفِ الْمَدِّ وَاللِّينِ فإِنَّها لا تُرَدُّ إِلى الرُّبَاعِيِّ وَتُبْنَى مِنْهُ[3].

---

(١) شذا العرف في فن الصرف: ٦٠ وما بعدها.

(٢) الكتاب: ٢/٢٣٢ وما بعدها.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادَّة (عندل): ١١/٤٨٠.

الحذف للتَّرخيم، ويكون بحذف آخر اللفظ وإشباع الحركة التي قبله ليتولَّد عنها حرف صائت طويل للتَّرخيم أو التَّخفيف، نحو حذف بعض أجزاء الكلِمة في المنادَى المرخَّم، حيث قسموه إلى: حذف آخِر الكلمة على لغة مَن ينتظر[1]- وهنا قالوا: يبقى آخرها دون تغْيير من إعراب أو بناء، نحو وقد قرئ بالحذف على الإجراء اللغوي الأوّل قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[2]، هكذا "يا مالِ" بكسر اللام على لغة مَن ينتظر المحذوف، وهي قراءة عبد الله وعلي وابن وثَّاب والأعمش[3].

وحذف آخر الكلِمة على لغة مَن لا ينتظر -وهنا قالوا: يعامَل آخر هذه الكلمة من الإعراب بما يعامل به آخرُ الكلمة وضعاً- ويعدُّ اسماً تامّاً، فيقول: "**يا جعفُ**"، كما لو كان قبل الترخيم "**يا جعفرُ**"[4].

ج- الحذف للضرورة الشعريَّة: ورد عن العرب في باب الضرورة الشعريَّة أخرى من الحذف هي: حذف الضَّمير، وبعضه، وبعْض الحرف، وبعض الاسم، وبعض الاسم المقْرون بأل، وبعض الفعل... إلخ، فمن ذلك قول مزاحم العُقَيْليُّ[5]: الطويل

---

(١) لغة من ينتظر، أي: من ينتظر الحرف فيبقي آخر المرخَّم على ما كان عليه قبل الترخيم من حركة أو سكون فتقول في "جعفر" يا جعفَ ، أمّا لغة من لا ينتظر الحرف فإنّه يعامل آخر المنادى المرخَّم بما يعامل به آخر الكلمة وضعا، فيقول في جعفر: يا جعفُ. ينظر شرح ابن عقيل: ٣: ٢٩٣.

(٢) سورة الزخرف: ٧٧.

(٣) الشواذ: ١٣٦.

(٤) ينظر: همع الهوامع: ١/١٨٤ وما بعدها.

(٥) شعره: ١٠٥.

وَقَالُوا تَعَرَّفْهَا المَنَازِلَ مِنْ مِنًـــى   وَمَا كُلُّ مَنْ وَافَى مِنًى أَنَا عَارِفُ

فيمن أطلق القافية مع رفع لفظ "**كلّ**" ووجه ذلك أنَّه إذا رفع "**كلاًّ**" فلا بدَّ من تقدير الهاء ليعود على المبتدأ من خبره ضمير[1].

ومن أمثلة حذف بعض الضَّمير قول القائل[2]: الرجز

دَارٌ لِسُعْدَى إِذْهِ مِــنْ هَوَاكَــا

أراد "إذ هي" فحذف "الياء" من ضمير الغيبة للمؤنث للضرورة الشعريَّة[3].

ومن أمثلته قول لبيد بن ربيعة[4]: الكامل

دَرَسَ الْمَنَــا بِمُتَــالِعٍ فَأَبَــانِ   وَتَقَادَمَتْ بِالْحُبْسِ فَالسُّوْبَانِ[5]

فإنّه أراد أن يقول: المنازل[6] فاضطرّ إلى ثلم الكلمة أي: الحذف من حروفها؛ ليستقيم له الوزن فقال: المنا. والعرب تقول ذلك كثيراً[7].

ومن أمثلة حذْف بعض الحرف قول النجاشيّ الحارثيّ[8]: الطويل

فَلَسْتُ بِآتِيــهِ وَلاَ أَسْــتَطِيعُه   وَلاَكَ اسْقِنِي إِنْ كَانَ مَاؤكَ ذَا فَضْلِ

---

(١) الخصائص: ٢/٢٥٤.

(٢) الكتاب: ١/٢٦. ولم نعثر على نسبة للبيت.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/٢٦-٢٧.

(٤) شرح ديوانه: ١٣٨.

(٥) المنا: المنازل، ومتالع والحبس وأبان: أسماء جبال، والسوبان واد لبني تميم. ينظر: شرح ديوان لبيد: ١٣٨.

(٦) ينظر: الموشح: ٢٩٩ ، ونقد الشعر: ٨٦.

(٧) ينظر: العين: باب (العين والنون والقاف، مادَّة: نقع): ١/١٧٢.

(٨) ديوانه: ٥٦.

يريد: ولكن اسقني، فحذف النون من لكن، فقال: ولاك[1]، وحذف النون من "لكن" لا يجوز الا لضرورة الشعر، فحينئذ تحذف لالتقاء الساكنين تشبيها بالتنوين، أو بحرف المدِّ واللين من حيث كانت ساكنة وفيها غنّة، وهي فضل صوت في الحرف كما أنّ المدّ واللين ساكن والمدّ فضل الصوت، فلذلك أجروها مجراهنَّ في الحذف للجازم، وأمَّا إذا كان بعدها ساكن فإنَّها تحذف لالتقاء الساكنين[2].

لكنَّ هذا النوع من الحذف، لا يعدُّ ظاهرة لغويَّة، أو صوتيَّة في بناء اللغة؛ لأنَّ الحامل عليه هو الضرورة الشعريَّة، وهي ما يقع من البناء في الشعر خاصَّة ولا يقع في كلام العرب من النثر، وإنّما يرخّص للشاعر في استعمالها عند مضايق الكلام، واعتياص المرام؛ وأجازت العرب في الشعر ما لا يجوز في غيره من الكلام[3]، وهذا ما عناه ابنَ جني بقوله: «إنَّ العرب قد يحذفون بعض الكلم استخفافاً حذفاً يخلّ بالبقية ويعرض لها الشبه»[4]، فالضرورة الشعريَّة ليست ذريعة للخروج عن البناء اللغويّ السليم، فما هي إلا وسيلة لغوية، لا تخرج عن النظام العامِّ للغة، يلجأ إليها الشاعر لتطويع البيت إلى الوزن الشعري، مما يمنح جرسه وموسيقاه انسجاما مع سائر أبيات القصيدة، فالوزن يحمل على ارتكاب الضرورة والقافية تضطر إلى الإتيان بالحيلة.

وغاية الضرورة أن يُرَدَّ الشيء إلى أصله، أو يحمله على شبيه له، أو يتكلم بلهجة أُخرى وما أشبه ذلك من أساليب النحو العربي؛ لأنّها وسيلة

---

(١) ينظر: الموشح: ١٢٤، وشرح ابن عقيل: ١/١٥٩.

(٢) ينظر: ضرائر الشعر: ١١٥-١١٦، والموشَّح: هامش صفحة: ١٢٤.

(٣) ينظر: الحاشية الكبرى، الدمنهوريّ: ١٣٤، وضرائر الشعر: ١٣.

(٤) الخصائص: ١/٨١.

لسدّ الحاجة الشعرية المتمثِّلة بالوزن والقافية؛ لذلك استجيز فيها ما لا يستجاز في الكلام مثله [1]، ومع ذلك هي غير محبَّبة، لأنَّ من المقرَّر في الشعر أنَّ ما لا يؤدِّي إلى الضرورة أولى في الاستعمال ممَّا يؤدِّي إليها[2].

الخلاصة:

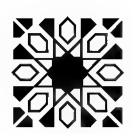
قد عمد العرب إلى هذه الظواهر اللغويَّة؛ طلباً للخفة في النطق، وهذا من سننهم في الكلام، فكلّ ما تقدَّم يشير إلى أنَّ الذوق العربيّ كان يميل طلب الخفَّة والسهولة في نطق الحروف العربية، ممَّا يدفع المتكلم بحروف اللُّغة إلى تجنُّب التحرُّكات النطقيَّة التي يمكن الاستغناء عنها، أو استبدالها بما هو أخفُّ منها في النطق، وهذه الغاية من استبْدال حروف العلَّة واللّين -الصَّوائت- بالحروف السَّاكنة الصَّحيحة -الصوامت- عبَّر عنها ابن سِيده بقوله: "إنَّ حروف العلَّة أحقّ بالإبدال من كلِّ ما عداها من الحروف -يقصد السَّاكنة الصَّحيحة- الصَّوامت- لاجتماع ثلاثة أشياء: طلب الخِفَّة، والكثرة، والمناسبة بين بعضِها وبعْض من جهة ما فيها من المدِّ واللين، ومن جِهة ما يمكن بها في الشعر والتَّلحين، ومن جِهة اتِّساع مخرجها على اشتراكها في ذلك أجْمع، وكلّ واحد من المعاني الثَّلاثة يطالب بجواز الإبْدال، وأمَّا طلب الخِفَّة، فإنَّه إذا كان قلْب الواو إلى الياء في "ميقات" أخفّ من الأصْل الَّذي هو "موِقْات"، فهو أوْلى منه؛ فالخفَّة تطالب به، وأمَّا الكثرة فإنَّ ما كَثُر في الكلام أحقُّ بالتَّخفيف، ولها كثرة ليست لغيرها من الحروف؛ لأنَّه لا تخلو كلمة منهنَّ أو من بعضهن؛ إذ لو أُشبعت الضمة لصارت واواً، ولو أشبعت الفتحة لصارت ألفاً، ولو أشبعت الكسرة لصارت ياءً، فالكثرة تطالب التخفيف على ما بيَّنَّا.

---

(١) ينظر: أثر المفاهيم النقديَّة في البناء اللغويِّ عند المرزبانيّ: ٢٥٧، ٣٢٤-٣٢٥، ٣٣٩.

(٢) ينظر: الحاشية الكبرى، الدمنهوريّ: ١٣٤.

فإنَّ من الأصول المقررة عند اللغويِّين: أنَّ الحذف أخفّ من القلب أو الإبدال، وأنه قد يلتزم الحذْف لكثرة الاستعمال؛ لأنَّ كثرة الاستعمال توجب التخفيف البليغ والحذف أبلغ في باب التَّخفيف من القلب وغيره، وأنَّه قد يُحذف ما يحتاج إليه استخفافاً، اللجوء إلى الحذف هو لطلب الخفَّة، وهو أمر يتعلَّق بطبيعة اللغة نفسها، وميل أصواتها داخل البنية إلى الانسجام فيما بيْنها بالتخلص من الحروف الثقيلة على النطق، واستبدالها بحروف أخرى أخف على النطق؛ مما يحقِّق حدّاً أعلى من الأثر النطقي، وميلاً إلى الاقتصاد في المجهود العضلي للجهاز النطقي من ناحية أخرى.



الفصل الخامس

تطبيقات الدلالة الصوتيَّة في القرآن الكريم

- المبحث الأوَّل: الدلالة والتكامل الصوتيُّ:

المطلب الأوَّل: البناء الصوتيُّ ودلالة الظاهر.

المطلب الثاني: تكامل المستوى الدلالي مع المستوى الصوتيّ.

- المبحث الثاني: التغيرات الصوتية وأثرها في الدلالة:

المطلب الأوَّل: التغيرات الصوتية وأثرها في الدلالة:

المطلب الثاني: بناء الكلام وأثره في الدلالة:

توطئة:

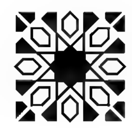
لقد جاء هذا الفصل بهدف الكشف عن القيمة الدلالية الدقيقة للصوت، وإبراز مكانته في إعجاز النصِّ القرآنيِّ، وقدرته المعجزة على الإبلاغ. ولمَّا كان القرآن الكريم أعظم آية أوتيها أعظم نبيٍّ سيِّدنا محمَّد ﷺ تتمثَّل في الذي كان كلُّ شيء فيه معجز: فهو معجز بكلماته وعباراته ونسقه، وبيانه، وأصواته، وجرس كلماته وتناسق ألفاظه في جمله، وتناغم الحروف في تركيبه، وتعادل الوحدات الصوتية في مقاطعه، فكانت مخارج الكلمات متوازنة النبرات، وتراكيب البيان متلائمة الأصوات، فكان لكلِّ حالة مرادة ألفاظها الخاصَّة التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها، فجاء كل لفظ متناسباً مع صورته الذهنية من وجه، ومع دلالته السمعية من وجه آخر، فالذي يستلذه السمع، وتسيغه النفس، وتقبل عليه العاطفة هو المتحقّق في العذوبة والرقَّة، يبيِّن لنا ذلك خير تبيين قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(1).

ولا شكَّ أنَّ استقلالية أية كلمة بحروف معيَّنة، يكسبها صوتيّاً ذائقة سمعية منفردة، تختلف بلا شك عمَّا سواها من الكلمات التي تؤدِّي المعنى نفسه، ممَّا يجعل كلمة ما دون كلمة -وإنْ اتحدا بالمعنى- لها استقلاليتها الصوتية، إمَّا في الجرس المؤثِّر، وإمَّا في البعد الصوتي الخاصِّ بها، وإمَّا زيادة المعنى بزيادة المبنى، وإمَّا بإقبال العاطفة، وإمَّا بزيادة التوقُّع، فهي حيناً تصكُّ السمع، وحيناً تهيِّئ النفس، وحيناً تضفي صيغة التأثر: فزعاً من شيء، أو

---

(1) سورة الزمر: ٢٣.

توجهاً لشيء، أو طمعاً في شيء، إلى غير ذلك. فالقرآن الكريم هو كلام الله ويكفي أنَّه كلام الله بأنْ لا يستطيع مخلوق الإحاطة به قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[1]، ولذلك فإنَّنا سندلي بدلونا، ونتناول ما قسمه الله لنا من بيان بعض الدلالات الصوتيَّة في القرآن الكريم تكون شواهد لما ذكرنا في فصول هذا الكتاب، ودعائم لما أوردنا من الحقائق الصوتيَّة:



(١) سورة طه: ١١٠.

المبحث الأوَّل

الدلالة والتكامل الصوتيُّ

المطلب الأوَّل: البناء الصوتيُّ ودلالة الظاهر:

دلالة الظاهر، أي: "ظاهر النصِّ" وهو ما يتبادر منه إلى الذهن من المعاني، فهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، إذ نجد الكلمة الواحدة لها أكثر من معنى يتحدَّد كلٌّ منها في السياق الذي ترد فيه، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه آخر[1]، فلفظ "القرية" مثلاً يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى. فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾[2].

ومن الثاني: قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾[3].

وتقول: "صنعت هذا بيدي"، فلا تكون اليد كاليد في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4]؛ لأنَّ اليد في المثال أضيفت إلى المخلوق فتكون مناسبة له، وفي الآية أضيفت إلى الخالق سبحانه وتعالى فتكون لائقة به، فلا أحد سليم الفطرة صريح العقل يعتقد أنَّ يد الخالق كيد المخلوق، أو بالعكس.

إذا تقرر هذا فظاهر نصوص الصفات ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني[5].

---

(١) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء: ٥٨.

(٣) سورة العنكبوت: ٣١.

(٤) سورة ص: ٧٥.

(٥) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٣٦-٣٧.

❖ موقف الفرق من الدلالة الصوتيَّة:

لَمَّا كان القرآن الكريم كتاب تعبُّد وتشريع، ووحي منزَّل من السماء وليس كغيره من الكلام، كان الواجب على المسلمين أن بالإيمان والتسليم والصديق، والرضا بكلِّ ما جاء به، لكنَّ كثيراً من المسلمين تفرَّق عن الطريق القويم، متَّبعين أهواء مختلفة، ونحل متعدِّدة جعلوها حاكمة على كتاب الله جلَّ وعلا، فذهبوا يبدِّلون معاني كلمات من القرآن الكريم، ويحرِّفون أخرى بحجج، ودعاوى لم يقم عليها دليل من الشرع، أو العلم الحقيقيّ، ولا من العقل السليم المنضبط، وسمُّوا تبديلهم هذا تأويلا، فراحوا منطلقين في أخطائهم هذه تحت مسمَّى **"التأويل" ليوهموا الناس وليلبسوا عليهم لما للتأويل من سعة في دلالته فهو ليس كمصطلح "التفسير"**.

فمصطلح التفسير يراد به: العِلمُ الذي يُعرَف به فَهْم كتاب الله المنــزل على نبيِّه محمَّد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكمه، واستمداد ذلك من عِلْم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفِقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسِخ والمنسوخ(١).

أو: هو علمُ نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكِّيِّها ومدنيِّها، ومُحْكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصِّها وعامِّها، ومطلقها ومقيَّدها، ومُجْمَلها ومُفسَّرها، وحلالها وحرامها، ووعْدِها ووعيدها، وأمْرِها ونَهْيِها، وعِبَرِها وأمثالها.

وهذان التعريفان هما أشمل ما عرِّف به التفسير، وما عداهما فهو يدخل فيهما(٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/١٣.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/٥٤٣-٥٤٤.

وأمَّا مصطلح، فهو عند السَّلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه؛ سواء وافَق ظاهره أو خَالَفَه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفَين، وهذا هو الشائعُ عند المتقدِّمين من علماء التفسير، كالإمام ابن جرير وغيره (١).

وأما التأويل عند المتأخِّرين، فهو صَرْف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يَقْتَرِن به، وعلى هذا فالمتأوِّل مطالَب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبيِّن احتمالَ اللفْظ للمعنى الذي حمَلَه عليه، وادَّعى أنه المراد.

الأمر الثاني: أن يبيِّن الدليلَ الذي أوجب صرْفَ اللفْظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص(٢).

وما كان من التأويل الذي هو صرف الكلام عن دلالته الصوتيَّة والمعجميَّة، لا يصار إليه مع إمكان حمْل الشيء على ظاهِره، لاسيما إذا لم يقمْ دليل على خلافه، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى؛ إذِ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنَّما يكون لمرجِّح(٣).

❖ **أقسام الفرق** ظاهر الكلام والدلالة الصوتيَّة:

انقسم الناس في هذا الأمر إلى ثلاثة فرق:

١- أهل السنَّة والجماعة: وهم من جعلوا الظاهر المتبادر منها معنى حقّاً يليق بالله عزَّ وجلَّ، وأبقوا دلالتها على ذلك، وهؤلاء هم السلف الذين

---

(١) مجاز القرآن: ١/٨٦، والإتقان في علوم القرآن: ٤/١٦٧.

(٢) التفسير والمفسرون: ١/١٩.

(٣) البحر المحيط: ٢/٢٥٨.

اجتمعوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، والذين لا يَصْدُقُ لقب أهل السنة والجماعة إلا عليهم، وقد أجمعوا على ذلك، كما نقله ابن عبد البر فقال: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على معناها الظاهر.

٢- من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله. وهم أهل التعطيل، سواء كان تعطيلهم عاماً في الأسماء والصفات، أم خاصاً فيهما، أو في أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معانٍ عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطرابا كثيراً، وسموا ذلك تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف، ومذهب هؤلاء باطل من وجوه:

أ- إنَّه جناية على النصوص، وتعطيل لها عن المراد بها، فكيف يكون المراد بها التشبيه وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[1]، ونهى عباده أن يضربوا له الأمثال، أو يجعلوا له أنداداً فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]. وكلام الله تعالى كلُّه حق، يصدِّق بعضه بعضاً ولا يتناقض[4].

ب- إنَّ العقل دلَّ على مباينة الخالق للمخلوق في الذات والصفات، فكيف يحكم بدلالة النصوص على التشابه بينهما؟.

---

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) سورة النحل: ٧٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٢.

(٤) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٣٩-٤١.

ت- إنَّ هذا المفهوم الذي فهمه المشبه من النصوص مخالف لما فهمه السلف منها، فيكون باطلاً.

٣- المعطِّلة: وهم من جعلوا في بادئ الأمر المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله. فعطَّلوا النصوص عن معانيها؛ لذلك سُمُّوا أهل التعطيل، ومنهم من كان تعطيله عاماً في الأسماء والصفات، ومنهم من كان تعطيله خاصّاً فيهما، أو في أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معاني عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطراباً كثيراً، وسَمَّوا ذلك تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف؛ لأنَّه غيَّر معنى اللفظ عمَّا هو معلوم له في اللغة العربيَّة. ومذهبهم باطل من وجوه:

أ- إنَّه جناية على النصوص، حيث جعلوها دالة على معنى باطل غير لائق بالله عزَّ وجلَّ ولا مراد له.

ب- إنَّه صرف لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ عن ظاهره. والله تعالى خاطب الناس بلسان عربيٍّ مبين ليعقلوا الكلام ويفهموه على ما يقتضيه هذا اللسان العربيُّ، والنبيُّ ﷺ خاطبهم بأفصح لسان البشر، فوجب حمل كلام الله ورسوله ﷺ على ظاهره المفهوم بذلك اللسان العربيِّ، غير أنَّه يجب أنْ يصان عن التكييف والتمثيل في حقِّ الله عزَّ وجلَّ.

ت- إنَّ صرف كلام الله ورسوله ﷺ عن ظاهره إلى معنى يخالفه قول على الله بلا علم، وهو محرم لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: ٣٣.

❖ **بطلان منهج تعطيل ظاهر الكلام عن دلالته:**

إنَّ صرف نصوص الصفات عن ظاهرها مخالف لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها، فيكون باطلاً، لأنَّ الحقَّ بلا ريب فيما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها.

ومن لوازم منهج التعطيل: أنَّ النبيَّ ﷺ وخلفاءه الراشدين وأصحابه وسلف الأمَّة وأئمَّتها ﷺ أجمعين كانوا قاصرين لجهلهم بذلك، وعجزهم عن معرفته، أو مقصرين في معرفة وتبيين ما يجب لله تعالى من الصفات، أو يمتنع عليه، أو يجوز. إذ لم يرد عنهم حرف واحد فيما ذهب إليه أهل التعطيل في صفات الله تعالى وسمّوه تأويلاً، لعدم بيانهم للأمة. وكلا الأمرين باطل.

ثمَّ إنَّ من أهل التعطيل من طرد قاعدته في جميع الصفات، أو تعدى إلى الأسماء أيضاً. ومنهم من تناقض فأثبت بعض الصفات دون بعض، كالأشعرية والماتريدية، أثبتوا ما أثبتوه بحجَّة أنَّ العقل يدلُّ عليه، ونفوا ما نفوه بحجَّة أنَّ العقل ينفيه أو لا يدلُّ عليه.

وبهذا تبين بطلان مذهب أهل التعطيل، سواء أكان تعطيلاً عاما أم خاصاً.

وبه علم أنَّ طريق التعطيل الخاص -تعطيل الأشاعرة والماتريدية- في أسماء الله وصفاته وما احتجوا به لذلك لا تندفع به شبه المعتزلة والجهمية، وذلك من وجهين:

١- إنَّه طريق مبتدع لم يكن عليه النبيُّ ﷺ ولا سلف الأمَّة وأئمَّتها، والبدعة لا تدفَع بالبدعة، وإنَّما تدفع بالسنَّة.

٢- إنَّ أصحاب التعطيل العامّ -المعتزلة والجهمية- يمكنهم أنْ يحتجُّوا لما نفوه على أصحاب التعطيل الخاص -الأشاعرة والماتريدية- بمثل ما احتجَّ به

أصحاب التعطيل الخاص -تعطيل الأشاعرة والماتريدية- أنفسهم لما نفوه على أهل السنة، فيقولون: لقد أبحتم لأنفسكم نفي ما نفيتم من الصفات بما زعمتموه دليلاً عقليّاً، وأوَّلتم دليله السمعيَّ، فلماذا تحرِّمون علينا نفي ما نفيناه بما نراه دليلاً عقليّاً، ونؤوِّل دليله السمعي؟ فلنا عقول كما أنَّ لكم عقولاً، فإن كانت عقولنا خاطئة فكيف كانت عقولكم صائبة؟ وإنْ كانت عقولكم صائبة فكيف كانت عقولنا خاطئة؟ وليس لكم حجة في الإنكار علينا سوى مجرِّد التحكُّم واتباع الهوى.

وهذه حجة دامغة، وإلزام صحيح من الجهمية والمعتزلة للأشعريَّة والماتريديَّة، ولا مدفع لذلك ولا محيص عنه، إلا بالرجوع لمذهب السلف الذين يطردون هذا الباب، ويثبون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ إثباتاً لا تمثيل فيه ولا تكييف، وتنــــزيها لا تعطيل فيه ولا تحريف، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1][2].

والعجيب أنَّ هؤلاء بعد كلِّ ذلك التحريف والتعطيل يعودوا فيثبتوا معنى ويقولون هو معنى يليق بالله! فيالله العجب! كيف أنَّهم انتهوا إلى ما بدأ به أهل السنَّة والجماعة بأنَّ صفات الله سبحانه وتعالى تليق به، وهذا بعد أن حرَّفوا وبدَّلوا المعنى. فقالوا في الاستواء: هو استيلاء متناسين «أنَّ تفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير مرذول؛ إذ القائل به لا يسعه أنْ يقول كاستيلائنا، بل لابدَّ أنْ يقول: هو استيلاء لائق به عزَّ وجلَّ. فليقل من أوَّل الأمر هو

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٤٢-٤٨.

استواء لائق به جلّ وعلا»[1]، ولو أنَّهم قالوا ابتداء: استواء يليق بالله لعلموا وسلموا وغنموا، وكذلك قالوا في الرحمة وغيرها يقولون بعد أن يعطوها معنى غير معناها المعهود في اللغة العربيَّة: يليق بالله، ولو أنَّهم أثبتوا المعنى الصحيح وقالوا: رحمة تليق بالله ليست كرحمة المخلوق لعلموا وسلموا وغنموا.

ولا يفهم ممَّا تقدَّم أنَّنا نغضُّ من منــزلة أحد العلماء، أو نتطاول عليه، بل منــزلته عالية محفوظة، وقدرهم في قلوبنا كبير، وإنَّما أردنا أنْ نبيِّن الحقَّ ونعتذر عمَّن مسَّ عمله خطأ، أو زلل مع علمنا بسلامة نيَّاتهم، وصفاء قلوبهم، ولكنَّ الخطأ من طبيعة البشر.

المطلب الثاني: تكامل المستوى الدلالي مع المستوى الصوتيّ:

إنَّ ممَّا تميَّز به استعمال القرآن الكريم للألفاظ جاءت التناسب أتمَّ المناسبة وأكملها مع جرسها وأصواتها فكانت دالَّة على معنى لم يدلَّ عليه غيرها، وتحمل بين طيَّاتها دلالات إشارة وإيماء إضافة إلى دلالتها المركزيَّة، وسنتناول بإذن الله فيما يأتي أمثلة لذلك:

❖ القيمة التعبيريَّة للصوت:

تتميَّز اللغة العربية بدقَّة أسمائها للأشياء، وبثرائها اللغويِّ الذي لا تدانيها في لغة أخرى، وبجمال ألفاظها ومعانيها. وعلاقة الصوت باللغة العربية علاقة قويَّة، فقد عبَّرت اللغة العربية بدقَّة عن أنواع الصوت وقوَّته وحدَّته وتدفُّقه. وتتميز هذه الدقَّة بكون اللفظ يدلُّ على الصوت نفسه، والصوت يتجلى فيه اللفظ ذاته، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة، وتؤخذ الكلمة منه، وهذا من باب مطابقة الألفاظ للمعاني بما يشكل أصواتها، فتكون أصوات الحروف على سمت

---

(١) روح المعاني: ٨/١٣٦.

الأحداث التي يراد التعبير عنها، فقدرة اللغة العربية على التعبير عن أي شيء سواء كان مادياً أو معنوياً غير محدود، كما أنَّ التعبير عن الأسماء الدقيقة للأصوات المختلفة يأتي من قدرتها على تمييز الأصوات ومعرفة مصادرها وانواعها وأسمائها، وقد تناول اللغويّون والمعجميّون العرب المسلمون هذه الظواهر وبيّنوها أدقَّ تبيين، ولا يزال الدارسون العرب يواصلون جهود أسلافهم، ويكمل الآخر ما بدأ الأوَّل، ومن الأمثلة على القيمة التعبيريَّة للصوت:

١- الصوت الأقوى للمعنى الأقوى، فكلّ زيادة في قوَّة الصوت وجهره تستلزم قوَّة في الدلالة، وارتقاء في المعنى، وتلك واحدة من أبرز الخصائص الصوتية للغة القرآن الكريم، ولغة الدين الحقّ، التي يدقُّ فيها الالتحام بين الصوت والدلالة، والعكس بالعكس، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[1]، فقوله ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: «أي: تُزْعِجُهُم وتُقْلِقُهُم، فهذا في معنى تَهُزُّهُم هزّاً، والهمزة أخت الهاء، فتقارَبَ اللفظانِ لتقارب المعنَيَيْنِ، وكأنهم خَصُّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزِّ»[2]، فدلَّ الفعل "**تؤزّ**" على تَحَريكهمْ تَحْريكاً شَديداً، لأنَّ الأَزَّ: الْهَزُّ وَالاسْتفْزَازُ الْبَاطنيُّ، مَأْخُوذٌ منْ أَزيزِ الْقدْرِ إِذَا اشْتَدَّ غَلَيَانُهَا. فشَبَّهَ اضْطرَابَ اعْتقَادهمْ وَتَنَاقُضَ أَقْوَالِهِمْ وَاخْتلَاقَ أَكَاذيبهِمْ بِالْغَلَيَانِ فِي صُعُودٍ وَانْخفَاضٍ وَفَرْقَعَةٍ وَسُكُون.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[3]، فالنَّضْحُ:

---

(١) سورة مريم: ٨٣.

(٢) الخصائص: ١٤٨/٢.

(٣) سورة الرحمن: ٦٦.

هو رَشُّ الْمَاءِ ولِكُلِّ مَا رَقَّ: نَضْحٌ النَّضْخُ بالخَاء المعجمة. يقال: غَيْثٌ نَضَّاخٌ: غَزِيرٌ. وَعَيْنٌ نَضَّاخَةٌ: كَثِيرَةُ الْمَاءِ. وهو أَقْوَى مِنَ النَّضْحِ بِالْحَاءِ الَّذِي هُوَ الرَّشُّ[1]»، فاستعمل صوت الخاء في "**نضَّاختان**" للدلالة على الكثرة فالخاء أقوى من الحاء، لذلك كان معنى الكلمة، أقوى من "النضح" الذي يكون رشّاً رقيقاً.

٢- الصوت الأضعف للمعنى الأضعف: لقد استعمل القرآن الكريم الألفاظ التي فيها أصوات قويَّة للدلالة على أفعالٍ قويَّة، كما استعمل الألفاظ التي فيها أصوات أقلُّ قوَّة للدلالة على فعلٍ أضعف من الأوَّل، ف كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾[2]، ولاشكَ أنّ السيِّدة مريم رضي الله عنها لم يكن لها من القوَّة وهي في حال الولادة فقال: "**هزي**"، فجاء الفعل بصوت الهاء، وهو صوت ضعيف خفيٌّ للدلالة على معنى مناسب للمقام التي كانت فيه السيِّدة مريم رضي الله عنها وهي في حال وضع الحمل.

٣- اسم الفعل الصوت قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي**﴾[3]، قال ابن عاشور: «"**أفّ**" اسم فعل دالّ على الضجَر، وهو منقول من صورة تنفس المتضجّر لضيق نفسه من الغضب. وتنوين "أف" يسمى تنوين التنكير والمرَاد به التعظيم، أي: ضجراً قوياً لكم»[4]. وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٤٣٨/٥.

(٢) سورة مريم: ٢٥.

(٣) سورة الأحقاف: ١٧.

(٤) التحرير والتنوير: ١٠٤/١٧.

الإنسان ليزيله، فالصوت الحاصل هو "**أف**"، وهو كلمة تنقلب بجرسها من اسم فعل إلى اسم صوت، فالفاء وما فيها من طرد النفس من الصدر حكاية للرفض وإرادة التخلُّص من الموقف وصاحبه، فلفظ "**أف**" فيه من الدلالة طبيعية ما يدعم دلالته العرفية، فهو يدلُّ بجرسه على ما تدلُّ عليه بوضعه، وهذا متأتٍّ من صوت الفاء الذي يجمع مع جريان النفس ضمَّ الشفتين بخلاف صوت الهاء الذي ربما يستعمل في الغرض نفسه فيقال: "**أُه**"، لكنَّه وإن شارك الفاء في صفة الهمس فهو يخالفه بأنَّه أضعف منه، وأخفى في النطق، فلا يؤدِّي ما يؤدِّيه الفاء إلا إذا جاء معه الواو فيصير "**أُوه**"، فلا يؤدِّي ما يؤدِّيه الفاء في هذا السياق، ولَمَّا في صوت الهاء من الضعف والخفاء وانفتاح الشفتين مع جريان النفس خلال النطق به فيكون معنى الرفض فيه والضجر أضعف من معنى "**أُفّ**" الذي هو أدلُّ على المعنى المراد من "**أُه**"، وأَحصر من "**أُوه**"، فأتى في تمام وكمال ما بعدهما تمام ولا كمال. والله تعالى أعلم.

ومن هذا يتبيَّن ضعف نظريَّة الترادف المحض في اللغة العربيَّة، فاختلاف التشكيل الصوتي للألفاظ يتبعه بالضرورة اختلاف في الدلالة، ولو كان هذا الاختلاف في حدود ضيقة وربما خفيّة. والله تعالى أعلم.

❖ تعدُّ استعمال الصيغ للمادَّة الواحدة:

ومن أمثلة هذا النوع مادَّة "**صرخ**": فقد وردت لها في القرآن الكريم استعمالات بصيغ متعدِّدة بحسب السياق، والدلالة المقصودة، وهذه الصيغ هي:

أ- "**يصطرخ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ

وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1]، فمادَّة صرخ أُصَيلٌ يدلُّ على صوتٍ رفيع. من ذلك الصُّراخ، يقال صَرَخ يَصرُخ، وهو إذا صوّت. ويقال الصَّارخ: المستغيث، والصارخ: المغيث، ويقال بل المُغيث مُصرِخ[2]، ويتبيَّن لنا من البناء الصوتيّ للكلمة الذي يوحي بأن "الصراخ" قد بلغ ذروته، والاضطراب قد تجاوز مداه، والصوت العالي الفظيع يصطدم بعضه ببعض، فلا أذن صاغية، ولا نجدة متوقعة، فقد وصل اليأس أقصاه، والقنوط منتهاه، فالصراخ في شدة إطباقه، وتراصف جرسه، من توالي الصاد والطاء، وتقاطر الراء والخاء، والترنُّم بالواو والنون يظهر جرس هذا "الاصطراخ" المدوي "والاصطراخ: على وزن "افتعال"من الصراخ، وقد قلبت التاء طاءً لتناسب الصاد الساكنة قبلها، وإنَّما يفعل ذلك لتخفيف اللفظ، والتيسير في النطق، فجيء بحف التاء الطاء الذي يجمع بعضاً من خصائص الصاد، وبعضاً من خصائص الدال، فهو يتوافق مع الصاد في الاستعلاء والإطباق، ويتوافق التاء في المخرج[3].

ب- "**مصرخ**" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4]، فالْمُصْرِخُ الْمُغِيثُ، ومَعْنَاهُ: مَا أَنا بِمُغِيثِكُمْ[5]، والآية تدلُّ

(١) سورة فاطر: ٣٧.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: مادَّة (صرخ): ٣/٢٧٣.

(٣) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/٤١٠.

(٤) سورة الرعد: ٢٢.

(٥) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صرخ): ٣/٣٣.

على البراءة المتناهية، والإحباط التام، والصوت المجلجل في الدفع، فلا يغني بعضهم عن بعض شيئاً، ولا ينجي أحدهما الآخر من عذاب الله، ولا يغيثه مما نزل به، فلا إنقاذ ولا خلاص ولا صريخ من هذه الهوة، وتلك النازلة، فلا الشيطان بمغيثهم، ولا هم بمغيثيه.

ت- "**صريخ**" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[(١)]، فالصريخُ: الْمُغيثُ، وَالصَّرِيخُ الْمُسْتَغيثُ أَيضاً، وهو مِنَ الأَضداد. وَالصَّرِيخُ: يَكُونُ "فَعَيْلاً" بِمَعْنَى "مُفعِل" مثْلَ "نَذِيرٍ" بِمَعْنَى "مُنْذِرٍ" وَ"سَمِيعٍ" بِمَعْنَى "مُسْمِعٍ"[(٢)]، ولَمَّا كان الوعيد بالإغراق، فهذا يعني الانقطاع التامَّ عن محاولة النجاة، بانقطاعه عن محيطه، وانقطاع النفس عنه، لذلك عبَّر عنه بأخفِّ صيغة من مادَّة صرخ، فقال جلَّ وعلا: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، وجرس كلمة "صريخ" الذي يخفت فيه الاستعلاء، ويغلب عليه استفال الياء ليوحي بانقطاع سبل النجاة عنهم، وخفوت قواهم، فيا له من موقف خاسر، وجهد بائر، فلا سماع حتى لصوت الاستغاثة، ولا إجارة مما وقعوا فيه.

ث- "**يستصرخه**" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾[(٣)]، فـ"الاسْتِصْرَاخُ" يعني: الاسْتِغَاثَةُ، و"صَرَخَ فُلانٌ يصرخُ صُرَاخاً" إِذا استغاث فقال: وا غَوثاهْ وا صَرْخَتاهْ[(٤)]، فالكلمة في الآية تدلُّ

---

(١) سورة يس: ٤١-٤٤.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صرخ): ٣/٣٣.

(٣) سورة القصص: ١٨.

(٤) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صرخ): ٣/٣٣.

على طلب النجدة في حالة من الفزع، ومحاولة للإنقاذ في حالة من الرهب، والاستعانة على العدو بما يردعه عن الإيقاع به، بأن يَصِيحُ بِموسى عليه السلام مِنْ بُعْد[١]، وما ذلك إلا نتيجة خوف نازل، وفزع متواصل، وتشبث بالخلاص، وأصل "يستصرخ"، أي: يستغيث برفع الصوت من الصراخ وهو في الأصل الصياح، ثم تجوز به عن الاستغاثة لعدم خلوها منه غالباً وشاع حتى صار حقيقة عرفية وقيل: معنى يستصرخ يطلب ازالة صراخه[٢].

وقد جاءت كلمة "**يستصرخه**" في الآية الكريمة منسجمة أكمل الانسجام ومتناسبة أتمَّ التناسب مع كلمة "**استنصره**" التي تشاركها في أكثر أصواتها فالصاد ومع ما فيه من الاستعلاء والإصباق، والراء وما فيه من تكرير، وتفخيم، وصيغة الطلب "الألف والتاء والسين في بداية الفعل "**استنصره**" يقابلها الصيغة نفسها متمثِّلة بـــ"الياء، والتاء، والسين، في الفعل "**يستصرخه**" لتدلّ على أنَّ "**الاستنصار**" الذي سبق كان في حالة شديدة لكنَّها ليس بشدَّة حالة اليوم التي وصل الحال به أن "**يستصرخه**".

❖ **فكِّ التضعيف**:

أ- كبّ: جاءت هذه المادة "كبّ" في القرآن الكريم، وهي تعني: جَعْلُ ظَاهِرِ الشَّيْءِ إِلَى الأَرْضِ[٣]، أي: نكسه على وجهه كما في قوله تبارك: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤]، أي: كبوا فيها على

(١) ينظر: تفسير البغويّ: ١٩٨/٦.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٥٧/٢٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٣/٢٠.

(٤) سورة النمل: ٨٩-٩٠.

وجوههم منكوسين[1]، فلا إنقاذ ولا خلاص ولا إخراج، والوجه أشرف مواضع الجسد، وهو يهوي بشدة فكيف بباقي البدن، وكما أنَّهم تنكَّبوا الهدى، وأشاحوا عنه بوجوههم فهم يجزون به كبّاً لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار[2].

وَعُدِّيَ الْكَبُّ فِي هَذه الآيَة إِلَى الْوُجُوه دُونَ بَقيَّة الْجَسَد وَإِنْ كَانَ الْكَبُّ لجَميعِ الْجِسْمِ لأَنَّ الْوُجُوهَ أَوَّلُ مَا يُقْلَبُ إِلَى الأَرْضِ عِنْدَ الْكَبِّ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ[3]: الطويل

وَأَضحى يَسُحُّ الماءُ عَنْ كُلِّ فَيقَةٍ يَكُبُّ عَلى الأَذقانِ دَوحَ الكَنَهْبَلِ

وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، فأسند الفعل إلى ما يصيبه أوَّلا[5].

و"**الإكباب**" جعل وجهه متّجها بالنظر إلى الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[6]، فالمُكبُّ: هو الرجل الكَثِيرُ النَّظَر إِلى الأَرض. ومنه جاءت "مُكبّاً" في هذه الآية المباركة[7].

وأمَّا "الكبكبة" بفكِّ التضعيف: وَالْكَبْكَبَةُ: هي أَنْ يَتَدهْوَرَ الشَّيْءُ إِذَا أُلْقِيَ فِي هُوَّةٍ حَتَّى يَسْتَقِرَّ، فَكَأَنَّهُ تَرَدَّدَ فِي الْكَبِّ[8]، فهي تحمل التكرير

(١) ينظر: روح المعاني: ٢٠/٣٧.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥/٢٦٦٩.

(٣) ديوانه: ٢٤.

(٤) سورة الأَعْرَاف: ١١٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/٥٣.

(٦) سورة الملك: ٢٢.

(٧) ينظر: لسان العرب: مادَّة (كبب): ١/٦٩٦.

(٨) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: (كب): ٥/١٢٤.

والتضعيف لدلالة "الكبِّ" قال الله تعالى وتقدَّس: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[1]، فَكُبْكِبُوا فيها، أَيْ كُبْكِبَت الأَصْنَامُ فِي جَهَنَّم. وَمعنى "**كُبْكِبُوا**" كُبُّوا فِيهَا كَبّاً بَعْدَ كَبٍّ؛ فَإِنَّ كُبْكِبُوا مُضَاعَفُ كُبُّوا بِالتَّكْرِيرِ وَتَكْرِيرُ اللَّفْظ مُفِيدٌ تَكْرِيرَ الْمَعْنَى مِثْلُ: كَفْكَفَ الدَّمْعَ، وَنَظِيرُهُ فِي الأَسْمَاءِ: جَيْشٌ لَمْلَمٌ، أَيْ كَثِيرٌ، مُبَالَغَةٌ فِي اللَّمِّ، وَذَلِكَ لأَنَّ لَهُ فِعْلاً مُرَادِفاً لَهُ مُشْتَمِلاً عَلَى حُرُوفِهِ وَلَا تَضْعِيف فِيهِ فَكَانَ التَّضْعِيفُ فِي مُرَادِفِهِ لأَجْلِ الدَّلَالَةِ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي مَعْنَى الْفِعْلِ[2].

ب- **زحزح**: هذه المادَّة تدلُّ عَلَى الْبُعْدِ. يُقَالُ: زُحْزِحَ عَنْ كَذَا، أَيْ: بُوعِدَ[3].

وقد استعملت في القرآن الكريم بهذا المعنى، قَالَ اللهُ تبارك وتَعَالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾[4]. أي: بعد يومئذ عن نار جهنم وأصل الزَّحْزَحَةُ تَكْرِيرُ الزَّحِّ، وَهُوَ الْجَذْبُ بسرعة وعَجَلَة، وقد أريد هنا المعنى اللازم، وَهُوَ مُضَاعَفُ زَحَّهُ عَنِ الْمَكَانِ إِذَا جَذَبَهُ بِعَجَلَة، ليبيِّن لنا أنَّ الَّذي يَهُمُّ بمواقعها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة؛ لِمَا فِي نَفْسِه مِنَ الشَّوَائِب الَّتِي تَجْذِبُ إِلَيْهَا، فَيُنَحَّى عَنْهَا فِي كُلِّ مَرَّة بِغَلَبَة تَأْثِيرِ حَسَنَاتِه الْمُضَاعَفَة عَلَى سَيِّئَاتِه، إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَائِزاً فَوْزاً عَظِيماً[5].

---

(١) سورة الشعراء: ٩١-٩٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥٢/١٩.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: (زحزح): ٧/٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٥) ينظر: تفسير المنار: ٢٢٢/٤، وروح المعاني: ١٤٦/٤، التحرير والتنوير: ١٨٨/٤.

ولو نظرنا إلى كلمة "**زُحْزِحَ**" إلى أصواتها وما فيها من تكرير وجدنا معناها يبين بجرسها! وكأنما للنار جاذبية تشدُّ إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز..

فهو موقف بين حركة وشدٍّ وجذب! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته. فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس الإنسان- حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة- يظل أبداً مقصراً في العمل.. إلا أنْ يدركه فضل الله؟ بلى! وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسان فضل الله، فيزحزحه عن النار![1].

وَإِنَّمَا جُمِعَ بَيْنَ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، مَعَ أَنَّ فِي الثَّانِي غُنْيَةً عَنِ الأَوَّلِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ يَشْتَمِلُ عَلَى نِعْمَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، وَنَعِيمُ الْجَنَّةِ[2].

❖ تسمية الشيء بأسماء متعدِّدة:

ومن أشهر أمثلة هذا النوع أسماء يوم القيامة فقد وردت له أسماء عديدة خاصَّة في الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم أجزاء "المفصَّل"[3] لوجدناها تركِّز كلُّها على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١/٥٣٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٤/١٨٨-١٨٩.

(٣) المفصَّل: يبدأ من سورة ق إلى سورة الناس آخر سور القرآن الكريم. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/٢٤٥. الإتقان في علوم القرآن: ١/٢١٩.

نبات وحيوان. وعلى ذكر يوم القيامة وأهواله ومشاقِّه وعظمة ما فيه من الموقف والهلع والفزع، فقد تكرَّرت فيه أسماء يوم القيامة بألفاظ مختلفة لكلٍّ دلالة خاصَّة مع انتمائها كلِّها في حقل دلاليٍّ واحد وهو يوم القيامة، فهذه الألفاظ هي: الواقعة، والحاقَّة، والتغابن، والقيامة، **والساهرة**، والطامَّة، والصاخَّة، والغاشية، والقارعة. ومواقف الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في أسلوب يقرع ويذهل ويزلزل كشدَّ أحوال القيامة الكونيَّة في ضخامتها وهولها.

واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة. مع التقريع بها والتخويف والتحذير. وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين[1].

وظاهرة أخرى جديرة بالعناية و التلبث، وهذا الأسلوب: تسمية الكائن الواحد، والأمر المرتقب المنظور، بأسماء متعددة ذات صيغة واحدة، بنسق صوتي متجانس، للدلالة بمجموعة مقاطعة على مضمونه، وبأصواته على كنه معناه، وما يلحظ في هذه الأسماء جميعها هي كلُّها بصيغة اسم الفاعل "فاعلة" كما أنَّها لم تخل من أحد الأصوات المستعلية.

"الْغَاشِيَةِ" تسمى القيامة هذا الاسم: "الْغَاشِيَةِ"، أي: الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها[2].

الْقَارِعَةَ اسْمُ فَاعِلٍ يُوصَفُ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ امْرَأَةٌ تَقْرَعُ أَحَداً بِالْمِقْرَعَةِ، وَفِي الْمَجَازِ دَاهِيَةٌ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا، وَالْقَرْعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ضَرْبُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ -كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ- وَأَخَصُّ مِنْهَا "الصَّاخَّةُ"[3].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٨٠١.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٨٩٦.

(٣) ينظر: تفسير المنار: ٩/٢٩٥.

والصاخة: صيحة تصخ الأذن أي: تطعنها فتصمها لشدتها، ومنه سميت القيامة. ويقال: كأنَّ في أذنه صاخة، أي: طعنة(١).

والطامَّة: هي الَّذي يَكثُر حَتَّى يَعْلو: قَدْ طَمَّ وَهُوَ يَطِمُّ طَمّاً. وَجَاءَ السيلُ فطَمَّ كلَّ شَيْءٍ أَيْ عَلاهُ، وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ: فَوْقَ كلِّ شَيْءٍ طامَّةٌ، وَمِنْهُ سُمِّيت الْقِيَامَةُ طَامَّةً؛ لأَنَّها تَطُمُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فإذا وقفنا عند الطامَّة، فهي القيامة تطم على كل شيء، وإليه ذهب الزجاج فقال: الطامَّة هي الصيحة التي تطم على كل شيء، وتُسمَّى الداهية التي لا يستطاع دفعها: طامَّة(٢).

وممَّا يلحظ أنَّ هذه الأسماء كلّها تنتمي إلى حقل دلاليٍّ واحد كما سبق، وتشترك في دلالة مركزيَّةٍ واحدة، ولكنَّه في الوقت نفسه ينفرد كلُّ اسم منها بدلالة خاصَّة لا يؤدِّيها غيره، وهذه الدلالة مستمدَّة من أصواته وسياقه، وغير ذلك، فلو فَسَّرْناها جميعها بِيَوْمِ الْقِيَامَة، وَوَصَفْتَهُ بالْقَارِعَة فِي سُورَتِهَا وَبالصَّاخَّة فِي سُورَة عَبَسَ تَكُونُ النتيجة أَنَّنا عُرْضَةً لغَلْط فِي التَّفْسِيرِ يُضِيعُ به شَيْءٌ مِنْ مُرَاد الله تَعَالَى مِنْ هَذه الأَلْفَاظ. وَإِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي هَذَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِالْعَرَبِيَّة، وكذلك الْمُتَرْجَمُ بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْلَى بِالْغَلَط؛ لأَنَّهم اكتفوا بالدلالة العامَّة وبيان الحقل الدلالي الذي تنتمي إليه هذه الكلمات، وأغفلوا الدلالة الصوتيَّة والسياقيَّة لها(٣)، مع أنَّ الموافقة بين هذه الأسماء في الأصوات وصيغة البناء، لمعانيها في الدلالة على يوم القيامة، من أعظم الدلالات الصوتيَّة في الشدَّة والوقع والتكامل الصوتيِّ والدلاليِّ لمثل هذه الصيغة الحافلة.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة (صخخ): ٣/٣٣.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة (طمم): ١٢/٣٧٠.

(٣) ينظر: تفسير المنار: ٩/٢٩٥.

فهو واقع يقرعك بقوارعه، وحادث يثيرك برواجفه.. الصدى الصوتي، والوزن المتراص، والسكت على هائه أو تائه القصيرة تعبير عما ورائه من شؤون وعوالم وعظات وعبر ومتغيرات في: الواقعة، والقارعة، **والآزفة، والراجفة، والرادفة**، والغاشية، وكل معطيك المعنى المناسب للصوت، والدلالة المنتزعة من اللفظ، و تصل مع الجميع إلى حقيقة نازلة واحدة.

بمتابعة أولئك جميعاً يتجلى العمق الصوتي في المراد كتجليه في الألفاظ دلالة على الرجيف والوجيف، والتزلزل والاضطراب، وتغيير الكون، وتبدل العوالم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[(١)].

فتعاقبت معالم الراجفة و الرادفة مع معالم الواقعة والقارعة والآزفة، وتناسبت دلالة الأصوات مع دلالة المعاني في الجرس والوزن.

❖ دلالة المدِّ:

تقدَّم الكلام في الفصل السابق عن المدِّ وحروفه وأسبابه، وأنواعه، وما يعنينا في هذا الفصل هو علاقة المدِّ بالدلالة، والأمثلة على ذلك، فقد اهتمَّ المتأخِّرون بهذا الأمر أكثر ممَّن سبقهم، وذكروا أنَّ: السبب المقتضي لزيادة المد قسمان: لفظي ومعنوي، فاللفظي وقوع حروف المد قبل همزة أو سكون، والمعنوي: هو مد التعظيم قصد المبالغة في النفي... والسبب المعنوي أضعف من اللفظي، إذا لم يعاضده سبب آخر كما في مثل: "لا إله إلا الله"[(٢)]، وكلام علماء القراءة والتجويد منصب على أنواع المد المترتبة على السبب اللفظي.

---

(١) سورة إبراهيم ﷺ: ٤٨.

(٢) ينظر: النشر: ١/٣٤٤.

فالمدّ لم يكن مدا صوتيا لا مساس له بالدلالة، بل هو ظاهرة صوتيَّة لها في جزء من أحواله ارتباط بالمعنى، وما يوحيه من دلالة. فهو يوحي بالتفخيم أو إثارة الانتباه للكلمة الممدودة لدى القارئ والمستمع، ومن أشهر أمثلته:

مدُّ التعظيم: وهو مدُّ ألف لفظ الجلالة "**الله**" ومقدار مدِّه ألف تامَّة[1]، وهذا لم يكن بسبب همز، أو سكون، بل السبب فيه الدلالة على تعظيم هذا الاسم الكريم، ولذلك سُمِّي مدُّ التعظيم.

ومن شواهده أيضاً: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[2]، فالصاخَّة بناء صوتيٌّ يمتاز بتوجُّه الفكر نحوه في تساؤل، واصطكاك السمع بصداها المدوي، وأخيراً بتفاعل الوجدان معها مترقباً: الأحداث، والمفاجئات، والنتائج المجهولة.

فهو يستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي، والأداء الجهوري لسماع رنَّته، ممَّا يتوافق نسبياً مع إرادته في جلجلة الصوت، وشدَّة الجرس، كلُّ ذلك ممَّا يوضع مجموعة العلاقات القائمة بين اللفظ ودلالته في هذا الصوت المغرق في المدِّ، فإذا أضفنا إلى ذلك دلالته المركزيَّة في القرآن الكريم، وهو يوم القيامة، خرجنا بحصيلة علمية تنتهي بمطابقة الشدَّة الصوتيَّة للشدَّة الدلاليَّة بين الصوت والمعنى المركزيّ.

ولو عدنا إلى معجم الكلمة لوجدنا أنَّ "الصاخَّة" مأخوذة من الصخُّ: وهو الضَّرْبُ بِالْحَدِيدِ عَلَى الْحَدِيد، وَالْعَصَا الصُّلْبَة عَلَى شيءٍ مُصمت، فهو: صَخٌّ وصَخِيخٌ، وَقَدْ صَخَّت تصخُّ؛ تَقُولُ: ضَرَبْتُ الصَّخْرَةَ بحَجَرٍ فَسَمِعْتُ لَهَا صَخَّةً. والصاخَّةُ: الْقِيَامَةُ، وَبِهِ فَسَّرَ أَبو عبيدَة قَوْلَهُ تَعَالَى: فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ،

(١) ينظر: معجم الصوتيَّات: ١٧٥.

(٢) سورة عبس: ٣٣.

وَقَالَ أَبو إِسحاق: الصَّاخَّةُ هِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْقِيَامَةُ تصُخُّ الأَسماعَ أَي تُصِمُّها فَلا تَسَمَعَ إِلا مَا تُدْعَى بِهِ للإِحياء. وَتَقُولُ: صخَّ الصوتُ الأُذُنَ يَصُخُّها صَخّاً، فأما أن تكون الصاخَّة اسم فاعل من صخَّ يصخُّ، وإما أن تكون مصدراً وقال أبو اسحق الزجاج: الصاخة هي الصيحة تكون فيها القيامة تصخ الأسماع، أي: تصمها فلا تسمع.

والصاخَّة: هي الداهية العظيمة من صخَّ بمعنى أصاخ، أي: استمع، والمراد بها النفخة الثانية ووصفت بها؛ لأنَّ الناس يصخون لها[1].

وقال الخليل: هي صيحة تصخُّ الآذان صخّاً أي: تصمُّها لشدَّة وقعتها، ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربي قوله الصاخة هي التي تورث الصمم، وأنَّها لمسمعة، وهو من بديع الفصاحة[2] كقول أبي تمَّام[3]: الطويل

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِيْ وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا ... فَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وقال الراغب الصاخَّة: هِيَ الضَّرْبَةُ ذَاتُ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ يَصُخُّ الْمَسَامِعَ أَيْ يَقْرَعُهَا حَتَّى يُصِمَّهَا أَوْ يَكَادَ، أَوِ الَّذِي يَضْطَرُّهَا إِلَى الإِصَاخَةِ وَالإِصْغَاءِ[4].

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ
(٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾[5].

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صخخ): ٣/٣٣.
(٢) ينظر: روح المعاني: ٤٨/٣٠.
(٣) ديوانه: ٣١٨/٢.
(٤) ينظر: تفسير المنار: ٢٩٥/٩.
(٥) سورة عبس: ٣٣-٤٢.

فهذه هي خاتمة المتاع. وهذه هي التي تتفق مع التقدير الطويل، والتدبير الشامل، لكل خطوة وكل مرحلة في نشأة الإنسان. وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع. مع الذي جاء يسعى وهو يخشى. والذي استغنى وأعرض عن الهدى. ثم هذان هما في ميزان الله.

فالصاخة بجرسها العنيف النافذ، تكاد تخرق صماخ الأذن، وهو يشقُّ الهواء شقّاً، حتى يصل إلى الأذن صاخّاً ملحّاً! وهو يمهِّد بهذا الجرس العنيف للدلالة على شدَّة هول ما بعده من فرار المرء وانسلاخه من ألصق الناس به: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن هذه الصاخَّة تمزِّق هذه الروابط تمزيقاً، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً.

فدلالة أصوات "**الصاخَّة**" على هول يوم القيامة، من أعظم الدلالات الصوتيَّة في الشدَّة والوقع وتكامل البناء الصوتيِّ مع البناء الدلاليِّ لمثل هذه الصيغة الحافلة.

والهول في هذا الموقف هول نفسي بحت، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها. فلكلٍّ نفس شأنها، وكلٌّ لديه الكفاية من الهمِّ الخاصِّ به، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد فكلٌّ يقول: نفسي نفسي: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

فالدلالات الكامنة وراء هذه العبارة وفي طياتها دلالات عميقة عظيمة، فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير، للدلالة على الهمِّ الذي يشغل الحس والضمير: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ذلك حال الخلق جميعاً في هول ذلك اليوم.. إذا جاءت الصاخة.. ثم يأخذ في بيان حال المؤمنين وحال

الكافرين، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها، فهي تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر، أو هي قد عرفت مصيرها، وتبين لها مكانها، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ فأمَّا هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة، ويغشاها سواد الذل والانقباض. وقد عرفت ما قدمت، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته[1].

❖ دلالة الصوائت القصيرة:

الصوائت القصيرة لها أثر كبير في بنية اللغة وتحديد دلالة مفرداتها، سواءٌ على صعيد بنيتها التشكيلية، أو على صعيد حالتها الإعرابية. كما إن الفتح أو الضم أو الكسر، وكذلك السكون الذي يعتور الكلمة، بنسب متفاوتة، من شأنه تشكيل ملامح الكلمة، وتحديد صورها النطقية، بسبب الصفات التي تُميِّز كلاً منها.

وتسمية الحركات فيها شيء من خصائصها، ومن ثم كانت التسمية التقليدية المعروفة، الفتحة والكسرة والضمة [2].

وفي القرآن الكريم نماذج أكثر من أن تُحصَى، تحمل لنا إشارات دلاليَّة

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٨٣٤.

(٢) ينظر: علم الأصوات، كمال بشر: ٤٢١.

مستوحاة من الصوائت القصيرة -الحركات- سواء في بناء المفردة خاصَّة، أو في السياق عامَّة، وسنذكر بإذن الله فيما يأتي شواهد على هذه الظاهرة:

أ- "الحَياة" للدنيا، واستعمال كلمة "الحَيَوَان" للآخرة. جاء في قوله عَزَّ مِن قائل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فلأنّ الدنيا دارُ لَهوٍ ولعب وزوال، عُبِّر عنها بالحياة. ولأنّ الآخرةَ دارُ كرامة وعزٍّ وبقاء، عُبِّر عنها بالحَيَوَان.

والعلة في استعمال القرآن كلمةَ "الحَيَوَان" للدار الآخرة، دون استعمال كلمة "**الحياة**" التي أطلقها على الدار الدنيا، مع إن كلاً منهما مصدر للفعل: حَيِيَ، يَحيَى، هو أنّ كلمة "الحَيَوَان" صيغة مبالغة بالألف والنون، وفي بنائها زيادةُ اقتضت زيادة في المعنى، وهذه الزيادة لم تكن في بناء "الحياة"؛ لأنَّ وزن "فَعَلان" يدلُّ على الامتلاء والحركة والاضطراب، ولَمَّا كانت الحياةُ حركة، كما أنّ الموتَ سكون، فمجيئه على بناءٍ دالٍّ على معنى الامتلاء والحركة، مبالغة في معنى الحياة، أي: إنَّ الحياة الكاملة هي حياة الآخرة؛ ولذلك اختيرت صيغة "الحَيَوَان" على صيغة "الحَياة" في هذا الموضع المقتضي للمبالغة[2]، فمن خصائص العربيَّة أنَّها يقابل فيها بتوالي حَرَكات المثال توالي حَرَكات الأفعال[3]، وهو ما يتناسب مع الحياة المستمرة الدائمة الخالدة في الآخرة، و لم يُذكر لفظ "الحَيَوَان" في القرآن إلا وصفاً لها. والله أعلم.

ب- إنّ صيغة الكلمة من ناحية الحركات، إضافةً إلى حالتها الإعرابية في

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٢) ينظر: الكشّاف: ٤٦٣/٣.

(٣) ينظر: الخصائص: ١٥٢/٢.

التركيب فيهما دلالة على المعنى، ما ورد في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1]، فقد دعا نبيُّ الله نوحٌ عليه الصلاة والسلام ربَّه أن ينصرَه على قومه الذين كذبوه، فما لبثت أبوابُ السماءِ أن انفتحتْ على مصراعيها، فانْهَمَرَ منها مطرٌ غزيرٌ وغدت الأرضُ كلُّها عيوناً متفجرةً بالماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

فكلمة "**فَفَتَحْنَا**" تبدأ بثلاث فَتَحَات متوالية، تنسجم تماماً مع فعلِ فتحِ أبوابِ السماء. ويقوِّي الاحساس بفعل الفتح انتهاء هذه الكلمة بفتحة رابعة مختومة بحرف مدٍّ منفصل، يُمَدُّ بمقدار أربع أو خمس حركات[2]، يوحي بمقدار ذلك الفتح الذي وَسِعَ السّماءَ كلَّها. ثم تتوالى بعد ذلك حركةُ الفتح على كلمة "أَبْوَابَ" المنصوبة، ثم "السَّمَاءِ"، مع ملاحظة الحرف الأخير منهما المردوف بألف المد المرتكز على حركة الفتح، وما يوحي من الاستطالة والسّعة والامتداد، ثم تُختَم الكلمةُ الأخيرة "السَّمَاءِ" بحرفٍ مكسور إيذاناً بنزول الماء منها، لِتَتوالَى بعدها حركةُ الكسر في كلمتي: "بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ" وتختمان بها. ولا يخفى ما بين حركة الكسر المتكرِّر، وبين فعل نزول الماء من السماء إلى الأرض من تلاؤم وتناغم، من شأنه تحويل حاسة السمع في القارئ والسامع إلى حاسة إبصار، خاصةً ما يوحي به تنوين الكسر في نهاية الكلمتين الأخيرتين من شدة الانهمار، وما يدل عليه حرف الراء في آخر "مُنْهَمِرٍ" من التكرار، بسبب خاصيته التكريرية.

---

(١) سورة القمر: ٩-١٢.

(٢) يسمَّى هذا المدُّ بالمدِّ الجائز المنفصل. وقد مرَّ بيانه في الفصل الثالث فلينظر.

أمَّا في قوله تعالى بعده: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ فيلحظ فيه عودة حركة الفتح من جديد لتتناسب مع حركة تفجُّر الماء من الأرض بحركة عكسية هذه المرة، من الأسفل إلى الأعلى. وقد جاء المد بالألف في: "فَجَّرْنَا"، و"عُيُوناً" ليوحي بتلك الحركة التصاعدية للماء. والله أعلم.

❖ النبر والتنغيم:

يعدُّ النبر والتنغيم من أساليب الجمال الصوتي بما يؤديانه من سرعة دخول المعنى للقلب، لأنَّ الأذن تتلذَّذ به وترتاح للصوت المعبِّر، وأيضاً فإن القارئ الجيد يمكنه التعبير عن المعنى بصوته شدَّة ورقَّة، وارتفاعا وانخفاضا. إلا أنَّ النبر والتنغيم في اللغة العربيَّة لا يعدوان كونهما نغمات في الأداء، لا دخل لهما في بناء الكلمة، أو تحديد الدلالة الصوتيَّة للفظ على خلاف بعض من اللغات التي تعدُّهما "صويتين" يدخلان البناء ويقوم عليهما تحديد الدلالة الصوتيَّة للفظ.

النبر يُعنى عادة بمتابعة العلو في بعض الكلمات؛ لأنَّه لا يسم وحدة صوتيَّة واحدة، بل منظومة من الوحدات الصوتيَّة[1].

والتنغيم: يعني عادة بمتابعته صوت المتكلم في التغيرات الطارئة عليه صوتياً بما يلائم توقعات النفس الإنسانية للتعبير عن الحالات الشعورية واللاشعورية.

وكان المستشرق الألماني الدكتور براجشتراس قد وقف موقف المتحير حيناً، والمتسائل حيناً آخر، من معرفة علماء العربية بمصطلح النبر، فهو لم يعثر على نص يستند عليه، ولا أثر يلتجئ إليه في إجابة العربية عن هذا الأمر[2].

ولو عدنا إلى حقيقتهما فهماً:

---

(١) ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرغ: ١٨٧.

(٢) ينظر: التطور النحوي، براجشراسر: ٤٦.

١- **النبر**: وهو مصطلح صوتي يعني الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة ليجعله بارزا وواضحا في السمع أكثر من غيره من مقاطع الكلمة. وله وظيفة دلالية تتحدد وفق نوع النبر:

أ - فإن كان نبراً كلمياً أظهر التباين الدلالي في السياق.

ب- وإن كان نبراً مقطعياً أي على مستوى المقطع أظهر التباين في الكلمة.

٢- **التنغيم**: وهو أن يعطي المتكلم العبارة نغمات معيّنة تنجم نفسيا عن عاطفة يحسها وفكريا عن معنى يختلج في ذهنه وعضويا عن تغيّر في عدد الهزات التي تسري في حنجرته، فالتنغيم تظهر فائدته جلية في التفريق بين الجمل الخبريَّة والاستفهاميَّة والتعجُّبيَّة ونحوها وكذلك في الإفصاح عن خواصِّ الأبواب النحوية كالتحذير والإغراء والنداء والندبة والاستغاثة وغيرها. فيزيد في سرعة فهمه وتحليله من خلال النظر في هيئته الصوتيّة وما يلفها من ظواهر تطريزية مميزة لها.

ولم تخل المصادر العربيَّة من ذكرهما، وتحديد وظيفتهما في اللغة العربيَّة من غير زيادة على ما أعطيا من مكان في اللغة العربيّة فقال الدركزليّ: «قال بعض المحققين: ينبغي أن يقرأ القرآن على سبع نغمات؛ فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فالتعظيم والتوقير، وما جاء من المفتريات عليه فبالإخفاء والترقيق، وما جاء على ردّها فبالإعلان والتفخيم، وما جاء في ذكر الجنة فبالشوق والطرب، وما جاء في ذكر النار والعذاب فبالخوف والرهب، وما جاء في ذكر الأوامر فبالطاعة والرغبة، وما جاء من ذكر المناهي فبالإبانة والرهبة».

إذا كانت الأصوات المسموعة مزعجة أو تشتت الانتباه بأي شكل عن معنى الكلمات لن يفهم الناس المعنى المقصود، فماذا لو أنَّ صوت مذيع في نشرة الأخبار ناعم ويساعد على الاسترخاء والنوم؟ ماذا سيحدث لو كان

يستخدم لكنة ريفية أو غريبة؟ كيف ستستجيب لمثل هذه المواقف؟ إن الأفراد يتعرفون على الأصوات قبل أن يعرفوا معنى الكلمات المستعملة.

لذلك على القارئ والمتكلِّم أنْ يظهر الإشارات اللفظية والصوتية بالشكل الذي يعطي المستمع فرصة أفضل لتلقِّي رسالتين بشكل جيِّد في عمل واحد ووقت واحد وجهد واحد؛ فإنَّ التواصل الصوتيِّ الجيِّد من شأنه أن يساعد على جذب اهتمام المتلقِّي وتقديم الرسالة بأوضح وأدق شكل ممكن.

وفي غير هذا الإطار لم يحظ كلٌّ من "**النبر والتنغيم**" بكثير من الشرح والتفصيل، والسبب في ذلك أنَّهما ليسا "صويتين" في اللغة العربية[1]، وهما لا يعدوان كونهما نغمتين، وهذا ما يظهر من تعريف التنغيم عند الأوروبيين بأنَّه: «عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين»[2]، فهو تعريف الفضفاض ليس بجامع ولا مانع، لأن تتابع النغمات والإيقاعات بإضافتها إلى الحدث الكلامي تختلف في هبوطها وصعودها نغماً وإيقاعاً، فهي غير مستقرة المستويات حتى صنف مداها عند الدكتور تمَّام حسان إلى أربعة منحنيات: «مرتفع وعال ومتوسط ومنخفض»[3]، فعلى هذا ليس بالإمكان قياس مسافة التنغيم ليوضع له رمز معين، أو إشارة معلمة عند العرب، وليس هذا لنقص أو عجز في اللغة العربيَّة الواسعة الغنيَّة، بل هو ظاهرة على تطوُّر اللغة، وسعتها فهي ليست بحاجة إلى تغيير درجة الصوت للكلمة لتنتقل من حقل دلاليٍّ إلى آخر، وإنَّنا نقول مطمئنِّين بأنَّ كلاً من النبر والتنغيم ظاهرة على فقر اللغة في موادِّها المعجميَّة، وعلامة على بدائيَّة اللغة، فكلَّما تطوَّرت اللغة، واتسعت مادَّهَا، وزاد غناها المعجميُّ تخلَّت وابتعدت عن النبر وعن التنغيم.

---

(١) ينظر: البحث اللغوي عند العرب: ١٢٠.

(٢) أسس علم اللغة، ماريو باي: ٩٣.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٩.

المبحث الثاني

التغيرات الصوتيَّة وبناء الكلام وأثرهم في الدلالة

المطلب الأوَّل: التغيرات الصوتية وأثرها في الدلالة:

وهي التغيُّرات التي تصاحب الأصوات في حال تركيبها ففي الألفاظ القرآنية ترد هذه التغيُّرات في بعض السياقات، وترد من دونها في سياق آخر أو سياقات أخرى. كأن ترد بالإدغام في موضع وبالفك في آخر، أو تستعمل مبدلة حينا وغير مبدلة حينا آخر، أو يجري استعمالها بالإثبات في آية وبالحذف في أخرى، وهذه التغيُّرات لم تكن مجرَّد تغيُّرات صوتيَّة خالية من فائدة دلاليَّة، أو غرض معنويّ، بل إنَّها تحمل من الأغراض الدلاليَّة ما يبهر العقول، ويبهج الأنفس، وسنبيِّن ذلك بإذن الله فيما يأتي:

❖ **الابدال الجائز:**

ممَّا وقع فيه الإبدال الجائز من الأفعال في القران الكريم: "ادّارأ، وازّيّنت، واثّاقلتم، ويسّمّعون، واطّيّرنا، ويصّدعون، ويخصّمون..." فما كان هذا الإبدال لمجرِّد ظاهرة صوتيَّة، وتيسر نطقيٌّ يخلو من دلالة، وليس وراءه غاية ومعنى، بل مرتبط بالدلالة أوثق الارتباط، ووراءه ما وراءه من معنى إعجازيٍّ، وبلاغيٍّ عظيم وسنتناول ذلك فيما يأتي:

أ- **ادَّارَأْتُمْ**: وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(١)، وردت هذه الآية في سياق قصَّة بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام إذ قتلوا رجلاً، فأُسْنِدَ فِيهِ الْقَتْلُ إِلَى الأُمَّةِ،

---

(١) سورة البقرة: ٧٢.

وَإِنْ كَانَ الْقَاتِلُ وَاحِداً بِاعْتِبَارِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِهَا فِي مَجْمُوعِهَا وَتَكَافُلِهَا كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ. وَالتَّدَارُؤُ: تَفَاعُلٌ مِنَ الدَّرْءِ وَهُوَ الدَّفْعُ، فَمَعْنَاهُ: التَّدَافُعُ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ خِصَامٌ وَاتِّهَامٌ، وَكَانَ كُلٌّ يَدْرَأُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَدَّعِي الْبَرَاءَةَ وَيَتَّهِمُ غَيْرَهُ، وَكَانَ لِلْقَاتِلِينَ وَالْعَارِفِينَ بِهِمْ حُظُوظٌ وَأَهْوَاءٌ كَتَمُوا فِيهَا[1]، فأخذ كلّ واحد منهم يدفع التهمة عنه بكلِّ ما أُوتي فدلَّت صيغة "**ادَّارأتم**" على شدَّة دفعهم هذه. فالدرء: هو الدفع. وأصل الفعل: تدارأتم قلبت التاء الى جنس الدال فادغما وجيء بهمزة الوصل في أوَّل الفعل للتخلُّص من البدء بالساكن.

و"**التَّدَارُؤُ**" في هذه الآية يحتمل: التَّدَافُعُ، وَهُوَ أَنْ يَدْفَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالأَيْدِي، لِشِدَّةِ الاخْتِصَامِ. وَيَحْتَمِلُ: بدفع التهمة فَبَعْضُهُمْ طَرَحَ قَتْلَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَدَفَعَ الْمَطْرُوحُ عَلَيْهِ ذَلِكَ إِلَى الطَّارِحِ، أَوْ بِأَنْ دَفَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالتُّهْمَةِ وَالْبَرَاءَةِ. وَالضَّمِيرُ فِي: فِيهَا عَائِدٌ عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَقِيلَ: عَلَى الْقَتَلَةِ، فَيَعُودُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْفِعْلِ، وَقِيلَ: عَلَى التُّهْمَةِ، فَيَعُودُ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكَلامِ[2].

ب- **ازَّيَّنت**: وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[3]، أصل الفعل ازَّيَّنَتْ: تزيّنت إذ قلبت التاء الى جنس الزاي فادغما وجيء بهمزة الوصل في أوَّل الفعل لمح الفعل في حالة الإبدال إلى الحالة التي ستصير عليها

(١) ينظر: تفسير المنار: ١/ ٢٩٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير: ١/ ٤١٩.

(٣) سورة يونس عليه السلام: ٢٤.

الأرض من اعمار، وزينة حتى يظنّ الناس أنّهم قد امتلكوا الأرض وهم أهلها كما عبّر القرآن الكريم والله أعلم.

ت- **اثَّاقَلْتُمْ**: وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾(١)، "**اثَّاقَلْتُمْ**" الأصل فيه: "**تثاقلتم**" وقع فيه ما وقع في الفعلين السابقين "**اثاقلتم**" فافْتُتِحَتِ الْجُمْلَةُ بِحَرْفِ الاستفهام "ما لكم" لِلاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ والتقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا الْمُتَضَمِّنَةُ عَلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فَاتِحَةَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْجِهَادِ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ وَتَمْثِيلِهِمْ بِحَالِ مَنْ يُسْتَنْهَضُ لِعَمَلٍ فَيَتَثَاقَلُ إِلَى الأَرْضِ فنَاسَبَ أَنْ يُنْزَلَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْزِلَةَ الْمُتَرَدِّدِ الطَّالِبِ فِي كَوْنِ جَزَاءِ الْجِهَادِ اسْتِحْقَاقَ الْجَنَّةِ(٢). ولَّما ضُمِّن معنى الميل والإخلاد فعدي بـــ"إلى" أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، وكان ذلك في غزوة تبوك استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك(٣). ولفظة "**اثَّاقلتم**" بأصواتها وجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه، وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق، فالنفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في

(١) سورة التوبة: ٣٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٧/١١، وتفسير القرطبيّ: ١٤٠/٨.

(٣) ينظر: تفسير النسفي: ١١١/٢.

كيانه على عنصر القيد والضرورة وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود، فهذا الثقل متأتٍّ من ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقلة الدعة والراحة والاستقرار.. ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب.. ثقلة اللحم والدم والتراب.. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه.

ث- **يَسَّمَّعون**: وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾[1]، تقصُّ علينا هذه الآيات الكريمات قصَّة عن الجنِّ والشياطين الذين منعوا من الاستماع بعد البعثة النبوية المطهرة فالفعل "**يسّمّعون**" أصله "**يتسمّعون**" تعرض للإبدال الجائز أيضاً ليعطينا صورة المتنصت الذي يستجمع كل قواه ليضعها في أذنيه كي يسترق السمع فإذا قدر له أنْ يسترق شيئا من الأمر تبعه شهاب ثاقب فأحرقه.

❖ الإبدال وتركه:

ورد الإبدال وتركه في القرآن الكريم كما في: "يذّكّرون- يتذكرون"، و"يضّرّعون- يتضرعون"، و"المصّدّقين- المتصدقين"، و"يدّبّروا- يتدبرون"، و"يزّكّى- يتزكى"، و"المطّهّرين- المتطهرين"، و"اطّيّرنا- تطيّرنا"، و"يخصّمون- يختصمون"، و"يهدّي- يهتدي"، فمن حيث التكوين اللغوي لهذه الكلمات حصل فيها إبدال معلوم فانقلب كلٌّ من الدال والتاء من جنس ما بعده، ثمَّ

(١) سورة الصافَّات: ٦-١٠.

أدغم فيه. وهذه الظاهرة ليست بمعزل عن الدلالة، بل لا بدَّ من إشارة دلاليَّة، ومغزى معنويٍّ من هذا القلب والادغام، علما أنَّ هذه الدلالة ليست مطّردة، بل هي بحسب الموضع الذي ترد فيه، وما يقتضيه سياقها العامُّ. وسنبيِّن بإذن الله ذلك فيما يأتي من شواهد:

أ- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]، فكلمة "يهدّي" من حيث البناء هي: يهتدي وحصل فيها إبدال معلوم: بقلب التاء دالا، والفائدة الدلاليَّة من مجيء "**يهدّي**" بتضعيف الدال بينما الأصل: "**يهتدي**" من غير تضعيف الدال؛ لأنَّ التضعيف يفيد المبالغة، أي: بالغ في عدم اهتداء هؤلاء. وبالغ هنا في الآية بعدم اهتدائهم؟ لأنَّ السياق يتكلم عن الأصنام والأصنام ليست كالبشر؛ لأنَّها غير قادرة على فعل شيء، ولم يرد في القرآن نفي الهداية عن الأصنام إلا في هذه الآية. في كل القرآن ورد نفي الهداية عن البشر فجاء بلفظ يهتدي وتهتدي. وإذا فقد السمع والبصر مبالغة في عدم الهداية لذا المبالغة في عدم الهداية جاءت كلمة "يهدّي" فكيف تهتدي الأصنام؟ لذا اقتضى المبالغة. هذا المعنى على قراءة من قرأ بالتضعيف، وتوجد قراءة متواترة أخرى فيكون معناها مراد أيضاً[2].

ب- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3].

---

(١) سورة يونس عليه الصلاة والسلام: ٣٥.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التتريل- محاضرات: ٦٩٣، وتفسير البغويّ: ١٣٣/٤.

(٣) سورة الكهف: ٧٨.

ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1]، أَيْ: هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضِقْتَ بِهِ ذَرْعاً، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: "تَسْطِعْ" وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الإِشْكَالُ قَوِيّاً ثَقِيلاً، فَقَالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فَقَابَلَ الأَثْقَلَ بِالأَثْقَلِ، وَالأَخَفَّ بِالأَخَفِّ، فَقَابَلَ كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظاً وَمَعْنَى، وَاللهُ أَعْلَمُ[2].

و"تَسْطِعْ" مضارع "اسطاع" بمعنى: "استطاع" على وزن استفعل، حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء، وبقيت الطاء التي هي أصل[3].

وزعم بعضهم أنَّ السين عوض قلب الواو ألفا والأصل أطاع ولا حاجة تدعو إلى أن المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل ثم دعوى أنهم أبدلوا من تاء الافتعال طاء لوقوعها بعد السين ويقال: "**تستتيع**" بإبدال الطاء تاء، و"**تستيع**" بحذف تاء الافتعال فاللغات أربع كما قال ابن السكيت: ما ألطف حذف أحد المتقاربين وبقاء الآخر في آخر هذا الكلام الذي وقع عنده ذهاب الخضر عن موسى عليهما السلام[4].

ت- قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾[5]، لقد

---

(١) سورة الكهف: ٨٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٦٩/٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/١٦، ٣٨.

(٤) ينظر: روح المعاني: ١٤/١٦.

(٥) سورة الكهف: ٩٧.

استعمل الفعل مرَّتين مرَّة بالنقص ومرَّة بالتمام: "**اسْطَاعُوا**"، و"**اسْتَطَاعُوا**" فالأوَّل: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: أَنْ يَعْلُوهُ مِنْ فَوْقِه، فالظهور: هو العلو.

فلم يستطيعوا ذلك؛ لِطُولِه وَمَلاسَتِه، والثاني: ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ مِنْ أَسْفَلِه، فالنقب: هو كسر الرّدم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته. وهو إخبار من الله تبارك وتعالى عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَنَّهُمْ مَا قدروا على أن يصعدوا من فَوْقَ هَذَا السَّدِّ وَلا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِه مِنْ أَسْفَلِه[1]، وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسْهَلَ مِنْ نَقْبِه قَابَلَ كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ فَقَالَ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِه وَلا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، وَهُوَ أَشَقُّ مِنْ الصعود إلى أعلاه، فَقَابَلَ كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظاً وَمَعْنَى، وَاللهُ أَعْلَمُ[2].

و"**اسْطَاعُوَا**" تخفيف "**اسْتَطَاعُوا**"، والجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. فابتدئ بالأخفِّ منهما؛ لأنَّه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف.

ومقتضى الظاهر أن يُبتدأ بفعل "اسْتَطَاعُوا" ويثني بفعل "اسْطَاعُوَا"؛ لأنَّه يثقل بالتكرير، كما وقع في قصَّة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3]، ثمَّ قال جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[4]، ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٧٧/٥، وتفسير البغوي: ٢٠٥/٥، التحرير والتنوير: ٣٨/١٦.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٦٩/٥، ١٧٧.

(٣) سورة الكهف: ٧٨.

(٤) سورة الكهف: ٨٢.

هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى؛ لأنَّ استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلُّقه، فهو من باب دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى[1].

ث- قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[2]، فكلمة "**يخِصِّمون**" أَيْ: يَخْتَصِمُونَ. أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ، والمعنى: أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون[3]، فضاعف الصاد للمبالغة في شدَّة تعلُّقهم بالدنيا وغفلتهم عن الآخرة ومع المبالغة في هذه الغفلة فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً. فإذا هم منتهون. كل على حاله التي هو عليها. لا يملك أن يوصي بمن بعده. ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة.. وأين هم؟ إنَّهم مثله في أماكنهم منتهون! ثمَّ ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعا، وهم في دهش وذعر يتساءلون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[4] ثمَّ تزول عنهم الدهشة قليلا، فيدركون ويعرفون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[5] ثمَّ إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش[6].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٨/١٦.

(٢) سورة يونس: ٤٩.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤/ ٢٣.

(٤) سورة يس: ٥٢.

(٥) سورة يس: ٥٢.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩٧٢/٥.

❖ الحذف من الكلم:

تتوفاهم- توفّاهم، تنــزّل- تتنــزّل، تذكرون- تتذكرون، تبدّل- تتبدل. الحذف من الفعل يدخل تحت ضابطين في القرآن كله:

أ- يحذف من الفعل إما للدلالة على الاقتطاع من الفعل [1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2]، وقال جلَّ شأنه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[3]، استعمل الفعل المضارع نفسه، لكن حذفت التاء في الآية الثانية "تنــزّل"؛ لأنَّ التنــزُّل في الآية الأولى عند الموت تنــزل الملائكة على الشخص المستقيم تبشرّه بمآله إلى الجنة، وأمَّا الثانية فهي في ليلة القدر، التنزّل في الآية الأولى يحدث في كل لحظة؛ لأنَّه في كلِّ لحظة يموت مؤمن في هذه الأرض. إذن الملائكة في مثل هذه الحالة تتنــزّل في كلِّ لحظة وفي أيِّ وقت، وفي الآية الثانية يكون التنــزُّل في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر. فالتنزّل الأوَّل أكثر استمراريَّة من التنــزّل الثاني، ففي الحدث المستمرِّ جاء الفعل كاملاً غير مقتطع "**تتنــزّل**" أمَّا في الثانية في الحدث المتقطع اقتطع الفعل "**تنــزّل**"[4].

ليدلَّ على انقطاع التنــزُّل بعد انقضاء هذه الليلة المباركة. والله أعلم.

---

(١) ينظر: لمسات بيانيَّة في نصوص من التزيل- محاضرات: ٤٥٥.

(٢) سورة فصلت: ٣٠.

(٣) سورة القدر: ٤.

(٤) ينظر: لمسات بيانيَّة في نصوص من التنــزيل- محاضرات: ٤٥٦.

ب- يحذف من الفعل في مقام الإيجاز ويذكر في مقام التفصيل[1]، فالحذف من باب التعجُّل في الفعل، وسرعة الحدث، وقد ورد في القرآن الكريم من كلمات تمَّ حذف الصوائت الطويلة من آخرها، نحو "**الداع**، **ويناد**، **وسندع**، **ويمحُ**، **ويدعُ**، **والداع**، و"قوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[2].

نجد كثيراً من المفسِّرين يعلِّلون هذه الظاهرة شكليّاً، من غير تطرُّق إلى أثرها في الدلالة، فذكروا عمَّا كان من هذه الكلمات فعلاً مضارعاً أنَّه مرفوع لكن أسقطت الواو في الرسم في أغلب المصاحف تبعا لأسقاطها في اللفظ لالتقاء الساكنين، وكان القياس إثباتها رسماً، لكنَّ رسم المصحف لا يلزم جريه على المقياس، فَحُذِفَ الصائت فِي اللَّفْظِ والخط وَلَمْ يُحْذَفْ فِي الْمَعْنَى؛ لأَنَّ مَوْضِعَهَا رَفْعٌ فَحُذِفَتْ لاسْتِقْبَالِهَا اللامُ السَّاكِنَةُ [3].

ولو كان الأمر كذلك أنَّه شكليٌّ، ولالتقاء الساكنين، فلمَ حذف الصائت من "**الداع**" مع أنَّ ما بعده يبدأ بالهمز فيكون سببا للمدِّ: ﴿ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ ﴾ فكان حقَّه أن يمدَّ مدّاً جائزاً منفصلاً، فعلَّة حذف الصائت لالتقاء الساكنين إن صلحت في موضع لا تصلح في آخر، من هذا يتبيَّن أنَّ هناك مغزى معنويٍّ، وإشارة دلاليَّة تفيد التعجُّل في الفعل، وسرعة الحدث في كلِّ الشواهد المذكورة وما كان على شاكلتها:

فقد حذف الصائت من "**يدعُ**"، **والداع**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾[4]، فحذف الصائت من

---

(١) ينظر: لمسات بيانيَّة في نصوص من التنـــزيل- محاضرات: ٤٥٦.

(٢) سورة العلق: ١٧-١٨.

(٣) ينظر: تفسير القرطبيِّ: ١٠/٢٢٦، ١٦/٢٥، وروح المعاني: ٢٥/٣٤.

(٤) سورة القمر: ٦.

"**يدعُ**"، و"**الداع**" فيه إشارة إلى سرعة الموقف، ومفاجأة الناس بالساعة كما جاء ذلك في آيات أُخَر.

وكذلك حذف الصائت من "**يدعُ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾(١)، فهو إشارة إلى سرعة رغبته في تحصيل ما يريد، وعجلته، كم دلَّت آيات أخرى على عجلة الإنسان، فحذف الصائت هنا إشارة إلى تلك العجلة.

وكذلك حذف الصائت من "**يمحُ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢)، فحذف الصائت وكأنَّ فيه إشارة إلى سرعة محو الباطل، وأنَّه لا يمكث في الأرض إلا قليلا، لذلك محا الله باطل الكفَّار وأظهر الإسلام بعد أن كان غريبا محاربا، وأغلب أتباعه الضعفاء.

وكذلك حذف الصائت من "**سندعُ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾(٣)، فحذف الصائت للفرق بين الدعوتين: دعوة الكافر لأصحابه، ودعوة الله لخزنة النار وهم أسرع، فكان في الحذف إشارة إلى سرعة تلبيتهم الدعوة.

فكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من الحذف في الكلمات اسماً أو فعلاً هو لأحد الأمرين السابقين وهما:

١- للدلالة على أن الحدث أقلّ.

٢- أن يكون في مقام الإيجاز(٤). والله أعلم.

---

(١) سورة الإسراء: ١١.

(٢) سورة: الشورى: ٢٤.

(٣) سورة العلق: ١٨.

(٤) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١٠٨.

❖ الإدغام وفك الإدغام:

من الصيغ المشتركة في العربيَّة هي ادغام المضاعف، فيأتي في حالة الجزم أحيانا مدغما، وأحيانا غير مدغم، وقد وردت الحالتان في القرآن الكريم، نحو: "يضارَّ، ومستقرّ، ويشاق- يشاقق، ويرتد- يرتدد". ولم يقف أكثر من المفسِّرين عند هذه الظاهرة كثيراً، بل أغفلها بعضهم، واكتفى بعض آخر بالإشارة إلى جواز الوجهين في الاستعمال، فذكر أنَّ: فكَّ الإدغام في المجزوم لغة الحجازيِّين، وقد أنزل الله جلَّ وعلا القرآن الكريم بلغة الحجازيين إلا قليلاً، فإنَّه نزل بلغة تميم، فإنَّ إدغام المجزوم لغة تميم؛ ولهذا قلّ[1].

وهذا لا يعطي الفائدة الدلاليَّة للبناء الصوتيّ، والصرفيّ، علما أنَّ عدم ذكر المفسِّرين له ليس عن عدم علم، أو قصور، أو تقصير معاذ الله أن يتَّهم علماؤنا بذلك، بل؛ لأنَّ ما كان في عصورهم علما شائعا صار اليوم في عصرنا مندرسا، وما كان يستغنى عن ذكره لانتشار علمه بين الناس صار اليوم لا يستغنى عن ذكره.

فنقول وبالله التوفيق: إنَّ أهمَّ فائدة دلاليَّة، وأشهر غرض معنويّ في مثل هذه الظاهرة هو إرادة التوسّع في المعنى بإيراد صيغة مشتركة فتكون كلُّ المعاني مقصودة، وإن أراد أحدها ذكر صيغته الخاصَّة[2]، كما في الأمثلة الآتية:

أ- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[3]، فإنَّ "لا" ناهية وليست نافية بدليل الراءِ في "يضارَّ" مفتوحة. فهل مبنيَّة للفاعل أو

(١) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/١٥٥.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنـــزيل- محاضرات: ٨٩٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٢.

المفعول؟ أي: لا يضره أحد. أو لا يضارِر، هو بأنْ لا يضر أحداً؟ نقول هي تحتمل الاثنين، فالمعنى يحتمل أنَّ الكاتب والشهيد يضغط عليه ويضرَّ عليه ويهدَّد فيغير من شهادته هذا المعنى محتمل.

أو أنَّ الشهيد لا يريد أن يشهد لأسباب في نفسه، يغير في الشهادة. لا يضارَر أو لا يضارِر؟ ولو أراد التنصيص على أحدهما لفكّ الإدغام، فيكون إمّأ "لا يضارَر"، أو "لا يضارِر" فيكون المنصوص قطعاً هو المقصود، ولكن لَّما كان المعنيان مقصودين جيء بصيغة تشملهما كليهما، ولو فكَّ الادغام لجعل هناك عطف، لكنَّه أوجز تعبيراً، فيكون المطلوب منع الضرر من الكاتب والشهيد ومنعه عنهما أيضاً في نفس الآية وبدل أن يقول: "ولا يُضارَر ولا يُضارِر كاتب ولا شهيد" جاء بالصيغة التي تحتمل المعنيين وهي كلمة "يُضارّ"[1].

وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾[2]، فالمعنى بهذه الصيغة المحتملة البناء للفاعل، والبناء للمفعول، بأن لا يوقع عليها ضرر من جهة الزوج بأن يضرَّها إذا كانت مطلقة. وهي عليها أن لا تضرَّ زوجها بحيث تمنع ابنها. فالمعنيان مرادان وكلاهما منهيٌّ عنه؛ لذلك جاء بالفعل لم يفكَّ ادغامه، ليشمل المعنيين[3].

لذلك لَّما أراد التنصيص على معنى واحد من المعاني المحتملة فكَّ الادغام،

---

(١) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١١١، ١٢٦، ولمسات بيانيَّة في نصوص من التنزيل- محاضرات: ٥٦٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٣.

(٣) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١٢٦.

وبيَّن المعنى هل هو للفاعل، أو للمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[1]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾[2]، فإنَّه بيَّن في الآيتين أنَّ المراد هو البناء للفاعل؛ لذلك فكَّ الادغام، وبيَّن حركة البناء وهي كسر ما قبل الآخر، فكان هو المعنى المراد تحديداً؛ لأنَّه منصوص عليه. والله أعلم.

ب- قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾[3]، فالمستقر يحتمل المصدر، أي: إلى ربك الاستقرار، ويحتمل الزمان، أي: يبقون ما يشاء الله في المحشر ثم يأمر الله تعالى بالقضاء بينهم، ويحتمل المكان، أي: موضع الاستقرار وهو الجنة أو النار. ولمَّا جيء بصيغة تحتمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يخصَّ أحداً منها دلَّ على أنَّ المقصود من هذه الآية كل المعاني المحتملة فالاستقرار إليه ومكان وزمان الاستقرار إليه فإليه المستقر. إذن هي جمعت ثلاثة معاني: المصدر واسم المكان واسم الزمان وهي كلُّها مرادة مطلوبة وليس هناك قرينة تصرف إلى أحد هذه المعاني فصارت كلُّها مقصودة، وهذا من باب التوسّع في المعنى[4].

وبالجملة فإنَّ الإدغام له دلالة خاصة وهي ما يحمله من معاني الخفاء والاستتار والإضمار، أمَّا الفكُّ فهو يعني الجلاء والمجاهرة والإظهار. وهذه المعاني تكاد تكون مطّردة في جميع الأمثلة التي تشملها هذه الظاهرة الصوتيَّة.

---

(١) سورة النساء: ١١٥.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) سورة القيامة: ١٢.

(٤) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١٠٩.

المطلب الثاني: بناء الكلام وأثره في الدلالة:

من الثوابت في البناء النحوي أنَّ الجملة أساس الكلام المفيد، ولا يعدُّ الكلام كلاماً إذا لم يكن مفيد فائدة يحسن السكوت عليها، ومن هذا المنطلق، كانت دراسات التلاؤم الصوتيِّ ومدى ارتباطه بالدلالة المقصودة، وكذلك الوقف والابتداء، والفواصل، فأغلب ذلك مرتبط ببناء الجملة، وتمام المعنى الذي تؤدِّيه، ولذلك فإنَّنا سنتناول ذلك بإذن الله فيما يأتي: التلاؤم الصوتي والدلالة[1].

من المسَّلَم به والمقطوع بصحَّته أنَّ القرآن الكريم كلَّه متلائم في الطبقة العليا، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض[2]، «والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد. وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[3]، فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتياً في تداخل حروفها، وتنافر مخارجها، سواء أكانت قريبة أم بعيدة «فإن الجيم لا تقارن الفاء ولا القاف ولا الطاء

---

(١) آثرنا مصطلح: التلاؤم الصوتيّ على مصطلح الموسيقى تأدُّباً مع القرآن الكريم لما للموسيقى من تشعُّب في المزامير وآلات اللهو، ولأنَّه مصطلح أعجميٌّ دخيل، ومصطلح التلاؤم الصوتيّ مصطلح عربيٌّ أصيل استعمله أسلافنا من العرب المسلمين. فيكون لنا فيه سلف. وقد مرَّ التنبيه على هذا في الفصل الثاني. المؤلِّفان.

(٢) المصدر نفسه: ٩٥.

(٣) النكت في إعجاز القرآن: ٩٦.

ولا الغين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير»(1)، فمن غير الوارد اجتماع الأصوات المتقاربة جدّا أو المتباعدة جدّاً، سواء في موضع النطق أو الصفات. والتلاؤم الصوتيّ لا يتعلّق بطبيعة الحروف في حدّ ذاها، وإنّما يتعلّق بالحركات أيضاً. وذلك من نحو الانتقال من الضمّة إلى الكسرة أو العكس، ومن نحو وجود أربع حركات لوازم في الكلمة الواحدة، أو من نحو التوافق بين الفتحة والحروف الحلقيّة وغيرها. وفي هذا دلالة على «امتياز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات»(2)، وسنأخذ سورة الفجر مثالا على هذا النوع سورة الفجر:

لقد تضمَّنت هذه السورة العظيمة أقساما عدَّة، لكلٍّ قسم خاصِّيَة في أصواته ومعانيه، ففي فاتحتها جمال هادئ رفيق ندي السمات، يحاكي المشهد الكونيّ الرقيق، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا لك المشهد: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(3)، فهو يضم هذه المشاهد والخلائق. ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيفة ساعة تنفس الحياة في يسر، وفرح، وابتسام، وإيناس ودود ندي، والوجود الغافي يستيقظ رويدا رويدا، وكأن أنفاسه مناجاة، وكأن تفتحه ابتهال، الجمال الحبيب الهامس اللطيف. الجمال

(1) البيان والتبيين: ١/٦٩.

(2) بحوث لغوية: ٢٨.

(3) سورة الفجر: ١-٤.

الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة؛ لأنه الجمال الإبداعي، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقته.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾[1]؟ وهو سؤال للتقرير، أي: إنَّ في ذلك قسماً لذي لب وعقل. إنَّ في ذلك مقنعا لمن له إدراك وفكر. ولكن صيغة الاستفهام – مع إفادتها التقرير– أرق حاشية، فهي تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق! أما المقسم عليه بذلك القسم، فقد طواه السياق، ليفسره ما بعده، فهو موضوع الطغيان والفساد، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم في تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال.

ثمَّ بعد ذلك جاءت الإشارات السريعة لمصارع الغابرين المتجبرين، وجرسها بين بين. فهي كحلقة الوصل بين هدوء الفاتحة، وشدَّة الزجر والتخويف: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾[2]، بدأ هذ القسم بصيغة الاستفهام، وهي في هذا السياق أشدُّ إثارة لليقظة والالتفات. والخطاب للنبي ﷺ ابتداء. ثمَّ هو لكلٍّ من تتأتّى منه الرؤية، أو التبصُّر في مصارع أولئك الأقوام، وكلُّها ممَّا كان المخاطبون بالقرآن أوَّل مرة يعرفونه وممَّا تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة، وإضافة الفعل إلى "رَبَّكَ" فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة. وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة، وعسف الجبارين

(١) سورة الفجر: ٥.

(٢) سورة الفجر: ٦-١٤.

من المشركين، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد. وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم.

فربُّك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان.

ثمَّ يأتي بعد ذلك بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانيَّة وقيمه. وهي ذات أسلوب خاصّ في السورة تعبيراً وجرساً: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[1].

ثمَّ يرد الله جلَّ وعلا على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات. وهي تشمل نوعين من العبارة والصوت: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2]، فهو وسط في شدَّة الجرس بين التقرير الأول والتهديد الأخير! فهو تنديد بهذا الواقع، وردع عنه، يتمثل في تكرار كلمة "كَلا" كما يتمثَّل في بناء التعبير وإيقاعه، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه. وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء.

(١) سورة الفجر: ١٥-١٦.

(٢) سورة الفجر: ١٧-٢٠.

ويلحظ أن هذا النوع الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم. فقد جاء بعده: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾(1)، فتظهر الشدَّة في أصواته ومعانيه، ليعظم فيه الزجر، والتخويف من يوم الوعيد. فجاء بالتهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته، بعد الابتلاء ونتيجته، في جرس قويٍّ شديد. ودك الأرض، تحطيم معالمها وتسويتها وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة. فأما مجيء ربك والملائكة صفا صفا، فهو أمر غيبي لا ندرك كيفيَّته ونحن في هذه الأرض، بل نثبته بحقيقته مجيئ حقٌّ وحقيقة يليق بالله تعالى كما هو سبحانه وتعالى أخبر به، وكذلك نثبت كلَّ ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل على طريقة السلف الصالح رضي الله عنهم لا نحيد عن منهجهم وعقيدهم قيد أنملة ولا أقلَّ من ذلك. ومع هذا فهو أمر ينبئ بالجلال والهول. وكذلك المجيء بجهنم. نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى. فأمَّا حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله المكنون ليومه المعلوم.

وإنَّما يرتسَّم من وراء هذه الآيات، ومن خلال بنائها وأصواها ودلالاها الشديدة الأسر، مشهد ترجف له القلوب، وتخشع له الأبصار. والأرض تدك دكا دكا! والجبار المتكبِّر يجيء، ويقف الملائكة صفا صفا. ثم يجاء بجهنم فتقف متأهِّبة هي الأخرى!

---

(1) سورة الفجر: ٢١-٢٦.

﴿... يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[1]، الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء. والذي أكل التراث أكلا لما، وأحب المال حبا جما. والذي لم يكرم اليتيم و لم يحض على طعام المسكين. والذي طغى وأفسد وتولى.

يومئذ يتذكر. يتذكر الحق ويتعظ بما يرى.. ولكن لقد فات الأوان ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾. ولقد مضى عهد الذكرى، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدا! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا! وحين تتجلى له هذه الحقيقة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾.. يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا. فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة. وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها. يا ليتني.. أمنية فيها الحسرة الظاهرة، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة!

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. إنّه الله القهار الجبار. الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد. والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد. وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة.

المنوعة في ثنايا القرآن كله، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم. أو من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم. وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعـــون،

---

(١) سورة الفجر: ٢٣-٢٦.

وإكثارهم من الفساد في الأرض، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال. فها هو ذا ربكم -أيها النبي ﷺ وأيها المؤمن- يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم. ولكن شتان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق.. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر. فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون. فسيعذَّبون هم ويوثقون، عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون! وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق، الذي يتجاوز كل تصور تنادى "النَّفْسُ" المؤمنة من الملأ الأعلى بالبشرى والسكينة والطمأنينة بسياق يفيض نداوة ورقَّة ورضى وطمأنينة. تتناسق فيها الأصوات الدلالات: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1]، فكم يشعر لفظ: "المطمئنة" بالأمن والراحة، والبشر، فهي كما كانت مطمئنَّة إلى ربها. مطمئنة إلى طريقها. مطمئنة إلى قدر الله بها. مطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء. فاليوم هي مطمئنَّة من العذاب.

وفي وسط الشد والوثاق، الانطلاق والرخاء: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ بهذه النداوة التي تفيض على الجوِّ كله بالرحمة وبالرضى.. ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ المقربين المختارين لينالوا هذه القربى ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ فيكاد القارئ، أو السامع يتنسَّم البشرى أرواح الجنَّة. منذ النداء الأول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، ألا إنَّها الجنة بأنفاسها الرضية الندية، تطلُّ من خلال هذه الآيات[2].

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الأقسام المتعددة في السورة. والتلاؤم الحاصل بين أصواتها في تعبيرها وفي جرسها وفي معانيها. والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) سورة الفجر: ٢٧-٣٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٠٩١-٣٠٩٦.

❖ الوقف والابتداء وأثرهما في الدلالة:

من علوم القرآن الكريم علم الوقف، وهو ممَّا له صلة مباشرة بعلم الصوت، فهو في حقيقته: «عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة لا بنية الإعراض، ويكون في رؤوس الآيات وأوساطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسماً»[1]، وهو من خصائص التلاوة للقرآن الكريم، وَلِذَلِكَ حَضَّ الأَئِمَّةُ عَلَى تَعَلُّمِه وَمَعْرِفَتِه قال عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: «التَّرْتِيلُ مَعْرِفَةُ الْوُقُوفِ وَتَجْوِيدُ الْحُرُوفِ»[2]، فهو باب عظيم القدر جليل الخطر؛ لأنَّه لا يتأتَّى لأحد معرفة معاني القرآن الكريم، ولا استنباط الأدلَّة الشرعية منه إلا بمعرفته[3]، ومن فوائده بيان موضع الوقف عند الاستراحة لغرض الفصل، فلا يجوز الفصل بين كلمتين حالة الوصل، فتقف عند اللفظ الذي لا يتعلق ما بعده به، ويحدث غالباً عند آخر حرف من الفاصلة، كما يحدث في سواه. ولا يصح الوقف على المضاف دون المضاف إليه، ولا المنعوت دون نعته، ولا الرافع دون مرفوعه وعكسه، ولا الناصب دون منصوبه وعكسه، ولا إنَّ أو كانَّ أو ظنَّ وأخواتهنَّ دون اسمها، ولا الوقف على اسمها دون خبرها، ولا المستثنى منه دون الاستثناء، ولا الموصول دون صلته، اسمياً أو حرفياً، ولا الفعل دون مصدره، ولا حرف دون متعلقه، ولا شرط دون جزائه، فأثر ذلك في بيان المعنى أمر في غاية الوضوح، وأهميته تتمثل في جانبين: تبيين معاني القرآن الكريم وتعريف مقاصده، حتى لا يخل بالمعنى أو يوقع في اللبس.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: ١/٢٤٤.

(٢) النشر في القراءات العشر: ١/٢٢٥.

(٣) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ١/٢٨٣.

والمنع من الوقف قد لا يراد ببعضه التحريم الشرعيُّ، وإنَّما المراد هو عدم الجواز في الأداء القرآني، ممَّا تكون به التلاوة قائمة على أصولها، والملحظ الصوتي متكاملاً في التأدية التامة لأصوات الحروف ودلالاتها؛ لذلك قسِّم الوقف إلى أربعة أقسام: تَامٍّ مُخْتَارٍ، وَكَافٍ جَائِزٍ، وَحَسَنٍ مَفْهُومٍ، وَقَبِيحٍ مَتْرُوكٍ[1].

١- **الوقف التَّامُّ**: هُوَ الوقف الَّذِي لا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ مِمَّا بَعْدَهُ فَيَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَالابْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ وأكثر ما يوجد عند رؤوس الآيِ غَالِباً كَقَوْلِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَثْنَائِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةًۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2]، فالوقف على "**أَذِلَّةً**" والابتداء بـــ"**وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**" هو وقف تامٌّ؛ لأَنَّهُ انْقَضَى كَلامُ بِلْقِيسٍ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ومن أمثلته في غير رؤوس الآي كلمة «نعم» في قول الله تبارك تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، فالوقف على كلمة "**نعم**" في هذه الآية وقف تامٌّ؛ لأنَّ ما بعدها غير متعلق بها، إذ ليس "**فأذن مؤذن**" في الآية من قول أهل النار[4].

٢- **الوقف الْكَافِي**: هو الوقف الْمُنْقَطِعُ فِي اللَّفْظِ الْمُتَعَلِّقُ فِي الْمَعْنَى: فَيَحْسُنُ

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٥/١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٠/١.

(٢) سورة النمل: ٣٤.

(٣) سورة الأعراف: ٤٤.

(٤) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٥/١ والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٠/١-٣٥١.

الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَالابْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ أَيْضاً نَحْوُ قول الله تبارك تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ...﴾ الآية[1]. فالوقف على "**أُمَّهاتكم**" والابتداء بِمَا بَعْدَ ذَلِكَ هو وقف كاف؛ لأنَّ كلمة "**أُمَّهاتكم**" "منقطعة في اللفظ عن" "**بناتكم**".

وَمن الوقف الكافي الوقف على رَأْسِ كُلُّ آية بَعْدَهَا "**لامُ كَيْ**"، وَ"**إلا**" التي بمَعْنَى "**لَكنْ**"، وَ"**إنَّ**" الشَّديدَةُ الْمَكْسُورَةُ، وَالاسْتفْهَامُ، وَ"**بَلْ**"، وَ"**أَلا**" الْمُخَفَّفَةُ، وَ"**السِّينُ**"، وَ"**سَوْفَ**" لِلتَّهْدِيدِ، وَ"**نعْمَ**" وَ"**بِئْسَ**" وَ"**كَيْلا**"، بشرط أن لم يَتَقَدَّمْهُنَّ قَوْلٌ أَوْ قَسَمٌ[2].

٣- **الوقف الْحَسَنُ**: هُوَ الوقف الَّذي يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَلا يَحْسُنُ الابْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ؛ لتعلُّقه به نَحْوَ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، فالوقف على اسم الجلال "**الله**" حسن، لكن لا يحسن الابتداء بـ"**ربِّ العالمين**"؛ لأنَّها متعلِّقة بما قبلها لفظاً[4].

٤- **الوقف الْقَبِيحُ**: هُوَ الوقف الَّذي لا يُفْهَمُ مِنْهُ الْمُرَادُ، أو يقتضي تغيير المعنى: كما في قوله تبارك وتعالى وتقدَّس: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]،

---

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٦/١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥١/١-٣٥٢.

(٣) سورة الفاتحة: ٢.

(٤) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٦/١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٢/١.

(٥) سورة المائدة: ١٧.

فالْوَقْفِ عَلَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾، فلا يجوز الوقف على "**قالوا**" والابتداء بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ فهو فصل بين القول ومقوله؛ وهذا يغيِّر المعنى فبعد أن كان حكاية عن قولهم يكون استئنافاً، وكأنَّه كلام مثبت، وهو مَعْنَى مُسْتَحِيلٌ بِهَذَا الابْتِدَاءِ وَمَنْ تَعَمَّدَهُ وَقَصَدَ مَعْنَاهُ فَقَدْ كَفَرَ[1].

ويتبيَّن ممَّا تقدَّم أنَّ الوقف والابتداء هما مرتبطان بالدلالة والمعنى لا ينفكَّان عنهما، وقد بيَّن ذلك السيوطيُّ فقال: «وهو فنٌّ جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتَّب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة وبه تتبيَّن معاني الآيات ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات»[2]، فلولا المعنى وتأثُّره بالوقف والابتداء لما كان هذا التفصيل، والاعتناء بهما في الدراسات القرآنيَّة خاصَّة، واللغويَّة عامَّة، فالدلالة هي قطب الرحى للوقف والابتداء.

❖ الفاصلة القرآنيَّة والمعنى:

الفاصلة من مصطلحات القرآن الكريم خاصَّة: وهي تعني الكلمة الأخيرة في الآية، فهي خواتم الآي، وهذه الخواتم: الفواصل، لم تكن بمعزل عن الدلالة والمعنى قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «وأمَّا "**الفواصل**": فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، والإسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة»[3]، ولا يعني إغفال باب التلاؤم الصوتي، في ترتيب الفواصل القرآنية، فهي مرادة بنفسها صوتيّاً

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٣٣٢/٣، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٢/١.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣٤٢/١.

(٣) إعجاز القرآن للباقلانيّ: ٢٧٠، وينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٦/١، والبرهان في علوم القرآن: ٥٣/١.

ومعنويّاً، ويضاف إليها غيرها من الأغراض البلاغيَّة، والبيانية، مما هو مرغوب فيه عند علماء البلاغة، فهي مغايرة للسجع الذي كان معروفا قبل نزول القرآن الكريم، لأنَّ السجع مهمَّته لفظية بحتة فهو يأتي لتناسق أواخر الكلمات في الفقرات وتلاؤمها، فيكون الإتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظي، لكنَّ الأمر مختلف في الفاصلة القرآنية فهي تأتي لمهمَّة لفظية معنوية بوقت واحد، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني، ولا اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ، في نسق عجيب فريد لا يجد الإنسان وصفاً له أدقَّ من الإعجاز، بينما يكون السجع في البيان التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودلالياً عن مستوى السجع فنياً، وإن وافقه صوتياً، لذلك نجد التنقل في فواصل القرآن الكريم، فلا يلتزم فيها الوقوف عند حرف معين دائما بل يلتزمه في مواضع، ولا يلتزمه في مواضع، ويجمع بين الالتزام وعدمه في مواضع أخرى، والانتقال من الوقوف على حرف إلى الوقوف على حرف آخر، أو صيغة تعبيرية أخرى في فواصل القرآن الكريم، أمر مطَّرد وشائع، وأمثلته لا تحصى كثرة، وسنذكر أمثلة على ذلك فيما يأتي:

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[١]، فقد تقدَّم المفعول به في الآيتين، وهو اليتيم في الأولى، والسائل في الثانية، وحقّهما التأخير في صناعة الإعراب، وقد جاء ذلك مراعاة لنسق الفاصلة من جهة، وإلى الاختصاص من جهة أخرى، للعناية في الأمر، فجمع بين الاختصاص ونظم الكلام، بتناسب دلاليٍّ وتلاؤم صوتيٍّ فريد[٢]، ونرى

(١) سورة الضحى: ٩-١٠.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٣٩/٢.

الإيحاء النفسي للكلمة القرآنية ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ أعمق وأدقُّ من أن يضبط بتفسير القهر: بالظلم، أو التسلُّط، أو غلبته على ماله، فلا الظالم، ولا التسلط بما يؤذى، ولا منع الحق، ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: فلا تقهر. إذ يجوز أن يقع القهر، مع إنصاف اليتم، وإعطائه ماله، وعدم التسلط عليه بالأذى: لأن حساسية اليتم، بحيث تتأثر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبُّه، وإن لم يصحبها تسلُّط بالأذى أو غلبة على ماله وحقِّه والله أعلم[(١)].

وقد جانب الدقَّة والصواب الاستاذ إبراهيم أنيس عندما أرجع ذلك إلى جانب التلاؤم الصوتيّ فقط، أي: لتلاؤم الفاصلة القرآنية صوتيّاً[(٢)]، وهو رأي مرفوض؛ لأنَّ المقصود في المقام الأول ليس النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل، وإنَّما الرحمة باليتيم والسائل، ولذلك تقدم المفعولان على فعليهما، ولو كان القصد غير ذلك لتأخَّرا وجاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته[(٣)].

٢- قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾[(٤)]، لقد اجتمع في هذه الفواصل التلاؤم الصوتيّ مع الدلالة الدينيَّة، فأدَّت غرضين في وقت واحد، فهذا الصوت المجلجل. ذو النبرات الصوتية الرتيبة. والنسق المتوازن: "**العقبة، رقبة، مسغبة، مقربة، متربة**، أصداء

---

(١) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/٥٢.

(٢) ينظر: من أسرار العربية: ٣١٢.

(٣) ينظر: بحوث لغوية: ٥٨.

(٤) سورة الضحى: ١١-١٦.

صوتية متلاحقة، في زنة متقاربة، زادها السكت تأثيراً وتلاؤما، فجمع بين التحضيض والدفع والترغيب، ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾. إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند الله، ليحفز به الإِنْسانَ إلى اقتحامها وتخطيها مهما تتطلب من جهد ومن كبد. فالكبد واقع لا محالة. وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده، ولا يذهب ضياعا وهو واقع على كل حال، ثمَّ يبدأ بكشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسّ الحاجة إليه: فك الرقاب العانية، وفكُّ الرقبة هو المشاركة في عتقها، بخلاف العتق فهو الاستقلال بهذا. وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة، وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسَّة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص، والذي تواجهه النفوس جميعا، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾[1]، ومن لم يتخطَّ العقبة واستمرَّ بكفره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾[2]، فنالوا جزاء كفرهم، وعدم إيمانهم بأنَّهم أصحاب المشأمة ويدخلون النار. والله أعلم [3].

---

(١) سورة البلد: ١٧.

(٢) سورة البلد: ١٨-١٩.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٩١١-٣٩١٢.

الخلاصة:

إنَّ ما المستعمل في القرآن الكريم من الظواهر الصوتيَّة وخصائص الأصوات وما يتعلَّق بصفاتها ومخارجها ممَّا ذكر في الفصول السابقة جاء ليؤدِّي أغراضا دلاليَّة، وجماليَّة، وتلاؤماً صوتيّاً، فلم يأت منها شيء في القرآن الكريم من غير فائدة دلاليَّة، وغرض معنويٍّ فضلاً عن الأغراض الصوتيَّة. كما أنَّ كلَّ لفظ، وكلَّ بناء نحويٍّ أو صرفيٍّ أو صوتيٍّ في القرآن الكريم جاء مرتبطا بدلالة مقصودة، ومعنى مراد، ولا يحلُّ محله غيره ممَّا يشابهه، أو يقاربه، فقد أتى في القرآن الكريم بنظم معجز، وآية ثابتة راسخة تدعو إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبكلامه، وبنبيِّه ﷺ.

حتَّى ما يتعلَّق بالوقف والابتداء والفاصلة، والتلاؤم الصوتيّ كلُّه مرتبط بالدلالة والمعنى، ولم يكن لمجرَّد جرس الصوت، أو التلاؤم الصوتيّ، أو طول الجملة، وقصرها، بل نجد أنَّ الظواهر الصوتيَّة والدلالة متلازمان يطلب أحدهما الآخر ولا ينفكُّ عنه، وماذا عسانا أن نقول في هذا الكلام المعجز الباهر الذي هو كلام الله تبارك وتعالى، ويكفي دلالة على تمامه وكماله وانسجامه وإعجازه أنَّه كلام الله تبارك وتعالى وتقدَّس فكلُّ الخلق يقف عاجزا أمامه فلا يسعهم إلا الإيمان به: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[1].



(١) سورة فصِّلت: ٤١-٤٢.

الخاتمة

نتائج البحث: يمكن تقسيم نتائج البحث إلى نوعين:

أولاً: نتائج عامة، وهي:

• لقد سبق العرب إلى تأصيل نظريَّة الصوت اللغوي، فبحثوا التغيرات الصوتيَّة والدلالة المترتِّبة على ذلك.

• ممَّا امتازت به جهود علماء العربيَّة في الدراسات الصوتيَّة، ارتباط الصوت بالتصريف، أو بالبناء الصرفيِّ، ذلك أنّ صلة الأصوات وثيقة في الدرس الصّرفي عند العرب في كل جزئياته الصوتية، فكان ما توصل إليه العرب في مضمار البحث الصرفي عبارة عن استجابة فعلية لمفاهيم الأصوات قبل أن تتبلور دلالتها المعاصرة، فإذا أضفنا إلى ذلك المجموعة المتناثرة لعناية البحت النحوي بمسائل الصوت خرجنا بحصيلة كبيرة متطورة تؤكد النظرية الصوتية في التطبيق مما يعد تعبيراً حيّاً عن الآثار الصوتية في أمهات الممارسات العربية في مختلف الفنون.

• إنَّ ظاهرة الترابط بين الصوت والدلالة لا يمكن إنكارها، وهي في اللغة العربية أظهر منها في اللغات الأخرى. نظرا لسعة مدرجها الصوتي الذي تتوزع فيه أصواتها، ووجود صيغ صرفية فيها تحتمل دلالات معينة، وثبات أصوات حروفها على مدى العصور.

• إنّ الجانب الصوتي في اللغة العربية بصورة عامة، وفي القرآن الكريم بصورة خاصة، عنصر أساسي مهم، لا يمكن الاستغناء عنه بأي حالٍ من الأحوال في بلوغ المعنى المراد، والإحاطة به.

• إنّ كثيراً من علمائنا القدامى والمحدثين كانوا قد تَنبَّهوا إلى أهمية الجانب الصوتي في اعطاء الدلالة الكاملة للكلام. فأشاروا إلى ما تنطوي عليه الأصوات اللغوية من معاني ودلالات وإيحاءات.

● إنّ هناك العديد من الظواهر الصوتية التي يمكن أن تتوافر عليها الكلمات القرآنية. وهي تتلاءم جميعاً وتتناغم، وفق نظام صوتيٍّ محكم عجيب لتؤدِّي جميعاً على دلالات خاصَّة، تسهم ببيان معاني القرآن الكريم.

• هناك علاقة وثيقة ومحكمة بين الجانب البلاغيِّ والجانب الصوتيِّ في إبراز المعنى. وإنَّ المعنى في الجملة القرآنية قائم على امتزاج البلاغة بالصوت.

• إنَّ الوقفات والسكتات الصوتية التي يأتي بها القارئ خلال أدائه تقوم بدور وظيفي في تحديد دلالات ما ينطق به.

• إنَّ الوقوف على الجمل داخل الآية الواحدة -خصوصاً الطويلة منها- يلاحظ فيه الانسجام والاتساق في الغالب أيضاً.

• تختلف الفواصل القرآنية من حيث موقعها الإعرابي أو مبناها الصرفي، لكن الوقف يحقق لها الانسجام والاتساق عن طريق نطقها ساكنة.

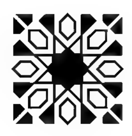
● لَمَّا كان دراستنا هذه متعلِّقة بالقرآن الكريم فإنَّنا نستغفر الله من كلِّ خطأ، أو مخالفة وردت في الكتاب ولم نعلمها، وإنَّنا لنشهد الله وملائكته وجميع خلقه على إيماننا وتصديقنا بكلام ربِّنا، وعدم الزيغ، أو التطاول، أو التحريف لمراد الله تعالى من كلامه، بل نؤمن بكلِّ ما جاء عن الله ورسوله ﷺ على مراد الله ورسوله صلَّى الله عليه كما كان السلف الصالح ﷺ وأرضاهم.

كانت هذه أهم النتائج في مفردات البحث، وخلاصة للجهود الصوتية فيه على وجه الإشارة والتمثيل، فشكلت بضم بعضها إلى بعض حياة جديدة

في مناخ القرآن لا نحسبها قد عولجت من ذي قبل باستقلالية منظمة، فدل ما ورد في البحث بكل جزئياته وشذراته المتناثرة بين طياته على لمح ذي شأن في أشعة هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، عسى أن يكون لنا ذخراً يوم الدين، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وتمسَّك بالكتاب والسنَّة على نهجهم إلى يوم الدين.

وسبحانك اللهمَّ وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك

تمَّ بحمد الله



المصادر والمراجع

أوَّلاً: المصادر والمراجع العربيَّة:

- القرآن الكريم.

١ - أبحاث في أصوات العربية، الدكتور حسام سعيد النعيميُّ، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة - بغداد، ط: ١، عام: ١٤١٨ هـ-١٩٩٨م.

٢- الإبدال اللغوي، أبو الطيب، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق، عام: ١٩٦٠م.

٣ - الإبلاغيَّة في البلاغة العربيَّة، سمير أبو حمدان، منشورات عويدات الدولية، لبنان - بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٤ - الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفَّى: ٩١١ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٥ - أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيِّ، الدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، عام: ١٩٨٧م.

٦ - أثر المفاهيم النقديَّة في البناء اللغويِّ عند المرزبانيّ، عماد بن خليفة الداينيّ البعقوبيّ، لمَّا يطبع بعد.

٧ - أسباب حدوث الحروف، أبو علي الحسين بن عبدالله ابن سينا الشيخ الرئيس (ت: ٤٢٨هـ) القاهرة، عام: ١٣٥٢هـ.

٨ - أسرار البيان في التعبير القرآني - محاضرة، د. فاضل إبراهيم السامرائي.

٩ - أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة أحمد مختار عمر، ط مطبعة دار الكتب، سنة ١٤٠٣هـ.

١٠- الأشباه والنَّظائر، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ط: ٢، بيروت- لبنان، دار الحديث للطباعة والنشر والتَّوزيع، عام: ١٤٠٤هـ.
١١- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة العين، أحمد محمد قدُّور، دار الفكر، سورية - دمشق، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٢- الأصوات اللغويَّة، إبراهيم أنيس، ط٦، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط: ٣، عام: ١٩٩٢م.
١٣- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف- مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.
١٤- الأغاني، أبو الفرج، على بن الحسين الأصبهاني (ت: ٣٥٦هـ)، مصور عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستا تسوماس، القاهرة، ١٩٦٣م.
١٥- الألسنية العربية، ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ط:٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٦- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني أبو المعالي جلال الدين، محمد ابن عبد الرحمن الشافعي (ت: ٧٣٩هـ) تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، الطبعة: الخامسة: ١٩٨٠م.
١٧- البحث اللغوي عند العرب، الدكتور أحمد مختار عمر، منشورات عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة، عام: ١٩٨٢م.
١٨- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفَّى: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، عام: ١٤٢٠هـ.
١٩- بحوث لغوية، الدكتور أحمد مطلوب، دار الفكر، عمّان - الأردنّ، الطبعة: الأولى، عام: ١٩٨٧م.

٢٠ - بدائع الفوائد، ابن قيِّم الجوزيَّة، اعتنى به وراجَعه: محمد عبدالقادر الفاضلي وأحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية، لبنان- صيدا، ط:١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢١ - البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان عن طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

٢٢ - بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢٣ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسن السندوبيّ، المطبعة الرحمانية، القاهرة، عام: ١٩٣٢م.

٢٤- تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية، حفني ناصف، ط: ٢، سنة: ١٩٥٨م.

٢٥ - التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفَّى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان. د.ت.

٢٦ - التحديد في الإتقان والتجويد، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، تحقيق: الدكتور غانم قدوري حمد، مكتبة دار الأنبار - بغداد/ ساعدت جامعة بغداد على طبعه، الطبعة: الأولى: ١٤٠٧هـ-١٩٨٨م.

٢٧- التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية، سلمان حسن العاني، نشر: النادي الأدبي الثقافي- جدة، الطبعة:١، عام: ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٢٨- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش، تونس، عام: ١٩٧٣م.
٢٩- التطوّر اللغوي، رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، القاهرة، المؤسسة السعودية بمصر، سنة ١٩٨١م.
٣٠- التطور النحوي للغة العربية، براجشتراسر- المستشرق الألماني-، مطبعة السماح، القاهرة، سنة: ١٩٢٩م.
٣١- تفسير البغويِّ = معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفَّى: ٥١٠هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، عام: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣٢- التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتورة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، دار المعارف بمصر، القاهرة، عام: ١٩٦٨م.
٣٣- تفسير ابن عاشور =: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (المتوفَّى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر- تونس، عام: ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤م.
٣٤- تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفَّى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون- بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٩هـ.

٣٥- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفَّى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، عام: ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٣٦- التفسير الكبير = مفاتيح الغيب، فخْر الدين الرازي أحمد بن عمر، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، د.ت، د.ط.

٣٧- تفسير المنار = تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلمونيّ الحسينيّ (المتوفَّى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام: ١٩٩٠م.

٣٨- تفسير النسفيّ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار النفائس - بيروت: ٢٠٠٥م.

٣٩- التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفَّى: ١٣٩٨هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، عدد الأجزاء: ٣، (الجزء: ٣ هو نُقول وُجدت في أوراق المؤلف بعد وفاته ونشرها د محمد البلتاجي).

٤٠- التكملة (الجزء الثاني من الإيضاح العضدي)، أبو علي الفارسيُّ، تحقيق: حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - الجزائر العاصمة، د. ط، عام: ١٩٦٦م.

٤١- التمهيد في علم التجويد، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد ابن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربيَّة السعوديَّة، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م.

٤٢- توضيح المقاصد والمسالك لشرح ألفية ابن مالك، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٩٧٧م.
٤٣- التيسير الوافي في التجويد الكافي، جمال محمود حميد الكبيسيُّ، شركة الخنساء، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة، عام: ١٤٢٢ هـ-٢٠٠٢م.
٤٤- جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
٤٥- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ط١، حيدر أباد، مصورة بالأوفست مطبعة مجلس دائرة المعارف، عام: ١٣٤٤هـ.
٤٦- الحاشية الكبرى، للإمام العلامة الحبر البحر الفهَّامة أُستاذ الأساتذة ووحيد الجهابذة أُستاذنا السيِّد محمد الدمنهوريُّ- المسمَّاة: الإرشاد الشافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي، نفع الله بها الأنام وأفاض على مؤلِّفها سحائب الرحمة والإكرام آمين، الطبعة الأولى، المطبعة العامرة الشرفيَّة بمصر المحميَّة، سنة: ١٣٠١ هجريَّة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيَّة.
٤٧- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، الطبعة: الرابعة، د.ت.
٤٨- دراسة الصوت اللغويّ، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة، عام: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٤٩- دروس في علم أصوات اللغة، كانتينو، تعريب: صالح القرمادي، تونس، ط: ١، عام: ١٩٦٦م.
٥٠- دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصريَّة - القاهرة.

٥١- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق: محمّد محمّد حسين، د.مط، د.ط، د.ت.

٥٢- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف المصرية، عام: ١٩٥٨م.

٥٣- ديوان جرير (٣٣-١١٤هـ)، دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت، عام: ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م.

٥٤- ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمريّ، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة، تحقيق: دريَّة الخطيب، ولطفي الصقَّال، إدارة الثقافة والفنون- دولة البحرين، المؤسَّسة العربيَّة- بيروت- لبنان، ط: ٢، د.ت.

٥٥- شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط: ١، عام: ١٩٨٣م.

٥٦- ديوان كثير عزّة، جمعه وشرحه: الدكتور إحسان عبّاس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت- لبنان، عام: ١٣٩١ هـ-١٩٧١م.

٥٧- ديوان ابن مقبل- تميم بن أُبَيٍّ بن مقبل، عني بتحقيقه الدكتور عزَّة حسن، دار الشرق العربيّ، بيروت- لبنان، حلب سوريَّة، عام: ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥م.

٥٨- ديوان النجاشيِّ الحارثيِّ، صنعة وتحقيق: صالح البكاري، الطيب العشاش، سعد غراب، دار المواهب، بيروت- لبنان، ط: ١، عام: ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٥٩- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسيُّ، اعتنى به: جمال شرف وعبد الله علوان، دار الصحابة للتراث، طنطا- مصر، عام: ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٦٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (المتوفَّى: ١٣٤٢هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت. د.ت.

٦١- سرُّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط١، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٩٥٤م.

٦٢- سرُّ الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ)، تحقيق: عبد المتعال الصعيديّ، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، عام: ١٩٦٩م.

٦٣- شذا العرف في فن الصرف، الأستاذ أحمد الحملاويّ، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٦٤- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبدالله بن عقيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ٦، عام: ١٩٧٩م.

٦٥- شرح أنموذج الزمخشريّ، للعلّامة محمَّد الإردبيليّ (المتوفَّى عام: ٦٤٧هـ) ومعه حاشية قاسم بن نعيم الحنفيّ، مطبعة السيماء، بغداد، عام: ٢٠١٣م.

٦٦- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد ابن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد (المتوفَّى: ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٦٧- شرح ديوان أبي تمَّام حبيب بن أوس الطائيّ لأبي الحجَّاج يوسف بن سليمان ابن عيسى الأعلم الشنتمريِّ، (٤١٠- ٤٧٦هـ)، دراسة وتحقيق: الأستاذ إبراهيم نادن، قدَّم له وراجعه: الدكتور محمَّد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، الطبعة الأولى، عام: ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م.

٦٨- شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١هـ)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

٦٩- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، حقّقه وقدّم له الدكتور إحسان عبّاس الأستاذ المشارك في الجامعة الأمريكيّة ببيروت، التراث العربيّ- سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، تسلسل: ٨، عام: ١٩٦٢م.

٧٠- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي، تح: محمد نور الحسن وآخرين، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية.

٧١- شرح المفصل، موفق الدين ابن يعيش، نشر عالم الكتب، بيروت، د. ت.

٧٢- شرح المراح في التصريف، العيني بدر الدِّين محمود بن أحمد، تحقيق: عبد الستار جواد، مؤسَّسة المختار للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٧٣- شعر مزاحم العُقَيْليِّ، تحقيق: نوري حمُّدي القيسيّ، وحاتم صالح الضامن.

٧٤- شعر إبراهيم بن هرمة القرشيّ (٩٠-١٧٦هـ)، تحقيق: محمد نفّاع وحسين عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، د.ت.

٧٥- الشفاء - الطبيعيَّات - السماع الطبيعيّ، الشيخ الرئيس ابن سينا، مخطوطات المعرفة.

٧٦- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري؛ تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين.

٧٧- الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، ط: ١، بيروت- لبنان، عام: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٧٨- ضرائر الشعر، ابن عصفور الإشبيليّ، تحقيق السيّد إبراهيم محمَّد- مدرّس مساعد بكلِّيَّة الآداب- جامعة عين شمس- القاهرة، دار الأندلس، الطبعة الأولى، كانون الثاني: ١٩٨٠م.
٧٩- العربية الفصحى- نحو بناء لُغوي جديد-، فليش هنري، ترجمة: عبد الصبور شاهين، المطبعة الكاثوليكية، لبنان- بيروت، ط١، ١٩٦٦م.
٨٠- علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، عام: ٢٠٠٠م.
٨١- علم الأصوات، برتيل مالمبرج، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، عام: ١٩٨٥م.
٨٢- علم اللغة العام، الدكتور فردينان دي سوسور، ترجمة د. يوئيك، ويوسف عزيز، آفاق عربية، بغداد، عام: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٨٣- علم اللغة العام- الأصوات، كمال بشر، دار المعارف، مصر، ط: ٦، ١٩٨٠م.
٨٤- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، مصر ١٩٩٢م.
٨٥- العين، الخليل بن أحمد الفراهيديُّ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، (بيروت)، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٨٦- غاية المريد في علم التجويد، عطية قابل نصر، القاهرة، الطبعة: السابعة مزيدة ومنقحة. د.ت.
٨٧- فتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد، صفوت محمود سالم، دار نور المكتبات، جدة- المملكة العربيَّة السعوديَّة، الطبعة: الثانية، عام: ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

٨٨- الفهرست، ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق، تحقيق: رضا تجدد. د.ت.

٨٩- في الأصوات اللغوية - دِراسة في أصوات المدّ العربية، غالب فاضل المطَّلبيُّ، منشورات وزارة الثقافة في العِراق، العراق - بغداد، (د.ط).

٩٠- في البحث الصوتي عند العرب، الدكتور خليل إبراهيم العطية، سلسلة الموسوعة الصغيرة، دار الجاحظ، بغداد، عام: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٩١- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفَّى: ١٣٨٥ هـ)، دار الشروق- بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشرة، عام: ١٤١٢هـ.

٩٢- في النحو العربيِّ قواعد وتطبيق، مهدي المخزوميُّ، القاهرة، الطبعة: الأولى، عام: ١٩٦٦م.

٩٣- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان- عجمان، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١هـ.

٩٤- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٩٥- القراءات الشاذَّة دراسة صوتيَّة ودلاليَّة، حمدي سلطان حسن أحمد العدويُّ، ج: ٢، دار الصحابة للتراث، مصر - طنطا، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٩٦- قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود، عبد العزيز ابن عبد الفتاح القارئ، مؤسسة الرسالة.

٩٧- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفَّى: ١٤٢١هـ)، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، عام: ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٩٨- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفَّى: ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة، عام: ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.

٩٩- الكتاب، سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، علَّق عليه ووضع حواشيَه وفهارسه: إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، (د.ر.ط)، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٠٠- كتاب الموسيقى الكبير، الفارابي، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة. د.ت.

١٠١- الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، د.ت.

١٠٢- الكشْف عن وجوه القراءات السَّبع وعِلَلها وحججها، مكّي بن أبي طالب القيْسيّ، تحقيق: محيى الدين رمضان، ط: ٢، بيروت، مؤسَّسة الرسالة، عام: ١٤٠٤هـ.

١٠٣- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

١٠٤- اللغة العربية معناها ومبناها، الدكتور تمّام حسّان، نشر الهيأة المصرية للكتاب، القاهرة، عام: ١٩٧٣م.

١٠٥- لمسات بيانية في نصوص من التنـــزيل- محاضرات، فاضل بن صالح ابن مهدي بن خليل البدري السامرائي، أعدَّه للشاملة: أبو عبد المعز: وهو تفريغ للحلقات، وفيه اختلاف وزيادة عن الكتاب المطبوع بالاسم نفسه.

١٠٦- مبادئ علم الأصوات العام، ديفيد أبرُكرومبي، ترجمة: محمَّد فتيح، القاهرة، عام: ١٩٨٨م.

١٠٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله ابن الأثير (ت: ٦٣٧هــ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفي البابي، القاهر، عام: ١٩٣٩م.

١٠٨- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨هــ)، مطبعة العرفان صيدا - لبنان، عام: ١٣٣٣هــ.

١٠٩- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفَّى: ٧٢٨هــ)، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هــ-١٩٩٥م.

١١٠- مجموعة الرسائل والمسائل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (المتوفَّى: ٧٢٨هــ)، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربيّ.

١١١- المختصر في أصوات اللغة العربية- دراسة نظرية تطبيقيَّة- ، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، (القاهرة)، مصر، ط: ٤، ١٤٢٧ هــ- ٢٠٠٦م.

١١٢- المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، بيروت، دار الفكر.

١١٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفَّى: ٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، عام: ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

١١٤- المصباح المنير في غريب الشَّرح الكبير، أحمد بن علي الفيومي، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، سنة ١٣٩٨هـ.

١١٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى= إعجاز القرآن ومعترك الأقران، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١١٦- معجم الصوتيَّات، أ.د. رشيد عبد الرحمن العبيديّ، ديوان الوقف السنِّيِّ - مركز البحوث والدراسات، جمهوريَّة العراق - بغداد، الطبعة الأولى، عام: ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.

١١٧- معجم القراءات القرآنيَّة مع مقدِّمة في القراءات وأشهر القرَّاء، الدكتور أحمد مختار عمر الأستاذ بكلِّيَّة دار العلوم جامعة القاهرة، والدكتور أحمد سالم مكرم الأستاذ بقسم اللغة العربيَّة وآدابها جامعة الكويت، مطبوعات جامعة الكويت، الطبعة الثانية، عام: ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١١٨- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط: ٢، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠م.

١١٩- معجم المصطلحات النَّحويَّة والصرفيَّة، محمد سمير نجيب اللبدي، ط١، بيروت، مؤسَّسة الرسالة، دار الفرقان، سنة: ١٤٠٥ هـ.

١٢٠- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، أبو محمد، عبد الله، جمال ابن يوسف (ت: ٧٦١هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق: ١٩٦٤م.

١٢١- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمَّد بن أبي بكر ابن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفَّى: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلميَّة - بيروت. د.ت.

١٢٢- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداوديّ، دار القلم، الدار الشامية- دمشق- بيروت، الطبعة: الأولى: ١٤١٢هـ.

١٢٣- مفهوم القوَّة والضعف في أصوات العربية، محمد يحيى سالم الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١٢٤- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفَّى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام: ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩م.

١٢٥- المقتضب، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفَّى: ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت - لبنان، د.ت.

١٢٦- المكتفى في الوقف والابتدا، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفَّى: ٤٤٤هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٢٧- من أسرار اللغة، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، ط: ٢، عام: ١٩٧٢م.

١٢٨- منهاج السنَّة النبويَّة في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفَّى: ٧٢٨هـ)، تحقيق:

محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م.

١٢٩- الموشح- مآخذ العلماء على الشعراء في عدَّة أنواع من صناعة الشعر، للمرزبانيِّ أبي عبيد الله محمَّد بن عمران بن موسى المرزبانيِّ (المتوفَّى: ٣٨٤هـ)، تحقيق عليّ محمَّد البجاويّ، نهضة مصر للطباعة، د.ت.

١٣٠- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري محمد بن محمد الجزري (ت: ٨٣٣هـ)، المكتبة التجارية، القاهرة، د.ت.

١٣١- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد محمد عمار، دار الفكر، ط: ١، دمشق، ١٩٩٨م.

١٣٢- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في أعجاز القرآن، علي ابن عيسى الرمَّانيُّ (ت: ٣٨٦هـ)، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر - القاهرة، عام: ١٩٧٦م.

١٣٣- نهاية القول المفيد في علم التجويد.

١٣٤- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي، دار النصر للطباعة الإسلامية، ط: ١، شبرا- مصر، عام: ١٤٠٢هـ.

١٣٥- همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع.

١٣٦- الوجيز في علم التجويد، المؤلف: محمود سيبويه البدوي (المتوفَّى: ١٤١٥هـ)، ترقيم المكتبة الشاملة.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

١- اللسانيات العامة، روبرت هنري روبيتز، مطبعة جامعة إنديانا، عام: ١٩٦٦م. (مصدر إنجليزيٌّ).

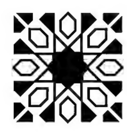
٢ - دراسة علم الأصوات والصرف في العربيَّة الفصحى، أندريه رومان، جامعة بروفانس، عام: ١٩٨٣م (مصدر فرنسيٌّ).

ثالثاً: الدوريَّات:

١ - أشباه الصوائت في اللغة العربية نظامها ووظائفها، د. محمد أمنــــزوي أستاذ النحو والصرف كلية الآداب - جامعة القاضي عياض بمراكـــش، بحث منشور في الشابكة.

٢ - تداعيات التعاقُب والاستبدال الصوتي في تثليث عناصر المباني المعجمية الإفرادية، مكي درار، مجلة الصوتيات، حوليَّة أكاديميَّة مُحكَّمة، تصدر عن مخبر الصوتيات العربية الحديثة، جامعة محمد دحلب، البليدة- الجزائر، العدد الثالث، السنة: ٢٠٠٧م.

٣ - قواعد تشكل النغم في موسيقا القرآن، نعيم اليافي، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد كتاب العرب، (دمشق)، سورية، العددان ١٥، ١٦، رجب، شوال، ١٤٠٤هـ/ أبريل - نيسان، يوليو - تموز، ١٩٨٤م، السنة الرابعة.



الفهرس

هذا الكتاب

لقد قدم العرب والمسلمين مفصّلاً صوتياً مركباً من مظاهر البحث الصوتي يمثل غاية في الدقة والتعقيد، لم يستند إلى أجهزة متطورة بل ابتكرته عقول علمية نيرة، وأذهان صافية، تجردت للحقيقة، وتمحضت للبحث العلمي، مخلصة فيه النية، وكانت الخطوط العريضة لهذا العطاء على وجه الإجمال عبارة عن مفردات هائلة، ونظريات متراصة، يصلح أن يشكل كل عنوان منها فصلاً من باب، أو باباً في كتاب، يستقرئ به ما قدمه علماء العربية من جهد صوتي مميز واكبه الغربيون بعد أن عبدّ طريقه العرب والمسلمون...

هذه المفردات في عناوين ريادية تمثل الموضوعات الآتية في نظرية الصوت:

١- تعريف الصوت وماهيته.
٢- ظاهرة حدوث الصوت.
٣- معالم الجهاز الصوتي عند الإنسان.
٤- أنواع الأصوات العالمية.
٥- درجات الأصوات في الاهتزازات.
٦- بدايات الأصوات عند المخلوقات.
٧- علاقة الأصوات باللغات الحية.
٨- أعضاء النطق وعلاقتها بالأصوات.
٩- الأصوات الصادرة دون أعضاء نطق.
١٠- علاقة السمع بالأصوات.
١١- مقاييس الأصوات امتداداً أو قصراً.
١٢- تسميات الأصوات وأصنافها.

هذه هي فكرة الكتاب مع مباحث مهمة للدارسين في مجال علم الأصوات ودلالاتها.